

التيسير في أحاديث النفسنة

من أملاء
سماعة الشيخ محمد المكي الناصري



الجزء الخامس



الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الغرب الإسلامي

ص.ب. ٥٧٨٧/١١٣
بيروت - لبنان

الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين
في المصحف الكريم

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا
وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١١﴾
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
وَلَا تَخْطُهُ وَبِيمِينِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٣﴾ بَلْ هُوَ
آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ
مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

يُثَبِّلِي عَلَيْهِمْ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنَةً وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
يُعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبْدُونِ ﴿٥٦﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَا آفَةٍ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَٰئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
 مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَايَهُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
 لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾
 وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ
 لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا
 اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾
 لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا
 أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ
 يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٨٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾
 وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ ﴿١﴾ عَلَبْتَ الزُّرُومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ
 بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ
 مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ
 اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَفُرُونَ ﴿٨﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأول من الحزب الحادي والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِإِقْدَارٍ رَبِّهِمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

لقد سبق في علم الله أن دين الحق الذي هو دين الإسلام، رغمًا عن ظهوره وانتشاره في أطراف الأرض، وإقبال مختلف السلالات على الدخول فيه أفواجًا، سوف لا يتفرد وحده بالبقاء في العالم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، بل إنه ستعايشه باستمرار أديان أخرى، وستحاول أن تنافسه وتتحداه، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولا سيما «الأديان الكتابية» التي ينتمي إليها اليهود والنصارى.

ومعايشة الإسلام لغيره من الأديان، تفرض على أهله أن يدافعوا عنه في وجه الهجمات المضادة بالحجة والبرهان، وحتى

يتم القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، وجّه كتاب الله في بداية هذا الريع الخطاب لكافة المومنين، ولا سيما المسلحين منهم بسلاح العلم والدين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وبذلك أفهم المسلمين أولاً أن الإسلام لا يخشى من مواجهة خصومه، وأنه لا بد للمسلمين من أن يجادلوا عن دينهم، ويبتلوا ما يوجّه إليه من الشبه الزائفة والتهم الباطلة، وأفهمهم ثانياً أن مجادلة المسلمين لمخالفينهم في العقيدة والدين لا تكون بأي شكل كان، بل لا بد أن تكون على شكل يؤدي بالخصم إلى الاقتناع والإذعان، وهذا المعنى هو ما عبرت عنه الآية الكريمة إذ قالت: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

و﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وصف للطريقة التي يجب أن يتبعها المجادل عن دينه في الدفاع عنه، حيث يختار لجذاله طريقة مطبوعة بطابع الرفق واللين، لا تُشتم منها رائحة الغلظة والجفاء، و﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هي كذلك وصف للحجة التي ينبغي أن يحتج بها المجادل عن دينه للدفاع عنه، بحيث يختار من بين الحجج التي بين يديه أوضحها وأقواها، وأسرعها إيصالاً للمقصود والمطلوب، وبذلك ينصر دينه، ويبرّ يمينه. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «لكن يكون الجدل بما يحسن من الأدلة ويجمل من الكلام، بأن يكون منك للخصم تمكين، وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلة أظهرها وأنورها، وإذا لم يفهم الخصم أعاد عليه المجادل الحجة وكررها».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه أن من

تَصَدَّى للمسلمين بالظلم والعدوان لَا يُجَادَل بالرفق واللين، وإنما يُعَامَل معاملة الظالمين، فَيُحَدُّ من ظلمه بما يناسبه من الجدل أو الجلال، إلى أن يرتدع عن ظلمه ويرجع إلى السداد، ومن الظلم الاعتداء على الحرمات والتهجم على المقدسات، وغدر العهود والالتزامات.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يتضمن مثلاً تطبيقياً لمجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن، قال ابن كثير: «فإذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا نُقَدِّم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا نُقَدِّم على تصديقه لأنه قد يكون باطلاً، ولكن نومن به إيماناً مجملاً، شريطة أن يكون أمراً منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً، وتفرد البخاري في صحيحه برواية حديث عن أبي هريرة قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبُوهم، وقولوا آمناً بالذي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الآية».

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّ وَاحِدٌ﴾ معناه أن الخلق كلهم عيال الله، وأن رب العالمين الذي خلقهم ورزقهم إلهٌ واحدٌ، وإن كانت عقيدة التوحيد في الإسلام بالنسبة لغيرها من العقائد هي العقيدة الوحيدة الصحيحة والسليمة من كل الشوائب، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (١٠٩ / ٦): ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي على خلاف ما عليه أهل الكتاب.

ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم، مذكراً إياه بأنه كما مَنْ على الأنبياء السابقين بإنزال الكتب إليهم، ها هو يكرمه ويمنّ عليه بالكتاب الذي أنزل إليه، مؤكداً، لمن لا يزال في شك من أمره، أن منصب النبوة والرسالة وتلقي الوحي الذي رشحته له العناية الإلهية، لم يكن يدور من قبل في خلده، ولم يكن له يد في اكتسابه، ولا تشوّف إلى تلقي مدده، وإنما هو هبة من الله منحه إياها، ليثبت صدق رسالته إلى الخلق، حتى يُقْلِعُوا عن الباطل ويؤمنوا بالحق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي الموعولون في الكفر والراسخون فيه، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذَا أُلْقِيَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ﴾ أي: وكان لهم في ارتيابهم متعلق.

ثم قال تعالى في وصف كتابه العزيز: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾، أي: أن آيات الكتاب العزيز بلغت الغاية في قوة الدلالة ووضوح المعنى وبلاغة القول، بحيث يكفي أن يسمعها الإنسان لينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويقتنع بها فكره ولبه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ومن ثم كان لا يجحدها ولا يتنكر لها إلا الإنسان الذي قضى على نفسه بالظلم والحرمان: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

وقد يسر الله آيات الذكر الحكيم، فجعلها في متناول العقول والأذهان، وحفظها لفظاً ومعنى، نصاً وروحاً، في صدور

الذين آتاهم علم القرآن، فأمنوا بها وقاموا بحققها، حفظاً وتلاوة وتفسيراً وتلقيناً إلى آخر الزمان، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٧ / ٣) : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ ، وقوله تعالى في آية ثانية (١٥ : ٩) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وانتقل كتاب الله إلى وصف مزاعم المتعنتين، الجاحدين لآياته، الذين يتحلون لأنفسهم الأعذار، عسى أن لا يقعوا تحت طائلة الإنذار والإعذار، فقال تعالى حكايةً عنهم أولاً، ومبطلاً لمزاعمهم ثانياً: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

والآيات التي يقصدونها ويطلبون النبي بها هي من نوع «المعجزات المادية» التي رافقت رسالة بعض الرسل السابقين، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، مما كان سنداً لهم في دعوى الرسالة، وبرهاناً على صدقهم لدى من أرسلوا إليه، لكن كتاب الله ردَّ على أولئك الجاحدين بأن إنزال مثل تلك «الآيات المادية والوقتيّة» مردّه إلى الله وييده وحده، لا دخل فيه لنبي ولا رسول.

على أن الله تعالى قد وهب خاتم أنبيائه ورسله كتاباً معجزاً: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ يعدل بجميع تلك المعجزات، ولا يقتصر أثره على فترة محدودة من

الأوقات، بل سيظل إعجازه قائماً، وأثره سارياً في كل زمان، وسيزداد إعجاب الإنسان بما فيه من علم وحكمة، وما يدعو إليه من إحسان ورحمة، كلما ارتفع مستوى الإنسان، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ويشهد لتفسير هذه الآية من الحديث الصحيح قوله ﷺ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وَوَصَفَ كِتَابَ اللَّهِ مَا عَلَيْهِ أُولَٰئِكَ الْجَاهِدُونَ مِنْ عِنَادٍ وَغُرُورٍ وَتَحَدُّ لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَلِلرَّسَالَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ يَغْشِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، لكن العذاب الذي يستعجلون به، ويتحدون الرسول بطلبه، لا يأذن الله به إلا عند استنفاد جميع الوسائل لهدايتهم، وإضرارهم على ضلالتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢١ : ١٠٧)، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٧ : ١٥٦)، وفي الحديث القدسي: «رحمتي سبقت غضبي».

واتجه كتاب الله بالخطاب إلى المومنين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وملأت عليهم أفئدتهم، وعرفهم أن أرضه الواسعة مفتوحة في وجوههم، مُيسرة الأسباب من أجلهم: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٢: ٢٩)، كما أن رحمته الواسعة محيطة بهم من كل جانب، فما عليهم إلا أن يعتزوا بإيمانهم ويتمسكوا بدينهم، ولا يضيّقوا ذرعاً بكيد الكائدين، ومكر الماكرين، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿يَعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾. وهذه الآية كما فتحت الباب أمام المومنين للتفكير في الخلاص من أذى المشركين، والهجرة من مكة إلى المدينة، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (٤: ٩٧) فتحت الباب أيضاً في وجه المسلمين أجمعين، للسير في أرض الله، والتعرف على صنع الله، والقيام بالدعوة إلى الله، وذلك هو ما قام به المسلمون الأولون، عند ما جابوا أكناف الأرض، طولها والعرض، فانشأوا «دار الإسلام»، وآخوا في دين الله بين مختلف السلالات والأقوام.

ونظراً لما تؤدي إليه مسيرة «إيمانية» عالمية كبرى من هذا النوع، وما يمكن أن يتعرض له المومنون القائمون بها من متاعب وأخطار، عقب كتاب الله على ذلك بما يُطمئن نفوسهم، ويؤكد ثقتهم بالله وبحسن جزائه في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

ثم أشار كتاب الله إلى أن سر النجاح في هذه المسيرة الإنسانية العظمى يكمن في مواصلة العمل، لا في الجمود والكسل، وفي التزام الصبر، لا في الجزع والملل، وفي التوكل على الله بعد اتخاذ الأسباب، وطرق أبواب رزقه التي ليس عليها أي حجاب، فقال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف طائفة متناقضة مع نفسها كل التناقض، وُجدت في القرون الخالية، ويوجد مثلها في العهود الحالية، ألا وهي تلك الطائفة التي تدعي أنها تقر بوجود الله، لكنها لا تومن برسله ولا بكتبه ولا باليوم الآخر، ولا تدين لخالقها ورازقها بالعبادة والطاعة لا في قليل ولا كثير، بل تقضي حياتها مستغرقة في المتع والشهوات، ولا تلتفت إلى ما أنزل الله من الآيات البينات، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُوفِّكُون، اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ نَّزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الكاملة والدائمة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ، وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الوارد استطراداً في سياق هذه الآيات، خطابٌ لرسوله الأعظم، يدعوه إلى حمد الله وشكره، على ما أوضح من الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، وإن عَمِيَ عنها الجاحدون، وتَنَكَّر لها المعاندون.

وأورد كتاب الله في هذا السياق آية تُصِفُ جحود رؤوساء الشرك - قبل أن يسلم منهم من أسلم - لنعمة الله التي أنعم بها على سكان مكة كافة، إذ جعل بلدهم - بفضلله وكرمه - «حَرَمًا آمِنًا» يتمتع بالقداسة والاحترام، ومأمناً لهم وللوافدين عليهم من كل عدوان وانتقام، وكان من حقهم، بل من واجبهم، أن يشكروا نعمة الله، ويدخلوا في دين الله، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُونَ بِاللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (١٤ : ٢٨).

وحيث أن المُعَارِضِينَ للحق، والمضللين للخلق، لا يخلو الواحد منهم من أحد أمرين: إما أن يكون «كاذباً» يعمل على ترويع الباطل، وإما أن يكون «مُكَذِّباً» يعمل على إبطال الحق، وقد يجمع الواحد منهم بين الأمرين فيكون كاذباً ومُكَذِّباً، فقد تصدى لهم كتاب الله بما هم أهله، وأشار من طرف خفي إلى أن ما هم عليه من كِبَرٍ واستعلاء له أثر كبير فيما ينشرونه وينصرونه من الكذب والهراء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

لكن من آمنوا بالحق وصدقوا بالرسالة، وجاهدوا في نشرها ونصرتها والدفاع عنها، سيسلك بهم ربهم مسالك النجاة والنجاح، وستصحبهم العناية الإلهية في الغدو والرواح، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في ختام سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن هنا نتقل بعون الله وتسديده إلى «سورة الروم» المكية أيضاً، وقد جاءت مبدؤة بحروف الهجاء المقطعة، وهي خامس سورة وردت على هذا الشكل على التوالي في نسق واحد، وإنما سميت «سورة الروم» لقوله تعالى في فاتحتها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ الآية، وورد في سنن الترمذي ما خلاصته: أن الفرس كانوا يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم «أهل كتاب» وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَذِي الْقُرْحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بينما كان مشركو قريش يحبون ظهور فارس، لأنهم وإياهم «ليسوا بأهل كتاب» ولا إيمان يبعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿أَلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ وعندما مضت سبع سنين ظهرت الروم على فارس، فأسلم عند ذلك ناس كثير، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وكان ذلك تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (٣٠: ٦).

ثم نبّه كتاب الله إلى أن أكثر الناس يكتفون بالقشر بدل اللباب، وبالظاهر السطحي دون التعمق فيما وراء الحجاب، بينما الواجب يقتضي بذل الطاقة والجهد في التفكير العميق، والبحث الدقيق، حتى يدرك الإنسان حقائق الأمور، ما ظهر منها وما بطن، ويكشف عن جوهرها المكنون والمستور، فيستوي في نظره السرّ والعلن، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ، أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين
في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَسِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ
مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّوْءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ

فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
 تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا
 وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
 مِنَ الْحَيِّ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾
 وَمِنْ - آيَتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
 تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ - آيَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ - آيَتِهِ
 خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ - آيَتِهِ مَنَامُكُمْ
 بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ - آيَتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
 خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
 وَمِنْ - آيَتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
 دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانُونَ ﴿٧٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ
 ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا
 مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا
 رَزَقْنَكُمْ فَإِنَّكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
 كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ بَلِ ابْتِغَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
 أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٧٩﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

مما يستلفت النظر ويشير الانتباه ما يدعو إليه كتاب الله ويحض عليه في غير ما آية، من السير في أكناف الأرض طولاً وعرضاً، وكتاب الله ينوع الأساليب المتبعة في هذه الدعوة الملحة، كما ينوع الأهداف المرجوة منها، فأحياناً يدعو إلى السير في الأرض دعوة عامة، على أن يكون السير فيها بعقل متبصر، وأذن واعية، وعين متفتحة، كقوله تعالى فيما سبق من سورة الحج (٤٦): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. وأحياناً يدعو إلى النظر فيها للتعرف على ما أودعه في طياتها من أسرار الخلق وبدائع المخلوقات، وخزائن

الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِيمَا سَبَقَ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الآية: ١٨٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِيمَا سَبَقَ مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (الآية: ٢٠)، وَأَحْيَانًا يَدْعُو إِلَى التَّنَقُّلِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّيْرِ فِيهَا لِلْبَحْثِ عَنْ وَسَائِلِ الْعَيْشِ وَطَلَبِ الرِّزْقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِيمَا يَأْتِي مِنْ سُورَةِ الْجُمُعَةِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وَأَحْيَانًا يَدْعُو إِلَى السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّظَرِ فِيمَا تَعَاقَبَ عَلَيْهَا مِنْ عِمَارَةٍ وَخَرَابٍ، وَحَضَارَاتٍ عَظُمَى لَمْ يَحْسُنْ أَهْلُهَا الْخِلَافَةَ عَنْ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَكَانَ تَدْمِيرُهُمْ وَتَدْمِيرُ حَضَارَتِهِمْ أَعْدَلَ جَزَاءٍ وَأَوْفَى عِقَابٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِيمَا سَبَقَ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الآية: ٦٩)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي بَدَايَةِ هَذَا الرَّبْعِ مِنْ سُورَةِ الرُّومِ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

ثُمَّ يَعْقِدُ كِتَابَ اللَّهِ مَقَارَنَةً بَيْنَ الْحَالِ الَّتِي وَجَدَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا النَّاسَ عِنْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ، وَالْحَالَةِ الَّتِي عَرَفَتْهَا الْبَشَرِيَّةُ قَبْلَ ذَلِكَ، فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِسَةِ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ الْحَضَارَاتِ السَّابِقَةَ كَانَتْ أَقْوَى، وَأَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ أَكْثَرَ ازْدِهَارًا وَعِمْرَانًا، لَكِنْ لَمَّا أَسَاءَ أَهْلُهَا التَّصَرُّفَ فِيمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَثَرَةٍ وَعِمْرَانٍ، وَلَمْ يَهْتَدُوا بِالْمَنْهَجِ الْإِلَهِيِّ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِهِمْ، وَرَمَوْا بِكُتُبِ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ عَرْضَ الْحَاطِطِ، أَفَلَتَ مِنْ يَدِهِمُ الزَّمَامُ،

وَحَكَمَ عَلَيْهِمْ لِسَانَ الْقُدْرَةِ بِالْإِعْدَامِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَفْسِ السِّيَاقِ: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾، أَي حَرَثُوهَا وَاسْتَثْمَرَهَا إِلَى أَقْصَى حَدٍّ، ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسْتُ السُّوْأَى﴾، وَلَمَّا كَانَتِ السُّوْأَى (وَهِيَ تَأْنِيثُ الْأَسْوَى) هِيَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاؤُوا كَانَتِ الْحُسْنَى (وَهِيَ تَأْنِيثُ الْأَحْسَنِ) هِيَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾.

وَبَيْنَ كِتَابِ اللَّهِ السَّبَبَ فِيْمَا نَالَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا مِنْ عِقَابٍ وَدَمَارٍ، فَقَالَ: ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وَقَدْ أَكَّدَ كِتَابُ اللَّهِ هَذِهِ الْمَعَانِي مَجْتَمِعَةً مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيْمَا يَأْتِي مِنْ سُورَةِ غَافِرٍ (٨٢): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَكْثَرِ مِنْهُمْ، وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَثَارًا فِي الْأَرْضِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وَمِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الْمَعْنَى وَيَتَّصِلُ بِهِ أَوْثَقُ اتِّصَالٍ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى (٤: ١٣٣): ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ ثَانِيَةِ (٦: ٣٣٣): ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ ثَالِثَةِ (٣٥: ١٦): ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وَذَكَرَ كِتَابُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ الْكُبْرَى الَّتِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهَا كَافَةُ

النبوات والرسالات، وإن أنكرها المنكرون وجحدها الجاحدون،
 ألا وهي «قيام الساعة» وما يرافقها من انقلاب شامل وعام في
 الكون، وما يُؤاكبها من نشر وحشر، وتصنيف للبشر في صنفين
 اثنين: صنف المومنين الذين عملوا الصالحات، ولهم النعيم
 المقيم، وصنف الكافرين الذين عملوا السيئات ولهم العذاب
 الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾
 أي تصيبهم الحيرة والذهول، لأنهم لم يكونوا يتوقعون قيام الساعة
 أبداً، يقال: «أبلس الرجل» إذا سكت وانقطعت حجته ولم يؤمل
 أن تكون له حجة» ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ
 شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ،
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ من
 «الحبور» وهو السرور والفرح، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي يساقون إليه
 قهراً وقسراً، وقوله تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يُنْفِرُونَ﴾ عقب قوله
 أيضاً: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، على غرار قوله تعالى في آية
 أخرى (٣٦: ٥٩): ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

وبعد أن وصف كتاب الله مظاهر قدرته وحكمته، ودلائل
 وحدانيته وعظمته، البارزة في ملكوت السماوات والأرض،
 ووصف تصرفه المطلق في الكون، والتجاء الخلق إليه بدءاً
 وإعادة، إذ هو القاهر فوق عباده، بين أن كل إنسان عاقل لمس
 جلال الله وجماله، وعظمته وكماله، في نفسه التي بين جنبيه،
 وفي الكون الباهر من حوله المتجلى أمام عينيه، لا يسعه إلا أن

يتوجه إلى الله بتنزيهه عن كل نقص، وتمجيده بكل كمال، إقراراً بفضله وكرمه، وشكراً على مَدَدِهِ ونِعَمِهِ، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى تلقيناً لعباده: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

وواضح أن تنزيه العبد لربه يتناول تنزيهه بالقلب، عن طريق الاعتقاد الصحيح الجازم، وتنزيهه باللسان، عن طريق ذكره الحسن بأسمائه الحسنى، وتنزيهه بالجوارح، عن طريق الأعمال الصالحة، وعلى رأسها الصلاة التي هي عماد الدين، لكونها هي الصلة القائمة والدائمة بين العبد وربه، ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ لفظ عام يشمل كافة وجوه التنزيه، ويدخل فيه من باب أولى وأخرى إقامة الصلوات الخمس التي يُجدد فيها المومن عهده مع الله خمس مرات في اليوم واللييلة، قيل لابن عباس رضي الله عنه: «هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟» قال نعم، وتلا هذه الآية: ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، و﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر.

ولا شك أن مواقيت الصلاة المتعاقبة ترافقها ظواهر كونية يومية عظمى، تتجلى فيها قدرة الله وعظمته، وعلمه وحكمته، وجلاله وجماله، فتكون أنسب الأوقات لإعلان العبد عن تعلقه بالله، وإيمانه بوحدانيته وربوبيته، وتمسكه بعبادته وطاعته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بين قوله قبلها: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وقوله بعدها:

﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تنبيهه إلى أن تنزيه العبد لربه لا يكون تنزيهاً حقيقياً وتاماً إلا إذا صاحبه القيام بحمد الله وشكره على الدوام، إذ هو المحمود سبحانه وتعالى بكل لسان، بلسان الحال ولسان المقال، من كافة الأنام: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١٧: ٤٤).

وكيف لا يُنزه العاقل ربه سبحانه وهو المنفرد بالإيجاد والامداد، وهو الذي ينفخ الروح في الكائنات فتسري فيها الحياة متى شاء، ويقبض روحها متى شاء، وإذا كان الله سبحانه قادراً على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي في النبات والحيوان والإنسان، فكيف لا يكون قادراً على إحياء الميت، قدرته على إماتة الحي، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

وأبرز مثال لما ورد في الكتاب، إخراج نوع الإنسان - وهو سيد الأحياء - من بين الطين والتراب، وذلك ما يشير إليه في نفس السياق قوله تعالى هنا: ﴿وَمَنْ - آيَتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ وقوله تعالى في آية أخرى (٢٠: ٥٥): ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

ومضى كتاب الله يصف آياته الباهرة، الماثلة في الأنفس

والآفاق، معرفاً ببالغ حكمته، وكامل قدرته، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ويلاحظ أن كتاب الله أتبع خلق الإنسان بخلق الزوجة، لأن بها يتم الأنس وينتظم العيش ويزدهر العمران، فهل أحدٌ غير الله يستطيع أن يجعل من الزوج والزوجة، رغم اختلاف طبيعة تكوينهما العضوي والنفسي والعاطفي، شخصية واحدة متكاملة، في ازدواجها سرٌ وحدتها، وهذا المعنى هو الذي يوحى به قوله تعالى هنا في تأكيد الوحدة والألفة بين الزوج والزوجة: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية (٧: ١٨٩)، ويوحى به قوله تعالى أيضاً في التعريف بسر الزوجية الدفين، حيث يصبح الفرد زوجاً، والزوج فرداً، عندما يقول: ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، و«السكينة» طمأنينة القلب، وراحة البال، ومفتاح السعادة، كما يوحى به قوله تعالى هنا في تحديد نوع العلاقة العاطفية بين الزوج والزوجة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، و«المودة» شعور هادئ نبيل، متسم بالعمق والصدق والدوام، لا شعور سطحي نائر وعابر، كالهشيم تذروه الرياح، و«الرحمة» هي العروة الوثقى التي تربط بين الزوجين بعضهما مع بعض، وتربط بينهما وبين من له عليهما أولهما عليه حق من الحقوق: حقوق الأبوة وحقوق البنوة، فبالرحمة المتبادلة والتعاطف المزدوج يشتد التلاحم، لمواجهة الشدائد والملمات، ويسهل تحطّي العقبات، والتغلب على الأزمات.

ونظراً لما يتوقف عليه استيعاب هذه المعاني الرئيسية التي تنبني عليها الحياة الزوجية، من تأمل وتدبر وتعمق، جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم عرض كتاب الله آية أخرى من آياته الكونية الباهرة، وهذه الآية تبدو لكل ذي عينين في خلق السماوات والأرض، واختلاف ألْسنة البشر، واختلاف ألوانهم، فالشخص العادي متى سَرَّح طرفه وأجال فكره في ملكوت السماوات والأرض لا بد أن يومن بأن وراء هذا الكون خالقاً مبدعاً حكيماً: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، ومتى نظر إلى تكوين الإنسان عضوياً ونفسياً وعقلياً وجد أنه في خصائصه العامة واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف، ولكنه مع ذلك مختلف اللغات واللهجات، مختلف الألوان والصفات، بل إنه حتى عند استعمال اللغة الواحدة يختلف في أشكال النطق والأصوات، فمن الذي جعل من النوع الإنساني نوعاً واحداً، ومن الذي جعل من هذه الوحدة أصنافاً لا حد لها ولا حصر، سوى الحق سبحانه وتعالى الذي له الخلق والأمر. أما الشخص الذي بلغ من العلم درجة كافية، فإنه يجد المجال أمامه فسيحاً لاستكشاف أسرار الكون ونواميس الخليفة، مما يؤهله أكثر فأكثر، لتذوق لطائف الحكمة وعلم الحقيقة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْتِيهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وحسب قراءة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام كما في قراءة ورش عندنا يكون المعنى أن التعرف على هذه الآيات الكونية والبشرية

في تناول عموم الخلق، لا يختص به فريق دون فريق، لأنه على مرأى ومسمع منهم جميعاً، وتُرَوَّى فيه قراءة أخرى بكسر اللام، وطبقاً لهذه القراءة الثانية يكون المعنى: إن الذين يذكرون أسرار هذه الآيات ويستخلصون منها النتائج القريبة والبعيدة، الجامعة بين العلم والإيمان، هم الذين بلغوا درجة كافية من العلم، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

وإذا كان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان عند دعاة «العنصرية والشعوبية» مصدراً للتمييز بين السلالات البشرية، ومبرراً لتصنيفها طبقات عليا وسفلى، فإن كتاب الله أزال عن هذه الظاهرة كل ما تشم منه رائحة التمييز العنصري بين البشر، واعتبر اختلاف الألسنة والألوان في النوع البشري، مع وحدته الأصلية، آية من آيات الله الكبرى، ودليلاً من دلائل قدرته وبالحق حكيمته.

وانتقل كتاب الله إلى آية أخرى من آيات الله في الأنفس، وهي ظاهرة النوم بعد اليقظة، والسكون بعد الحركة، التي أكرم الله بها الإنسان، ليستطيع مواصلة الكد والسعي بنشاط وفعالية وإتقان، إذ لو لم يمنح الحق سبحانه عباده حق «الراحة اليومية» بعد التعب، لتعطلت طاقات الجسم والعقل عن العمل، ولما استطاع الإنسان القيام بخلافته عن الله في الأرض على أحسن وجه وأنفع أسلوب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون القرآن فيصدقونه، والحق فيتبعونه.

فراحة الاستغراق في النوم خصص لها الحق سبحانه وتعالى فترة الليل، المناسبة للهدوء والسكون، والسعي المتواصل للعمل وكسب الرزق خصص له الحق سبحانه وتعالى فترة النهار، المناسبة للحركة والنشاط، على أن القليل من الاسترخاء والنوم الخفيف خلال بعض فترات النهار كالقيلولة، مما يساعد على تهدئة الأعصاب، وتجديد النشاط، ومضاعفة الإنتاج، حسبما دلت عليه الأبحاث الحديثة، وبذلك نفهم السر في قوله تعالى: ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، قال جار الله الزمخشري: «ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما»، إذ من الناس من ينام في الليل ومنهم من ينام في النهار، ومن الناس من يسعى لكسب رزقه في النهار، ومنهم من يسعى لكسب رزقة في الليل، حسب ظروف كل واحد ونوع عمله، وهذا هو ما عليه الحال في عصرنا الحاضر، ومقتضى هذه الآية وما شابهها أن الإنسان مطالب من ربه بالكد والعمل على مر الأيام، مُعْتَرَفٌ له في نفس الوقت بحق الراحة والاستجمام.

واستعرض كتاب الله آية أخرى من آيات الله في الأفاق، وهي آية الغيث والمطر، الذي يُنْزِلُهُ من سَمْتِ السماء على الأرض، عَذْباً زَلَالاً، فَيُحْيِي بِهِ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتَ، ويخترنه بقدرته وحكمته في خزائن أرضه لصالح الأحياء كافة، فَيُجْرِيهِ عَيْوَناً وَيَنْبِيعاً وَأَنْهَاراً تُسَدُّ حَاجَاتَهُمْ بِاسْتِمْرَارٍ وَدُونَ انْقِطَاعٍ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْشِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وحيث أن البرق والرعد وتحريك الرياح وتسخير السحاب من الظواهر التي تسبق أو ترافق نزول المطر، طبقاً لسنة الله المنظمة للكون، نجد كتاب الله في غير ما آية يُلَفَّت إليها الأنظار، لما تحتوي عليه من حكم وأسرار، جديرة بالدرس والتحليل والتأمل والاعتبار.

وقوله تعالى هنا: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، إشارة إلى ما يتقلب فيه الإنسان بطبعه من الخوف والرجاء، فالإنسان عندما يشاهد وميض البرق، أو يسمع هدير الرعد، يخشى أن يكون البرق برقاً خُلِباً لا مطر فيه، أو يكون نذيراً بالصواعق المزمجرة، والزلازل المدمرة، أو يكون مصحوباً بمطار طوفانية تهلك الحرث والنسل، كما أنه يأمل ويرجو أن يكون البرق مصحوباً بالغيث النافع، فيغاث به الإنسان والحيوان، وتحيا به الأرض بعد موتها، فتبت من كل زوج بهيج، وسبق بهذا المعنى في سورة الرعد قوله تعالى مع مزيد من البيان: (١٢: ١٣): ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

أما محاولة «استمطار» السحاب بطريقة صناعية فهي محاولة قاصرة، إذ لا بد من توافر الرياح الصاعدة التي تلقح السحاب ببخار الماء حتى يجود بالمطر، واللَّهُ تعالى وحده القادر على أن يرسل الرياح نُشْراً بين يدي رحمته، لأن إرسال الرياح وتصريفها يحتاج إلى طاقة عظمى وتدبير كبير هما

فوق طاقة الإنسان وقدرته المحدودة.

ثم جاء كتاب الله بآية أُخْرَى تَبْهَرُ الأبصار والبصائر، وتثير في الإنسان أعجب الخواطر وأعمق المشاعر، أَلَا وَهِيَ آيَةُ قِيَامِ الكُرَةِ الأرضية في الفضاء، في موقعها المحدد لها بأمر الله، واستمرار أجرام السماء سابحة في الفضاء، في نفس الأماكن والمَدارات المقدرة لها من عند الله، دون أن تزيف عن مسارها، أو يصطدم بعضها ببعض في فضاء الكون الفسيح، ودون أن تعتمد على أعمدة أو دعائم، مما اعتاده الإنسان في كل بناء قائم، وذلك ما يفصح عنه كتاب الله هنا في إيجاز وإعجاز، إذ يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ .. ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتفصيلاً قوله تعالى فيما سبق من سورة الرعد (٢): ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ، وقوله تعالى فيما سبق من سورة الحج (٦٥): ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ، وقوله تعالى فيما سيأتي من سورة فاطر (٤١): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ .

وهذه الظاهرة الكونية هي التي اصطلح العلم الحديث فيما وصل إليه حتى الآن من بحث واستطلاع، على تسميتها «بقوة الجاذبية» وهذه الجاذبية قائمة بين الأرض وما عليها، وبين الأرض وما عداها من الكواكب، وبين كل كوكب وآخر.

ومن وصف آيات الله في الأنفس والأفاق اتجه كتاب الله

إلى تذكير الغافلين والجاحدين بحقيقة البعث التي لا مجال للشك فيها، وحقيقة السطوة الألهمية المبسوطة على خلقه، الأحياء منهم والأموات، ولو كان بعض المتكبرين منهم لها كارهين، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ أي خاضعون لأمره المطاع: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وإنما قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ تقريباً للفهم، وجرباً على المعتاد بين الناس، من أن إنشاء الشيء لأول مرة يكون أصعب من إعادته، وإعادته تكون أسهل من إنشائه، وإلا فالحق سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بدءاً وإعادة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٦: ٨٢)، وهذا التنزيه عن التشبيه هو المراد بقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، أي هو فوق تصورات الخلق وتخيلاتهم، وله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله إذ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ثم تصدى كتاب الله للاعتراض على المشركين البسطاء، الذين يشركون بالله الأوثان والأصنام، إذ يقولون: «لبيك لا شريك لك» إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، مبيّناً تناقضهم وتهافتهم في منطقهم الساذج البسيط، عندما لا يقبلون أن يكون مماليتهم شركاء لهم في شيء، نظراً للفرق الشاسع الذي يعتقدونه قائماً بين الفئتين، بينما هم يعتبرون أصنامهم مملوكين لله

وشركاء له في وقت واحد، الأمر الذي لا يرضونه لأنفسهم بالنسبة لمماليكهم، وذلك قوله تعالى خطاباً للمشريكن ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ، هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَكُمْ فَآتَتْمْ فِيهِ سَوَاءً، تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. وواضح أن كتاب الله يجعل الرزق مشتركاً ومشاعاً بين جميع الفئات، ولا يرضى بأن تحتكره طبقة من الطبقات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿فِي مَآ رَزَقْنَكُمْ فَآتَتْمْ فِيهِ سَوَاءً﴾.

ويعد أن استوفى كتاب الله في هذا الربع وصف عدد من آيات الله في الأنفس والآفاق عَقَّبَ على ذلك كله قائلاً: ﴿كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فجعل ملكة العقل هي مفتاح الإقناع والاقتران، متى استعملها الإنسان استعمالاً موضوعياً ومنهجياً سليماً، وكان باحثاً عن الحق الصراح والحقيقة المجردة دون هوى سابق، ولا تعصب لاحق، وتأكيداً لهذا المعنى قال تعالى في ختام هذا الربع: ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين
في المصحف الكريم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفًا فطُرَتِ اللَّهُ إِلَيْهِ فَقَطَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٧﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٨﴾
وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ
مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِحُوا مِنْهُمْ بِرَيْبِهِمْ يَشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً
فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا
هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ لَمْ يَدْرُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

وَيَقْدِرُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَأَيِّتٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ فَعَاتِبْ ذَا
 الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
 يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَاءَ آتَيْتُم مِّن
 رَبٍّ لَّتَرْبُوهُ فِيهِ أَمْوَالُ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءَ آتَيْتُم
 مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢٩﴾
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْيِيكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ
 مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾ ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
 النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن
 يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِن اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٣٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ
 كُفْرُهُ، وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ، مَهْدُونٌ ﴿٣٤﴾ لِّلْبَحْرِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾
 وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ، وَلِتَجْرِيَ
 الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمُبْلِسِينَ ﴿٧٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْمُؤْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٨١﴾
فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا
مُدْبِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ
إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٣﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

في بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وعن طريقه إلى كافة المومنين، يثبت فؤادهم على الدين الحنيف، ويدعوهم إلى التفاني في التمسك به والثبات عليه، دون التفات لما سواه، ويذكرهم بأن الإسلام هو «دين الفطرة» القيم، الذي لا تناقض في عقيدته، ولا إعوجاج في شريعته، فهو الملائم للفطرة المنسجم معها منذ البداية، وهو الموافق للنظر الصحيح، والمطابق للعقل السليم في النهاية، وكيف لا وهو الدين الوحيد الذي يُعلن وحدة النوع الإنساني على اختلاف ألسنته وألوانه وأقوامه، ويعلن وحدة الكون على اختلاف أجزائه وتنوع أجرامه، ويعلن وحدة المكوّن المدبّر للكون

والمهيمن على قيامه ووحدته نظامه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال جار الله الزمخشري موضحاً لمعنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾: «من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه، وسدّد إليه نظره، وقوم له وجهه مقبلاً عليه» وقال أبو حيان في توضيح معنى «الفطرة»: «رَجَّحَ الحَذَّاقُ أَنَّ الفِطْرَةَ هِيَ الْقَابِلِيَّةُ الَّتِي فِي الطِّفْلِ لِلنَّظَرِ فِي مَصْنُوعَاتِ اللَّهِ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى وُجُودِهِ، فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبِعُ شَرَائِعَهُ، لَكِنْ قَدْ تَعَرَّضَ لَهُ عَوَارِضُ تَصَرَّفِهِ عَنْ ذَلِكَ، كَتَهْوِيدِ أَبَوَيْهِ لَهُ وَتَنْصِيرِهِمَا، وَإِغْوَاءِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ»، ونقل القرطبي عن شيخه أبي العباس قوله في تحليل معنى الفطرة: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ مُؤَهَّلَةً لِقَبُولِ الْحَقِّ، كَمَا خَلَقَ أَعْيُنَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ قَابِلَةً لِلْمَرِثِيَّاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ، فَمَا دَامَتْ بَاقِيَةٌ عَلَى ذَلِكَ الْقَبُولِ وَعَلَى تِلْكَ الْأَهْلِيَّةِ أُدْرِكَتِ الْحَقُّ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ».

وقوله تعالى هنا: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ إمّا أن يكون خبراً بمعنى الطلب، وإمّا أن يكون خبراً على بابه، فعلى الوجه الأول يكون معناه النهي عن إفساد الفطرة وتغييرها بالتربية الفاسدة، والقدوة السيئة، والاعتقاد الباطل، والإبقاء على الفطرة كما خلقها الله، مع توجيهها في نفس الاتجاه، وعلى الوجه الثاني يكون معناه الإخبار بأنه لا تبديل للقابلية التي توجد في الطفل من قبل الخالق، فقد ساوى بين الناس في الفطرة السليمة وجعلهم فيها سواسية.

ثم أمر الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالإجابة إليه وتقواه، وإقامة الصلاة والاعتصام بحبل الله، وحذرهم مما كان عليه غيرهم من الفرقة والاختلاف، حتى يظلوا في أخوة وائتلاف، وذلك قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، وَاتَّقُوهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف بعض الحالات النفسية التي يكون عليها ضعفاء النفوس وضعفاء الإيمان، عندما تنزل بهم نائبة من النوائب، فيضطربهم الخوف والجزع، إلى أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء، حتى إذا تخلصوا من أزماتهم أشركوا بالله غيره، ومن الشرك أن يتخذ الواحد منهم إلهة هواه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، و«الضر» هنا الشدة، و«الرحمة» الخلاص منها ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾، أي: ليؤمنوا في تجاهل نعمتنا والكفر بإحساننا، ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: هذا إشعار لهم بأن العذاب ينتظرهم، ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، أي: كتاباً فيه حجة لهم وبرهان، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ، يُشْرِكُونَ﴾.

وكذلك الأمر إذا نالوا حسنة انبسطت لها أسارير وجوههم غبطة وسروراً، وإذا نزلت بهم سيئة أصابهم اليأس والقنوط، واعتبروا ما نزل بساحتهم لعنة وثبورا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٤٣﴾

ثم عقب كتاب الله على ذلك بما يفيد أن سعة الرزق لا تتعلق بإرادة الإنسان وحده، بل تتدخل فيها عدة عوامل، ومردّها في النهاية كما في البداية إلى الله، ولذلك وُجد بين الناس موسر ومعسر، ووجد في البلدان بلد يزخر بالثروات الطبيعية، وبلد يكاد يكون قاعاً صفصفاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

لكن كتاب الله بادر في الحين بالتوجه إلى كُلِّ من وسّع الله رزقه، فعرفه بأن عليه في ماله حقوقاً للغير، وطالبه بأداء تلك الحقوق لأصحابها كفاية لحاجتهم، وذكر على سبيل المثال ذوي القربى، والمساكين، وعابري السبيل، ممن تنقطع بهم الأسباب وهم في سفر، ولا يجدون ما ينفقون، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقدم «ذا القربى»، لأن بره فيه صدقة وصلة للرحم.

وقوله تعالى هنا: ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، إشارة إلى أن الاعتبار بالنية والقصد، لا بمجرد الفعل وحده، ومعنى ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أن يكون العطاء خالصاً لله، وسعيّاً في رضاه، نظير قوله تعالى في آية أخرى (٩٢: ٢٠): ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ .

ثم انتقل كتاب الله إلى الموازنة بين الربا والزكاة، وما يحلُّ بساحة المرابين من نقص مادي ونفسي، وما يناله المُزَكُّون من نماء مادي وروحي، فقال تعالى مخاطباً للفريق الأول: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوا فِي أُمُورِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال تعالى مخاطباً للفريق الثاني: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

وهكذا أُنذر الله المرابين الذين يُمارسون الربا لتنمو أموالهم على حساب الآخرين، بأن أموالهم لا بد أن تؤول إلى نقصان، وإن كانت في الظاهر تنمو وتزداد باستمرار، والأعمال والأموال بخواتيمها، أما النقصان النفسي الذي يصيبهم فقد تضمَّنه قول الله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٧٥): ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وعلى العكس من ذلك بشر الله الذين لا يستغلون الخلق، بل يتبادلون النفع معهم، ويزكون أموالهم ابتغاء مَرْضَاتِهِ، بنماء أرزاقهم، ومضاعفة ثوابهم، وهذا معنى قوله تعالى هنا: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٢: ٢٤٥): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، وفي آية ثالثة: (٢: ٢٧٦): ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيدُ الصَّدَقَاتِ﴾، أي: يُنمِّيها ويضاعفها.

ولتذكير الأشيخاء والبخلاء من الأغنياء، المقصرين في أداء حقوق المعوزين والفقراء، بأنهم مدينون لله سبحانه بنعمة الإيجاد

ونعمة الإمداد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، فالخلق كله من صنع الله، والرزق كله من عند الله، والحياة والموت بيد الله، وما على الإنسان إذا كان عاقلاً إلا أن يتذكر هذه الحقائق البديهية، ويستخلص نتائجها الحتمية، ثم قال تعالى رداً على المشركين: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ شَيْءٍ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وتصدى كتاب الله بعد ذلك للكشف عن حقيقة اجتماعية وأخلاقية بعيدة الأثر، ألا وهي أن الإنسان وحده هو العنصر الأساسي في كل فساد يقع في الأرض، وكل انحراف يصيب المجتمع، وأنه هو المسؤول مباشرة عن نتائج فسادهِ وإفساده مادياً وروحياً، فما عليه إلا أن يتحمل نتائج عمله انحلالاً واختلالاً، خراباً وزوالاً، ولو وقف الإنسان في سلوكه عند حد الصلاح والإصلاح، اللذين من أجلهما تَوَجَّهَ اللَّهُ بالخلافة عنه في عمارة الأرض، لما وقع في الأرض فساد، ولسعدت البلاد والعباد، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

ومن مظاهر الفساد في الأرض الإباحية التي تتحدى كل القيم والأخلاق، واحتكار الثروات والأرزاق، والتنكر لدين الحق، وتجاهل الخالق واحتقار الخلق، ومن آثار الفساد زوال الطمأنينة، وانتشار الخوف، وفقدان الثقة بين الأفراد والدول، والتلوث

الساري في مختلف الأجواء والأرجاء، والنقص من الأموال والأنفس والثمرات. وإلى ما يتعرض له الإنسان من الابتلاء والامتحان، يشير قوله تعالى هنا: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، إشارة إلى أن الله تعالى لا يريد الانتقام من عباده، عند ما يسلط عليهم آثار أعمالهم، وإنما هي بمنزلة السُّوط يؤدبهم به، عسى أن يغيروا ما بأنفسهم، ويعودوا إلى صراط الله الحميد، فيسُط لهم من جديد بساط نعمته، ويخلق عليهم رداء رحمته، وبنفس هذا المعنى جاء قوله تعالى في آية أخرى (٧: ١٦٨): ﴿وَلَوْلَوْتُهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ دليل على أن الذين عاقبهم الله على الفساد والإفساد لم يكونوا كلهم مشركين، بل بعضهم مشرك، وبعضهم ليس بمشرك، ولكنه من عصاة المومنين المصيرين على المعصية، وإذن فما دون الشرك من المعاصي يؤدي إلى نفس النتيجة، ويكون سبباً فيما ينزل بالخلق من الشدائد والأزمات، والنواب والملمات.

ووجه كتاب الله الخطاب إلى كل إنسان عاقل يريد تحقيق إنسانيته، مع السلامة في الدنيا من الآفات، والنجاة في الآخرة من الأهوال والشدائد، داعياً إلى الإقبال على دين الله الذي هو الدين القيم، والتعلق به، وعدم الالتفات إلى غيره، فقال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾، أي: يتفرقون: فريق في الجنة وفريق في السعير، ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴾، من «المهد والمهاد» بمعنى الفراش، أي: يوطئون لأنفسهم في القبر مضجعاً مريحاً، وفي الجنة مقراً فسيحاً، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾.

ثم لفت كتاب الله أنظار البشر جميعاً إلى ما من عليهم به من تحريك الرياح وتصريفها، طبقاً لنواميس كونية محكمة، تسهل عليهم الوصول إلى تحصيل منافعهم، وتحقيق مصالحهم في البر والبحر، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾، أي: مبشرات بالمطر، لأنها تسبقة وتتقدمه، ﴿ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾، وهي رحمة الغيث والخصب، ﴿ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾، أي: عند هبوب الرياح وغيرها من الوسائل الملائمة للملاحة في البحر ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾، والمراد «بالفضل» هنا الحصول على الرزق من طريق الكسب والتجارة ونحوها، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: تتوجهون بالشكر لله على نعمه، الظاهرة والباطنة.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة خاتم أنبيائه ورسله، مذكراً إياه بالمآل الذي يصير إليه المجرمون المكذبون برسالات الله، ومعرفاً له بمصير رسله والمؤمنين، وأنه نصر مؤزر من عند الله وفتح مبين، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ، فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾.

وعاد كتاب الله مرة أخرى إلى الكشف عن أسرار الرياح التي ينفرد بتحريكها وإرسالها مَنْ لَهُ الخلق والأمر، والدَّور الذي تقوم به في إثارة السحب وإنزال الأمطار، إغاثة للعباد ورفقاً بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ، فَتُثِيرُ سَحَابًا، فَيَسْطُوهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، والإشارة هنا إلى السحاب عندما يكون متصلًا يملأ أرجاء الأفق: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾، أي: قطعاً، والإشارة هنا إلى السحاب عندما يكون متقطعاً، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾، أي: المطر، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: من خلال السحاب، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، فرحاً منهم بنزول الغيث، لحاجتهم إليه، وتوقفهم عليه، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ﴾، أي: كانوا قبل نزول المطر في ذهول وحيرة، قانطين من نزوله، لطول عهدهم بالجذب، مكتئبين خوفاً من القحط والمجاعة التي تهدد حياتهم، ولهذا كان استبشارهم على قدر إنباسهم واغتمامهم.

وكون الرياح هي التي تثير السحاب وتُلْقِحه ببخار الماء لكي يمطر، حقيقة علمية كبرى كشف الستار عنها عالم الغيب الذي يعلم السر في السماوات والأرض، منذ انزل كتابه العزيز قبل أربعة عشر قرناً، عندما قال هنا: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، وقال في آية أخرى سبقت في سورة الحجر: (٢٢):

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ﴾، ولم يهتد العلم الحديث لإدراك هذه الحقيقة، ودراسة دورات الرياح العامة والخاصة إلا في العهد الأخير. ثم قال تعالى مذكراً ومعقبا: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ أثرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّرُ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُخَيِّرُ الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ووصف كتاب الله حال الزراع الذين تتعرض مزارعهم أحيانا لرياح تجعل زرعهم يابساً مصفراً، وبدلاً من الرضى بالقضاء والقدر يُظهرون السخط والامتعاض، ناسين ما أنعم الله عليهم به من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾، أي: رَأَوْا زرعهم مصفراً، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

وختم هذا الربيع بخطاب إلهي رقيق، موجه إلى الرسول الأعظم، حتى لا يضيق صدره ولا يحزن، بعدما بلغ الرسالة وأدى الأمانة: ﴿فَمِنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٠: ١٠٨)، ولا مسؤولية على الرسول بعد ذلك، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ (٥: ٩٩)، وذلك قوله تعالى مبرئاً لرسوله من كل تقصير أو إهمال: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يَوْمِنُ بَأْيْتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين
في المصحف الكريم

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ

ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ
كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ
لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
وَلَا نَكْتُمُ كُنْهَ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٥﴾ كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ

وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخْفَى الَّذِينَ لَا يُوْقِفُونَ ⑤
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِلْحَسَنِينَ ③
 الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 يُوقِفُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤
 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ⑥ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
 آيَاتُنَا وَبِئْسَ تَكْبِيرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيهِ آذِينَ وَقُرْآنَ فَبَشَّرَهُ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ
 النَّعِيمِ ⑧ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْبَقِيَّةُ فِي الْأَرْضِ رَوَى أَنْ
 تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑩ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
 خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ⑪
 وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
 يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑫ وَإِذْ قَالَ

لَقَمْنُ لَابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي إِيَّاهَا إِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ
فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَاحِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاعْغِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَاءَ الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ

اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَشْبِعُ مَا وَحَدَّنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولَٰئِكَ الْشَّيْطَانُ
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٦١﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾، إلى قوله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عَابَادًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

في أواخر الربع الماضي تحدث كتاب الله عن تصريف الرياح وإثارة السحب وإنزال الأمطار، ونبه كل إنسان متبصر إلى آثارها الحميدة في الأرض، مما يستوجب شكر الله والاعتراف بفضله وكرمه، إذ قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ أثرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وهذه الظواهر الطبيعية كلها من آيات الله في الآفاق.

وفي بداية هذا الربع أورد كتاب الله آية أخرى من آياته في الأنفس، فتحدث عن خلق الإنسان والمراحل التي يتقلب فيها من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف، منذ عهد الطفولة إلى عهد

الشَّيْخُوخَةُ، مما يمر به النوع الإنساني في حياته الطبيعية، وذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

وواضح أن أمام الإنسان في كل مرحلة من تلك المراحل مجالاً واسعاً للتأمل والاعتبار، وفرصة مناسبة للتعلم فيما يحيط بنشأته وتكوين بنيته، وأجهزة جسمه، من لطائف وأسرار، مما يساعده على اكتشاف أثر رحمة الله وبإلغ حكمته، ويحمله على الاقتناع التام بوسع علم خالقه وعظيم قدرته: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٣٠: ٨)، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١: ٢١)، وقد شغلت الدراسات والبحوث المتعلقة بالإنسان حيزاً كبيراً من العلوم والمعارف، التي تحاول أن تكشف عما في الإنسان من عجائب خلق الله وبدائع صنعه، عضوياً ونفسياً، عقلياً وروحياً، لكن لا تزال جوانب عديدة من هذا الكائن المعلوم و«المجهول» في آن واحد، الذي هو الإنسان، لغزاً من ألغاز الخليقة، وسراً من أسرار الطبيعة، إلى الآن وحتى الآن: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧: ٨٥).

وكما وصف كتاب الله الإنسان بكونه مخلوقاً من عَجَلٍ عندما قال (٢١: ٣٧): ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، ليلتزم الأناة في مساعيه، والتؤدة في تصرفاته، وصفه هنا بكونه مخلوقاً من ضعف: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾، رغباً عما منحه من قوة فكرية، ولياقة بدنية، تنبيهاً له على التماس أسباب القوة المادية

والروحية، حتى يُعوّض النقص الذي يعانیه في كل مرحلة من مراحل حياته المتتالية.

وكما قال تعالى في الرّبع الماضي في شأن السحاب الذي تثيره الرياح: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، قال هنا في هذا الرّبع، عقب ذكره للمراحل التي يمر بها الإنسان: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ رداً على الجاحدين، وتنبيهاً للغافلين وتذكيراً للناس أجمعين، بأن إرادة الله «الخالق البارئ المصور» مهيمنة على الكون بصفة مستمرة، وأن مشيئة الله التي لا تحدّها حدود هي التي تحدّد النواميس لتكوين الإنسان، وغيره من بقية الأكوان، فلا شيء من سنن الكون خارج عن إرادته، بل الكل متعلق بتدبيره وجارٍ وفق مشيئته، ولذلك جاء التعقيب بقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾، الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير.

وانتقل كتاب الله إلى وصف حال المُعَانِدِينَ البسطاء، المكذّبين بالبعث، عندما يُفَاجَأُونَ بقيام الساعة، فيحاولون الاعتذار عن كفرهم، زاعمين أنهم لم يتمكنوا من معرفة الحق خلال حياتهم القصيرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾، أي: كما كانوا يمارسون الأفك والكذب في الدنيا ها هم يحاولون أن يمارسوه من جديد في نفس الآخرة، مؤكّدين كذبهم بالقسم واليمين، ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٥٨: ١٨): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ،

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٧﴾، لكن لا يلبث «أولو العلم والإيمان» أن يتصدوا في الآخرة لزعمهم بالرد، ولكذبهم بالرفض، كما تصدوا لذلك في الدنيا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ، وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وبين كتاب الله أنه عندما تقوم الساعة لا يقبل من الظالمين أي اعتذار، لانصرام الأجل المحددة للإعذار، وذلك قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، إذ لا مجال للتوبة والتلاوم والعتاب، بعد أن حقت عليهم كلمة العذاب.

ثم جدد كتاب الله التعريف برسالة القرآن، مؤكداً أنه جعل هذه الرسالة ميسرة للفهم والإدراك في تناول الناس أجمعين، وأن كتاب الله قد وضح معالمها، بما لا يدع مجالاً للشك فيها، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٥٤: ١٧)، فلا غموض ولا إبهام في الرسالة، ولا تقصير ولا إهمال من جانب الرسول، واللوم كل اللوم يقع على عاتق المعاندين المبطلين، الذين يجادلون في الله بغير علم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: يطبع الله على قلوب الجهلة المعاندين عندما تقسو وتصدأ، ولا يرجى منهم قبول للحق ولا انقياد إليه، وكيف لا وهم يُسمَّون المحقين «مبطلين» متحدّين الله

ورسوله والمومنين، ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾، بينما هم في الواقع أَعْرَقُ الناس في الباطل.

وأخيراً وَجَّه كتابُ الله الخطاب إلى الرسول الأعظم، وإلى كل مومن بصدق رسالته، آمراً رسوله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، بالصبر على أذى المخالفين، والثبات أمام استفزاز الجاحدين، مؤكداً له وللمن اهتدى بهديه أن وعد الله بالنصر المكين، والفتح المبين، وعدٌ لا يتخلف، لأنه وعد حق، صادر عن الحق، ﴿وَعَدَ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (٣٠: ٦)، وذلك قوله تعالى في ختام سورة الروم المكية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

ومن سورة الروم المكية تنتقل إلى سورة لقمان المكية أيضاً سائلين من الله الإعانة والمدد، وهذه السورة هي سادس سورة وردت مبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة، المتعارفة «بفواتح السور» في نسق واحد وسلسلة واحدة، ابتداءً من فاتحة سورة الشعراء ﴿طسم﴾ فسورة النمل ﴿طس﴾ فسورة القصص ﴿طسم﴾ فسورة العنكبوت ﴿الم﴾ فسورة الروم ﴿الم﴾ فسورة لقمان التي نحن بصدد تفسيرها ﴿الم﴾ وقد بينا في عدة مناسبات ما ترمز إليه هذه الحروف، وكونها تأتي متبوعة بالحديث عن الذكر الحكيم، والتعريف به والانتصار له، إمّا تلويحاً وإمّا تصريحاً كما في هذه السورة: ﴿أَلَمْ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى أن الحروف العادية التي ينطق بها الناس تنقلب إلى وحي سماوي بالغ الحكمة والإعجاز، عندما ينفخ فيها

الحق سبحانه وتعالى من سر علمه وحكمته، وَيَنْزِلُ بِهَا عَلَى قَلْبِ رَسُولِهِ «الروح الأمين»، ومثل ذلك يجري في العناصر الطبيعية التي هي مُلْقَاة بين أيدي الناس، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا منها كائناً حياً يضاهون به صنع الله ﴿صُنِعَ اللَّهُ إِلَهِىَ أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

وإنما سميت هذه السورة «سورة لقمان» لورود اسمه فيها مقروناً بجملة من الوصايا النافعة التي وعظ بها ابنه، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ الآية.

وكما قال تعالى فيما سبق من «سورة يونس» عقب الافتتاح بالحروف الهجائية: ﴿أَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ قال تعالى هنا في «سورة لقمان»: ﴿أَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وسبقهما في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

وإنما وُصِفَ الكتابُ بكونه «حكيماً» أي: ذا حكمة، لأن الحكمة هي إصابة الحق في الاعتقاد والقول والفعل، والسلوك الخاص والعام، للأفراد والجماعات، وما تضمنه كتاب الله في هذه المجالات صادر عن أحكم الحاكمين، العليم الحكيم، الذي لا يَظِلُّ ولا يَنسَى، والذي يعلم السر والخفي: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢٥: ٦)، ومن أجل ذلك كان عِيَاراً على ما سواه، ومهيماً على ما عداه، فما وافقه حق، وما خالفه باطل، سواء كان سابقاً أو لاحقاً.

ووصف الحق سبحانه وتعالى كتابه بكونه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ و«المحسنون» هم الذين أحسنوا فهمه، وأحسنوا تطبيقه، وأحسنوا الدفاع عنه، وراقبوا منزل الكتاب، فلم يهجروا الكتاب، وبذلك يكون «هدى لهم» فلا تختلط عليهم السبل، ولا يعمهم الجهل والضلال، ويكون «رحمة لهم» فلا تصيبهم الشرور والآفات، ولا تحل بساحتهم الأزمات تلو الأزمات، وإنما يندرجون في عداد المحسنين، فينعموا بهداية الله ورحمته، إذا أدوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وحق الله الأول: هو إقامة الصلاة على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً، والدوام عليها في أوقاتها دون انقطاع، وحق العباد الأول: هو إيتاء الزكاة للمعسرين، وحصولهم على ما يكفي حاجتهم من مال إخوانهم الموسرين، وهذان الحقان متلازمان لا يفترق أحدهما عن الآخر، ولا يغني أحدهما عن الآخر، ولذلك وصف كتاب الله المحسنين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ على غرار قوله تعالى في فاتحة سورة البقرة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، إشارة إلى أن الإيمان لا يكون تاماً وكاملاً إلا إذا اندرج فيه الإيمان بعالم الشهادة وعالم الغيب، والإيمان بالنشأة الأولى والنشأة الآخرة، لأنهما متلازمان تلازم المقدمة والنتيجة. والإيمان بالآخرة يتضمن الإيمان بجزاء الله، لمن ابتغى بعمله وجه الله، أما الإيمان بالشهادة دون الإيمان بالغيب فلا فضل فيه لأحد، إذ يستوي فيه المومن والكافر، والبر والفاجر ثم نوه كتاب الله

بالمومنين المحسنين فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وبهذه الصيغة نفسها، نوّه كتاب الله في بداية سورة البقرة، بالمومنين المتقين.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن المُتَرَفِّين المتكبرين في الأرض، الذين يُضِلُّون الناس بغير علم، ووصف تفنّتهم في أساليب الترف والتمويه والتضليل، وسخاءهم ببذل المال في هذا السبيل، واستعمالهم لمختلف وجوه الإغراء والإغواء، حتى يُعوِّدوا الناس على حياة اللهو والعبث وعدم المبالاة، وخلع بُرُقِيع الحياء، فينصرف الناس عن سماع الحق واستيعابه، ولا يَطرُقون بعد ذلك باباً من أبوابه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ، وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا، كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا﴾، أي: ثقلاً وصمماً، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وجزاء الكبر الإهانة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣: ١٧٨)، إذ الجزء من جنس العمل، وعلى العكس من ذلك يكون جزاء الصالحين من المومنين، الذين يمارسون الصالحات، فينتفعون ويتفعلون، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾، أي: لا خُلْفَ فيه ولا تراجع، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وأعاد كتاب الله في هذا المقام الحديث عن جُملة من الظواهر الكونية في السماء والأرض، لِيُلفت إليها الأنظار، عسى

أن تهتدي بها البصائر والأبصار.

الظاهرة الأولى: قيام السماوات، وثباتها في أماكنها دون استناد إلى عمَد.

والظاهرة الثانية: استقرار الأرض، وتوازنها بالجبال الرواسي من فوقها، حتى لا تضطرب بمن عليها من الإنسان والحيوان، وما عليها من معالم الحضارة والعمران.

والظاهرة الثالثة: عمارة الأرض بسلاسل الإنسان، وغيره من أصناف الحيوان، على اختلاف الصور والأحجام والألوان.

والظاهرة الرابعة: إنزال المطر من السماء، أي: إنزاله من جهتها وسمتها، وإنبات النبات في الأرض بعد موتها.

وذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي: حتى لا تهتز ولا تضطرب، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

ولا يسع الإنسان العادي أمام كل ظاهرة من هذه الظواهر الكونية، فضلاً عن الباحث المتطلع إلى معرفة أسرار الكون، والمعني بالكشف عن نواميس الطبيعة، إلا أن يقف مبهوراً أمامها، مأخوذاً بعظمة مُبدعها وصانعها، هاتفاً من أعماق قلبه مع كتاب الله إذ يقول: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣١: ١١).

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة التي وجهها إلى ابنه وهو يعظه، حتى يسلك مسلكه كل أب رشيد، وقد سجل كتاب الله من بينها خمس وصايا:

الوصية الأولى: أن يؤمن بوجود الله ووحدانيته وربوبيته، ولا يشرك به أحداً، ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الوصية الثانية: أن يراقب الله في حركاته وسكناته، وخواطره ومتمنياته، لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

الوصية الثالثة: أن يقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويوطن نفسه على تحمل الأذى في هذا السبيل، ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الوصية الرابعة: أن يتواضع لعباد الله، ويقبل عليهم بوجهه مستأنساً، وأن يتبعد عن مظاهر الكبر والخيلاء في حديثه معهم، ومشيئته بينهم، ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.

الوصية الخامسة: أن لا يجهر بأكثر من الحاجة ولا يرفع صوته على الناس، فضلاً عن أن ينهرهم مهدداً متوعداً، أو

ساخطاً وغازباً، ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

ويتسجل هذه الوصايا الخمس من وصايا لقمان «الحكيم»، في آيات الذكر الحكيم، فتَحَ كتابُ الله الباب على مصراعيه في وجه «حكمة» الحكماء، وبين أنَّ الحكمة تؤخذ من كل أحد إذا كانت حكمة صحيحة موافقة للدين والأخلاق، وليست مجرد مهاترة أو هُراء، كما هو الشأن في المتطفلين على الحكمة من الأدعياء.

وتخللت الحديث عن لقمان ووصاياه الخمس عدَّةُ آيات كريمة، في طليعتها آية تحدثت عن تلقين الله الحكمةً للقمان، ودعوته إلى شكر الله على نعمه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، ثم آيتان في التذكير بحقوق الوالدين والبرور بهما فيما لا معصية فيه، وإبراز الأهمية الخاصة لدور الأم في حياة الأسرة، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ، وَفَضَّلَهُ فِي عَاقِبَتَيْنِ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ الآية، ثم آية أخرى توجَّه فيها الخطابُ الإلهي إلى كافة البشر، ممتناً عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وتسخير ما في الكون من الطاقات والثروات لمنفعتهم، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وختمَ هذا الربع بآيتين كريمتين كشف فيهما كتاب الله الستار عن عناد الذين استولى عليهم التقليد الأعمى، فأخذوا

يجادلون في الحق دون حجة ولا برهان، وسندهم الوحيد هو التمسك بالهوى ومتابعة الشيطان، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجْدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابٍ السَّعِيرِ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين
في المصحف الكريم

وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٧٧﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزِنُكَ كُفْرُهُمْ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٨﴾ فَنُتَبِّعُهُمْ
قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٧٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٨١﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ وَمِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٨٢﴾ مَا خَلَقَكُمْ
وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٨٣﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

إِلِيلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
 وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ
 مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٧٠﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ
 مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا
 غَشِيَهم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
 نَجَّيْهم إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
 كُلُّ خَبَّارٍ كَفُورٍ ﴿٧٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ
 وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي عَنْ وَالِدٍ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ
 جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَدُورُ ﴿٧٣﴾ إِنَّ
 اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ
 مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
 وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٧٤﴾
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
 أَتَيْهِمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥﴾ اللَّهُ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
 عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾
 يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
 مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ تَعُدُّونَ ﴿٧﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ
 الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٩﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ
 مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ
 السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا
 فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ﴿١٢﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في هذه الحصة نشرع في تفسير الحزب الثاني والأربعين بالمصحف الكريم، وبداية الربع الأول منه قوله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، ونهاية هذا الربع قوله تعالى في سورة السجدة المكية أيضاً: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ، إِنْآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

تتحدث الآيات الأولى في هذا الربع عن أسلم وتمسك بالإسلام، وعن كفر وأصر على الكفر، فالمسلم عندما يسخر مواهبه لبطاعة الله، ويتصرف في حياته طبقاً لمنهج الله، يأوى إلى ركن ركين، وينال الفوز المبين، لأنه انسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومع التعاليم الإلهية التي أرشدهم إليها، ومن كانت حياته في وثام وانسجام، مع نواميس الطبيعة والنظام الخُلقي العام، كان أهلاً لكل عون ورعاية وإكرام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، وكما قال

تعالى هنا: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، لتوقف الطاعة على «الإحسان»، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، لتوقف العمل الصالح، نيةً وثواباً، على «الإيمان»، و«العروة الوثقى» من باب التمثيل، فكما أن من أراد التَّدَلِّي من شاطئ مثلاً مع ضمان النجاة من السقوط لا يَسْعُهُ إِلَّا أن يستمسك بأوثق عروة في أمتن حبل، كذلك من أراد النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة لا يجد عروة يستمسك بها أوثق من الإسلام، أما من كفر وأصرَّ على كفره فسيقضي فترة حياته القصيرة في المَتَع والشهوات، لكنه سيعاقب على استهتاره وتهاونه عقاباً لا يجد منه خلاصاً ولا انفكاكاً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ، إَلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ونبة كتاب الله إلى أن فريقاً من الكافرين والجاحدين عندما يُوجَّه إليهم السؤال عن خلق السماوات والأرض لا يجدون مناصاً من الإقرار بربوبية الله وخلقهم للكون، لكنهم لا يستخلصون النتائج الحتمية لهذا الإقرار، فيطيعوا الله ورسوله، بل يصرون على أن ينكروا فروع الدين وأصوله، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: يقفون عند حد «القول» دون العمل، ويتجاهلون قواعد الدين، لتعودهم على الإهمال والخمول والكسل، وقوله تعالى في وسط هذه الآية: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تلقين لكل مومن أن يحمد الله ويشكره على ما هداه

إليه من نعمة الإيمان، إذ لا نعمة تعادلها بالنسبة لسعادة الإنسان، ثم جاءت الآية التالية تؤكد إيمان المؤمنين، وتمسكهم بالحق المبين، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وبعد أن تحدث كتاب الله عن خلق السماوات والأرض، وانفراد الحق سبحانه وتعالى بتخطيط الكون وتدبيره، وتنظيمه وتسييره، أشار إلى أن «كتاب الكون» الفسيح لا تقف الكتابة فيه أبداً، بل إن الأوامر الإلهية بشأنه لا تقف عن الصدور، ولا يسع كلماته كتابٌ مسطور، ولا رَقٌّ منشور، وكما أنه لا نهاية لقدرته ولا لمقدوراته، فلا نهاية لعلمه ولا لكلماته، إذ «الْأَبَدِيُّ لَا يَتَنَاهَى» وهذا معنى قوله تعالى الوارد هنا على وجه التمثيل والتقريب: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال القفال: «لما ذكر الله تعالى أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأنه أسبغ عليهم النعم، نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكَتَبَتْ بها عجائب صنع الله، الدالة على قدرته ووحدانيته، لم تنفد تلك العجائب»، وقال القرطبي: «وإنما قُرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، لا أن كلماته تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور».

وإقناعاً لمن لا يزال في شك من أمر البعث، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ»، وما دَامَتِ عَمَلِيَّةُ الْخَلْقِ وَنَفَخَ رُوحَ الْحَيَاةِ فِي الْأَحْيَاءِ مُتَجَدِّدَةً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكُلِّ سَاعَةٍ، فَمَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنْ تَجْدِيدِ الْحَيَاةِ فِي الْمَوْتَى وَبَعْثِهِمْ عِنْدَ «قِيَامِ السَّاعَةِ»؟.

ثم أشار كتاب الله إلى تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، مذكراً بما وراء هذا التخطيط الإلهي الحكيم، الملائم لحياة الإنسان والحيوان والنبات، من منافع ومصالح، لولاها لما عرفت الأرض عمراناً ولا ازدهاراً، ولما استطاع أحد من الأحياء عيشاً فوقها ولا استقراراً، وذلك قوله تعالى موجهً الخطاب إلى كل إنسان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

و«إيلاج الليل في النهار» يقع عند طول الأول وقصر الثاني، كما يقع «إيلاج النهار في الليل» عندما يصبح النهار طويلاً والليل قصيراً، وهكذا يتبادلان القصر والطول، تبعاً لاختلاف الفصول، أما جريان الشمس والقمر فلا يقف إلا بانتهاء أجلهما المحدود، عند حلول اليوم الموعود.

وتعقياً على هذه الظواهر الكونية التي سخرها الله لكافة الخلق، ولا يستطيع تدبيرها وتسييرها إلا الإله الخالق الحق، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فالعاجز عن الإيجاد والإمداد، ليس له من ذاته أي اعتبار ولا اعتداد، وصدق الشاعر القائل: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ».

وأضاف كتابُ الله إلى ما سبق من ظواهر الطبيعة ظاهرة كونية أخرى هي ظاهرة الملاحة، التي تقوم بها السفن في البحر فتطفو على سطح الماء، فلولا أن الله تعالى خلق الماء في البحر على الصفة التي يمكن معها جريان السفن، ولولا أن الله هدى الإنسان إلى الطريقة الصالحة لبناء السفن، وهده إلى الكشف عن العلاقة القائمة بين كثافتها وكثافة الماء، ولولا أن الله هداه إلى معرفة التيارات المائية والهوائية المنتظمة، لبقيت البشرية، بسبب تعذر المواصلات البحرية، في قطيعة تامة، طيلة قرون وأجيال، ولما انتظم بين أبنائها تبادل ولا اتصال. قال الحسن البصري: «مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطُرق، ومفتاح السماء الدعاء»، وإلى هذه الظاهرة يشير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، بِنِعْمَتِ اللَّهِ، لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾، و«نعمة الله» هنا تصدق بلطفه وتسخيره للسفن في البحر، كما تصدق بما تحمله السفن من صادرات وواردات، وما تقوم به من مبادلات تجارية نافعة. وذكُر «الصبر والشكر» في هذا السياق مناسب للمقام غاية المناسبة، فالملاحة البحرية لا يقوم بها ولا يتحمل مسؤوليتها إلا من تحلوا بالصبر، وَمَنْ جَنَى ثَمَارَهَا وَعَرَفَ قدرها لا يسعه إلا التوجه إلى الله بالحمد والشكر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وفي نطاق الملاحة بالبحر، وما يعرض لها من شدائد وأهوال، تولى كتاب الله وصف بعض الحالات التي قد يتعرض لها رُكَّاب السفن، وما يصيبهم من انزعاج وهَلَع، عندما تحيط

بهم أمواج البحر العاتية من كل جانب، فيحسون بالخطر الداهم، ويلجأون إلى الله خاشعين، داعين أن ينجيهم من الغرق، حتى إذا هدأت الأمواج وزال شبح الخطر، وانتهى السفر، عاد كل واحد إلى حالته التي كان عليها من قبل، ونسي الخطر والنجاة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ، فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، و«الظُّلُل» هنا جمع ظُلة، وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، فقد ترتفع الأمواج في البحر حتى تشبه الجبال، وقد تشبه في لونها وكثافتها «السحاب الثقال».

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾، أي: من الذين نجوا من الغرق من بقي متوسطاً في عمله، رغم ما شاهده من أهوال كانت حريّة بأن تدفعه إلى المزيد من طاعة الله، شكراً على الخلاص والنجاة، وتفسير لفظ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ هنا بمعنى المتوسط في العمل مطابق لتفسيره في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ (٣٥: ٣٢)، على أَنَّ من الذين نجوا من خطر الغرق من عاهد الله، ثم نقض عهده وغدر، فكان «ختاراً»، ولم يشكر الله على نجاته، بل جحد وكفر، فكان «كفوراً» كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ووجه كتاب الله الخطاب إلى الناس كافة، داعياً إياهم إلى تقوى الله والاستعداد لليوم الآخر، و«التقوى» هي السبيل الوحيد «لوقايتهم» من الآفات والعاهات، والشدائد والأزمات، فحول هذه

«الوقاية» تدور الأوامر والنواهي والوصايا والمواعظ، مبيناً أن كل فرد سيقف أمام الله مسؤولاً عن نفسه وعمله، فلا والد ينفع يوم الفصل ولده، ولا مولود ينفع والده، رغماً عما بينهما من قرابة وتعاطف وشفقة، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٣: ١٠١)، ناهياً لهم عن الغرور بالحياة الدنيا وطول الأمل، منبهاً إلى أن العبرة كلها بالتقوى وصالح العمل، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ، وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو الموت والبعث والحساب والجزاء، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، والمراد «بالغرور» هنا هو الشيطان، الذي يطيل حبل الأمل للإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١٢٠).

وخُتِمت سورة لقمان بذكر «مفاتيح الغيب» الخمس التي لا يعلمها على وجه التحقيق إلا الله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، والمراد بالساعة هنا الساعة التي يأذن الله فيها بحدوث انقلاب شامل في الكون، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات، فالعلم الجازم بموعدها، والمحيط بكيفية حدوثها، خاصٌ بالله تعالى وحده ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٧: ١٨٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَيُنَزَّلُ الْغَيْثَ﴾، والغيث هنا هو المطر الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها، عندما يأذن بتحريك الرياح وإثارة السحب، فيكرم به البشر أجمعين، على النطاق العالمي

كله، دون تفريق بين بلد وبلد وجنس وجنس، ودون تكاليف ولا مصاريف. وتحريك الرياح في الكرة الأرضية، الذي هو العامل الأكبر في إثارة السحب ونزول الأمطار، لا يَقْوَى عليه إلا الله تعالى وحده، ولا يَعْلَم مواعيده ومواعيد نُزول المطر، ومبلغ كمّياته قبل أن ينزل، على وَجْهِ التحقيق والتدقيق، إلا خالق الخلق ورازقهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، وكلمة (ما) لفظ عام يشمل أولاً تصوير الله للأجنة في الأرحام، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٣: ٦)، والعلم بما يستقر في الأرحام وما يسقط، ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (٢٢: ٥)، والعلم بكون ما في الرحم ذكراً أو أنثى، واحداً أو متعدداً، أبيض أو أشقر أو ملوناً، ذكياً أو غيباً، سعيداً أو شقيماً، طويلاً أو قصيراً، غنياً أو فقيراً، معمرّاً أو قصير العمر، ويشمل العلم بمدة حملة هل تنقص عن المعتاد أم تزداد، أو تنتهي في الوقت المعتاد، على أن قوله تعالى: ﴿مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، لا يخص أرحام النساء وحدهن، بل يشمل أرحام الحوامل من كل الإناث، سواء في ذلك إناث الإنسان وإناث غيره من الحيوان، فعلم الله تعالى محيط شامل، وإحصاؤه لخلقه إحصاء كامل، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِلَّاهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (١٣: ٨)، وصدق الله العظيم إذ قال (٥٣: ٣٢): ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، فقد يعزم الإنسان على عمل الخير ثم لا يُوفَّقُ إليه ويتورط في الشر، وقد ينوي القيام بمشروع مهم فتحول دونه الموانع، وقد يكون مُعَوِّزاً فيفاجأ بهبة من صديق، أو وصية من قريب، وقد يكون معتمداً على راتبه من الوظيفة الذي يشغله، فيفاجأ بالطرد من الوظيفة والتعرض للخصاصة والفقر، وقد يكون منتظراً لربح عظيم، فتنزله به خسارة عظيمة، أو يقبض الله روحه فجأة، فتنتقل مكاسبه في الحين إلى ورثته، وهكذا ذواليك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، فقد يكون الإنسان مصراً على أن يقضي حياته ببلده إلى الموت، ثم ترمي به الأقدار خارج بلده لسياحة أو تجارة أو علاج، أو طلب علم، أو صلة رحم، فإذا به يلقي الموت في بلد لم يخطر له ببال، ويموت ويُقَبَّر حيث يشاء الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

والآن وقد انتهينا من تفسير سورة لقمان ننتقل إلى سورة السجدة المكية أيضاً، وهي آخر سورة في سلسلة السور المبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة، التي وردت متتابعة على التوالي، ابتداءً من سورة الشعراء، وانتهاءً عند هذه السورة. وسميت «سورة السجدة» أخذاً من قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد تصدى كتاب الله في بداية هذه السورة للرد على خصوم القرآن، وتبيين الرسالة العظمى التي جاء بها لهداية الخلق،

فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ، لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

ثم تحدث كتاب الله عن خلق السماوات والأرض، وتدبير الخالق الحكيم للكون، وعلمه المحيط بكل شيء، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، وحتى لا يظن ظان أن «الأيام الستة» التي تم فيها خلق الكون من جنس أيامنا القصيرة المحدودة، قال تعالى في نفس السياق: ﴿ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ، ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وبين كتاب الله ما في خلق الله وصنعه من إحكام وإتقان، وضرب المثل بالمراحل التي مر بها نوع الإنسان، ونوة بالخصائص الممتازة التي ميّزه بها على سائر الحيوان، فقال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وختم هذا الربع بالإشارة إلى ما يستغربه منكرو البعث من أن يُبعثوا بعد موتهم، وقد تحللت أجسامهم إلى تراب، واختلطت بتراب الأرض، حتى لم يُعَدَّ من الممكن التمييز بين الاثنين،

نَاسِبِينَ أَنْ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِنْدَ نَشْأَتِهِ الْأُولَى مِنْ
تَرَابٍ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُبْعَثَهُ عِنْدَ نَشْأَتِهِ الثَّانِيَةِ أَيْضاً مِنْ تَرَابٍ، وَذَلِكَ
قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَهَايَةِ هَذَا الرَّبْعِ: ﴿وَقَالُوا أَأِذَا ضَلَلْنَا فِي
الْأَرْضِ﴾، أَي: اِخْتَلَطَ تَرَابُ أَجْسَامِنَا بِتَرَابِهَا، ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ يَتَوَقَّعُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَبَرَّيْآ إِذِ الْخُجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ
رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا
مُقِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن
حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسَانِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا
خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ه
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
 لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
 وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
 أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِءَ
 مُتَكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ دُونَ الْعَذَابِ
 الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ
 ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
 مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى
 لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَوَّامَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
 صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ
 كَرَّمُ أَهْلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ
 إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ

أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِنَّهُمْ مُنْظَرُونَ ﴿٣٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة السجدة: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ، إِنَّهُمْ مُّنتَظَرُونَ﴾.

في بداية هذا الربع خاطب الحق سبحانه وتعالى رسوله الأمين، آمراً له أن ينذر الذين كفروا بقاء الله، بأنهم مهما ترددوا، وعاندوا وتمردوا، فلن يفلتوا من قبضة الله، الذي خلق الموت والحياة، وأنهم في النهاية راجعون إليه، وواقفون وقفة الذلة والضرعة بين يديه، ووقتئذ يُصَدِّقُ الْخَبَرَ الْخَبَرُ، ولا يبقى مجال لما اعتادوا التفوه به من الهراء والهذر، أما ما يُعْبَرُونَ عنه بعد فوات الوقت من مظاهر الإيمان والندم، فلا عبرة به، لأنه بمنزلة العدم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا

نَعْمَلْ صَالِحًا، إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٤١﴾، ومعنى ﴿يَتَوَفَّيْكُمْ﴾ سيتوفى
روحكم وبتزعتها من الجسم، فتنتقل إلى عالم الأرواح، ومعنى
﴿وَكُلَّ بِكُمْ﴾ أن ملك الموت لا يغفل عنكم، فإذا جاء أجلكم
لا يؤخركم لحظة واحدة، ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ أنهم
يكونون مطأطي الرؤوس من الذل والخزي الذي يلحقهم، والندم
والغم الذي يصيبهم، ومعنى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: عند محاسبة
ربهم لهم على كفرهم بقاء الله، ومعنى قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾،
أي: زالت عنا الشكوك الآن، وآمنًا بالبعث الذي كنا ننكره،
وقبضُ الروح وتوفي الأنفس مرده في الحقيقة إلى الله سبحانه،
مصدقاً لقوله تعالى: ﴿إِلَهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢)،
وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾
(الجاثية: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾
(الملك: ٢)، وينسب «التوفى» مجازاً إلى الملائكة عموماً، كما
في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)، وإلى ملك الموت خصوصاً، كما
في آية هذا الربع: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾، إشارة إلى أن
الملائكة يتولون قبض الأرواح بأمر الله.

وجواباً عما قد يدور في الأذهان، أو يجري على اللسان،
لماذا وُجد الضالُّ إلى جانب المهتدي، والفاجر إلى جانب
المتقى، والكافر إلى جانب المؤمن، والشقي إلى جانب السعيد،
قال تعالى في نفس السياق: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدًى﴾، أي: لو أراد الله أن يخلق الإنسان على نمط الملائكة

المُسَخَّرِينَ، الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، لُتِمَتْ كَلِمَتُهُ، وَتَحَقَّقَتْ إِرَادَتُهُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاءَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ حُرّاً مُخْتَاراً، وَأَنْ يُجَهِّزَهُ بِمُلْكَاتٍ وَطَاقَاتٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِي الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ، وَتَبَعاً لِمَا آتَاهُ مِنْ حُرِيَّةٍ وَاخْتِيَارٍ وَضَعَ عَلَى عَاتِقِهِ أَمَانَةَ التَّكْلِيفِ، وَحَدَّدَ لَهُ الْمَنْهَجَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ فِي حَيَاتِهِ دُونَ زَيْغٍ وَلَا تَحْرِيفٍ، فَكَانَ بِذَلِكَ مَسْئُولاً عَنْ تَصَرُّفَاتِهِ، لِكُونِهِ شَخْصِيَّةً حُرَّةً مُدَبِّرَةً، لَا آلَةَ صِمَاءَ مُسَخَّرَةً، مُصَدِّقاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: (٩١: ٨): ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا، فَأَلْهَمْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْنَاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْنَاهَا﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ ثَانِيَةٍ: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ (فصلت: ١٧)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨)، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ (الأنعام: ٣٥)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا سَبَقَ مِنْ سُورَةِ (يونس: ٩٩)، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إِشَارَةً إِلَى مَصِيرِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى وَالْكَفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، مِنْ عَصَاةِ الْجِنِّ وَالْأَنْسِ، وَأَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْعِقَابِ.

وَانْتَقَلَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمَكْذِبِينَ بِلِقَائِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَاخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَعَامِلُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِالْإِهْمَالِ، فَلَا

يُمنُّ عليهم بعفوه ورحمته، ولا بدخول جنته، جزاء إهمالهم في الدنيا لعبادته وطاعته، وإصرارهم على متابعة الباطل بدلاً من اتباع هدايته، وذلك معنى قوله تعالى هنا «على وجه المقابلة»: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، إِنَّا نَسِينَكُمُ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وكما يُستعمل «الذوق» في الإحساس بالمطعم يستعمل فيما تحس به النفس من مختلف الإحساسات وإن لم يكن شيئاً مطعوماً، ومن الاستعمال الثاني قوله تعالى هنا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ... وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾، وقوله في آية أخرى: ﴿فَذُوقُوا وَيَالَ أُمْرِهِمْ﴾، و«عَذَابَ الْخُلْدِ»، هو العذاب الدائم الذي لا ينقطع.

وبعدما تحدث كتاب الله عن الفئة الغافلة المستكبرة، المصرة على التمسك بضلالها وإهمالها، أخذ يتحدث عن الفئة الواعية المومنة، الخاشعة لله، التي لا تفارقها خشية الله في جميع اللحظات، فوصفها بأن سماعها لكلام الله يزيد لها هدى وإيماناً، فلا تلبث أن تخضع ساجدة لجلاله وجماله، وتسبح في تهجدها بحمده وكماله، وإذا نامت فإنها لا تستغرق في النوم، بل تظل قلقة في مضاجعها بين الخوف والرجاء، ويهجم عليها الأرق ما بين فترة وأخرى، فتجد راحتها في التوجه إلى الله بالدعاء، وعقد النية على التوجه إلى الخلق بالرِّفد والعطاء، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَوْمُنُ بَٰيْتُنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على غرار قوله

تعالى فيما سيأتي من سورة الذاريات (١٧ - ١٩): ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

وَعَقَّبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْكَشْفِ عَمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي دَارِ النِّعَمِ، فَتَقَرُّبُهُ أَعْيُنُهُمْ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَنَبَّهَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى الْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالطَّاعَةِ وَالْعَصْيَانِ، وَأَنْهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا، وَلِذَلِكَ كَانَ جَزَاءُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُنَاقِضًا لِلْآخَرِ، لَا مُتَمَاثِلًا وَلَا مُتَحَدًّا، وَذَلِكَ مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا، لَا يَسْتَوُونَ، أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ، نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ و﴿النُّزُلُ﴾ مَا يَهَيِّئُ لِلضَّيْفِ النَّازِلِ عِنْدَ وَصُولِهِ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَّهُمُ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثُمَّ عَرَّفَنَا كِتَابُ اللَّهِ بِأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي يَسْلُطُهُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ مِنْ خَلْقِهِ، لِتَأْدِيبِهِمْ وَعِقَابِهِمْ، نَوْعَانِ: النَّوْعُ الْأَوَّلُ «العَذَابُ الْأَدْنَى» وَهُوَ الْأَصْغَرُ، وَالنَّوْعُ الثَّانِي «العَذَابُ الْأَبَدُ» وَهُوَ الْأَكْبَرُ، أَمَّا «العَذَابُ الْأَدْنَى» فَهُوَ عَذَابُ الدُّنْيَا، وَيَصْدُقُ بِالصَّائِبِ وَالْإِسْقَامِ الَّتِي يُبْتَلَىٰ بِهَا الْخَلْقُ، تَأْدِيبًا لَهُمْ، حَتَّى يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَيَرْجِعُوا

إلى صراطه المستقيم، ومما يندرج في هذا النوع من العذاب حدودُ الجرائم والقتل، والأسرُ في الحرب، والقحط والغلاء، واضطرابُ حبل الأمن في السَّلم، وأما «العذاب الأبعد» فهو عذاب الآخرة بشدائده وأهواله، على اختلاف أصنافه وأحواله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْإِدْنِيِّ﴾، وهو العذاب الأصغر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْإِكْبَرِ﴾، وهو العذاب الأبعد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فإن أفاد الأول في التأديب، لم تبق حاجة إلى ما فوقه من أنواع التعذيب، ومن لطائف التفسير ما نبه إليه فخر الدين الرازي في هذه الآية، من أن وُصفَ عذاب الدنيا بكونه «قريباً» هو الذي يصلح للتخويف والإنذار، لا كونه صغيراً، لأن العذاب العاجل - وإن كان قليلاً - يحترز منه الناس أكثر مما يحترزون من العذاب الشديد إذا كان آجلاً، ووصفَ عذاب الآخرة بكونه «كبيراً وعظيماً» هو الذي يصلح للتخويف والإنذار، لا كونه بعيداً، فاختار كتاب الله في كلا العذابين الوصف الذي هو أصح للتخويف بهما، بدلاً من مقابلهما غير المناسب، ولذلك قال في عذاب الدنيا: ﴿الْعَذَابِ الْإِدْنِيِّ﴾، ولم يقل العذاب الأصغر، وقال في عذاب الآخرة: ﴿الْعَذَابِ الْإِكْبَرِ﴾، ولم يقل العذاب الأبعد.

وعقب كتابُ الله على ما ذكره من وصف أحوال الفريقين ووصف مصيرهما في الدار الآخرة، بأنه لا ظالم لنفسه أظلم ممن عُرِضَ عليه كتاب الله، الذي فيه أهدي الهدى، وأحكم الحكمة، وشفاء الصدور من الشك والغم ومنتهى الرحمة، وبدلاً من أن

يُقْبَلُ عَلَيْهِ إِقْبَالُ الظُّلْمَانِ عَلَى الْمَاءِ يُعْرِضُ عَنْ آيَاتِهِ دُونَ خَنْجَلٍ وَلَا اسْتِحْيَاءٍ ، وَذَلِكَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

وعاد كتاب الله مرة أخرى إلى مخاطبة خاتم أنبيائه ورسله ، مُذَكِّراً إِيَّاهُ ، بِأَنَّهُ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى التَّوْرَةُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ (٥ : ٤٨) ، وَكَمَا لَاقَى مُوسَى الْعَنْتَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِ ، وَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسَهُمْ ، دُونَ أَنْ يَتَرَجَعَ أَوْ يَتَقَهَّرَ ، فَإِنَّ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ لَنْ يَضِيقَ ذَرْعاً بِمَا سِيلِقَاهُ مِنْ عَنْتِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَكَمَا اخْتَارَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيَةِ مُوسَى وَقَوْمِهِ أُمَّةً يَهْدُونَهُمْ بَيْنَ الْفِتْرَةِ وَالْآخِرَى ، فَسَيَخْتَارُ مِنَ الْأُمَّةِ الْمَحْمُودِيَةِ أُمَّةً عَدُولاً يَحْمِلُونَ هَذَا الدِّينَ ، وَيَبْلُغُونَهُ لِلْعَالَمِينَ ، وَيَجِدُّونَ شَبَابَهُ كُلَّمَا احتاج للتجديد إلى يوم الدين ، وَذَلِكَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، وَهَذَا الصَّبْرُ نَوْعَانِ : صَبْرٌ عَلَى حَمْلِ الدِّينِ وَمِمَارَسَتِهِ بِكُلِّ ثَبَاتٍ وَبِقِيْنٍ ، وَصَبْرٌ عَلَى تَحْمِلِ الْأَذَى فِي سَبِيلِ حَمَلِهِ وَتَبْلِيغِهِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ ضِدَّ هَجَمَاتِ الْمُدْعِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ ، وَبِالصَّبْرِ مَعَ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ ، تَنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْقَوْلَ الْفَصْلُ فِيمَا بَيْنَ الْبَشَرِ مِنْ نِزَاعَاتٍ وَاخْتِلَافَاتٍ حَوْلَ الْعُقَائِدِ وَالْأَدْيَانِ ، وَالْحُكْمِ الْعَدْلِ فِيهَا

وفي غيرها من شؤون الإنسان، سيصدر عن رب العالمين وأحكم الحاكمين، عندما يَجْمَعُ النَّاسَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَطَبَقاً لِقَوْلِهِ الْفَضْلُ الصَّادِرُ فِي شَأْنِهِمْ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ، الْمَقْضَى بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، يَلْتَحِقُونَ بِدَارِ النِّعَمِ أَوْ بِدَارِ الْجَحِيمِ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١٨ : ٤٩).

ووجه كتاب الله بعد ذلك أنظار الجاحدين والمكذبين إلى الاعتبار بآيتين من آياته الكونية البارزة: الأولى آية يتجلى فيها مبلغ غضب الله ونقمته، والثانية آية يتجلى فيها مبلغ إحسانه ونعمته، أما الآية الكونية الأولى فيتضمنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، وأما الآية الكونية الثانية فيتضمنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وفي الآية الأولى إشارة إلى ما يتعرض له خصوم الرسالات الإلهية من هلاك، وما تتعرض له مساكنهم من تدمير، عندما لا يرجى لهم صلاح، وتذكير بأخبار القرى البائدة والقرون الخالية المتواترة، التي يتناقلها جيل عن جيل، فما بالهم لا يعتبرون بها بعد سماعها ويعودون إلى حظيرة الحق؟.

وفي الآية الثانية إشارة «إلى الماء الذي يسوقه الله إلى الأرض اليابسة التي لا تُنْبِتُ، من السيول والأمطار، والعيون والأنهار، فلا تلبث أن تهتز وتربو، وتوتى أكلها لخير الإنسان والحيوان، فما بالهم لا يعتبرون بها وهم يرون رأي العين أثر

رحمة الله، المهداة إلى كافة الخلق؟.

وكما قال تعالى هنا: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾، بتقديم ذكر الأنعام على الأنفس، قال تعالى فيما سبق من سورة الفرقان (٤٩): ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًّا كَثِيرًا﴾، ولعل في ذلك إشارة إلى أن الإِنعام على الأنعام بالسقي من الماء، والأكل من الزرع، هو في الحقيقة إِنعام من الله على الإنسان نفسه، لما للإنسان في الأنعام من منافع ومصالح لا تستقيم حياته بدونها.

وعلق أبو حيان على قوله تعالى هنا: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾، فقال: خصَّ الزرع بالذكر، وإن كان يخرج الله بالماء أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعُشب المنتفع به في الطب وغيره، تشريعاً للزرع، ولأنه أعظم ما يقصد من النبات، وأوقع «الزرع» موقع النبات، وقُدِّمت الأنعام، لأن ما يَنْبُتُ تأكله الأنعام أولاً بأول، قبل أن يأكل بنو آدم الحَبَّ.

ووصف كتابُ الله لوناً من ألوان السخرية والاستهزاء التي كان يلجأ إليها الجاحدون والمكذبون، متسائلين عن الساعة واليوم الآخر: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، والمراد «بالفتح» هنا الفصل والقضاء، والحُكم الأخير الذي يقع يوم القيامة، وهو «يوم الفتح»، ثم رد عليهم كتاب الله قائلاً: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، مؤكداً بذلك أنَّ من لم يؤمن قبل الموت لا يُقبل منه يوم القيامة إيمان ولا

عمل، ولا حَقَّ له في أي رجاء أو أمل، وسيأتي في سورة سبأ (٢٦) قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: يقضي بيننا بالحق، ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

قال ابن كثير: «ومن زعم أن المراد من هذا الفتح «فتح مكة» فقد أبعد النُّجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قُبِلَ فيه رسول الله ﷺ إسلام «الطُّلقاء» وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قُبِلَ إسلامهم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

وحرصاً على كرامة الرسول الأعظم من سَفَه السفهاء وجدلهم الفارغ، دعاهُ الحق سبحانه وتعالى إلى الإعراض عنهم عندما يقوم بتبليغ الرسالة، ما داموا لا يبحثون عن الحق، وإنما يجادلون من أجل الباطل، كما دعاه إلى ملازمة الصبر، في انتظار النصر. وكما ينتظرُ الرسول والمؤمنون معه نصر الله، ينتظر الكافرون والجاحدون عذاب الله، وذلك قوله تعالى في ختام سورة السجدة المكية ونهاية هذا الربع، ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ، إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ① وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ② وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③ مَا جَعَلَ
اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ④ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ
تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ⑤ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ
قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ⑥
أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ⑦ وَلَكِنْ
مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ⑧ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ⑨ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ
مِنْ أَنْفُسِهِمْ ⑩ وَأَزْوَاجُهُ ⑪ أُمَّهَاتُهُمْ ⑫ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ

بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا
إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ⑥
وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ⑦
لَيَسْئَلَ الْمُصَدِّقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ⑧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّلُمَاتِ ⑩ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ⑫ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ
لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ⑬
وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آقْطَارٍ رَهَاشَةٌ سَبِلُوا الْفِتْنَةَ لِأَتَوْهَا
وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ⑭ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ

مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ⑮
 قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
 لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ⑯ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ
 إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ⑰

الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأحزاب المدنية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

في ختام الربع الماضي انتهينا من تفسير «سورة السجدة» المكية، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير «سورة الأحزاب» المدنية، وقد أطلق عليها «سورة الأحزاب»، أخذاً من قوله تعالى في آيتها العشرين: ﴿يَخِشُّونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ وقوله تعالى في آيتها الثانية والعشرين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وفي بداية هذه السورة خاطب الحق سبحانه وتعالى خاتم

أنبيائه ورسله، والخطاب يَعُمُّ كل فرد من أفراد أمته، فأمره بالتقوى، والأمر بِتَقْوَى الله لمن هو متلبس بها، بل بأعلى دَرَجَاتِهَا - كما هو حال الرسول - أمرٌ بالازدياد منها، والديمومة عليها، كما حذَّره من كيد الكافرين وخداع المنافقين، حتى لا يركنَ إليهم إذا تقدموا إليه برأي أو مشورة أو طلب، وما أكثرَ الحبائل التي نصبوها لدعوته، والحيل التي دبروها لتثيظه عن أداء رسالته، ودَعَاهُ إلى اتِّباع الوحي الذي ينزل عليه من ربه، والعمل به دون تساهل ولا هوادة، فباتباعه يتحصن من مكر أعداء الله وخداعهم، وينجو من دسائسهم ومؤامراتهم، ثم أمره بعد ذلك بالتوكل على الله، والاعتماد - بعد اتخاذ الأسباب - على تدبير مولاه.

وفي خلال هذه الأوامر والتوجيهات الإلهية اختار كتاب الله جملة من أسماء الله وصفاته، لها علاقة وثيقة بالموضوع، ومناسبة تامة للمقام، ألا وهي اسمُ «العليم»، لأن الله هو الذي يعلم حق العلم الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، واسمُ «الحكيم»، لأن الله هو الذي يدبِّر أمر عباده أحكم تدبير، ويضع الأشياء مواضعها دون خلل ولا تقصير، واسمُ «الخبير»، لأن الله هو الذي يعلم سرائر الخلق وأسرار الخليقة، على وجه الحقيقة، واسمُ «الوكيل»، لأن الله هو الذي يتولى حفظ أوليائه، ويعصمهم من كيد أعدائه، وبهذا التفسير المستطاب، يتضح معنى الآيات الأولى من سورة الأحزاب. قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١﴾

وقوله تعالى في بداية هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، كقوله تعالى في سورة الأنفال (٦٤): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله في سورة التوبة (٧٣) وسورة التحريم (٩): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، هذا أسلوب قرآني خاص، يستعمله كتاب الله عند مناداة رسوله الأعظم، فيناديه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، تنويهاً بقدره، وتشريفاً لأمره، بينما يقتصر في نداء غيره من الرسل والأنبياء، على مجرد ذكر الأسماء، فيقول مثلاً: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، وهذا لا ينقص من قدرهم، أذ هم جميعاً في أصل النبوة والرسالة سواء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾، إشارة إلى أنه لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد إيمان وكفر، كما يتصور المنافقون، إذ يحاولون التظاهر بالإيمان، بينما قلوبهم منطوية على الكفر، فالكفر لا يجتمع مع الإيمان، كما لا يجتمع الشك مع اليقين، والشرك مع التوحيد، والانزعاج مع الطمأنينة في وقت واحد، وحالة واحدة.

وجاء كتاب الله في نفس السياق بحالتين عرفتهما الجاهلية قبل الإسلام، فدعا إلى الحد منهما وإبطال مفعولهما: الحالة الأولى هي «الظهار» من الزوجة، واعتبارها بمنزلة «الأم»، والحالة

الثانية هي «تَبَنَّى أولاد الغير» واعتبارهم بمنزلة الأولاد الأصليين.

ففي حالة «الظهار»، وهي الحالة الأولى، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، بمعنى أن المرأة الواحدة لا يمكن أن تكون زوجة للرجل وأماً له في نفس الوقت، فهناك فرق كبير بين الوضعيتين والحالتين مادياً وأدبياً، وما جرى عليه العرب في جاهليتهم من مفارقة زوجاتهم عند غضبهم، وقطع العشرة الزوجية معهن، بمجرد قول الزوج لزوجته: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي»، لم يَعُدْ لَهُ نَفْسُ الاعتبار في الإسلام، بل أصبح هذا النطق في نظر الإسلام منكراً من القول وزوراً، وأصبح تحريم مَسَاسِ الزوجة والاستمتاع بها بمقتضى هذا القول أمراً مؤقتاً، ويمتد إلى غاية محدودة، هي القيام بالكفارة من طرف الزوج، و«كفارة الظهار» حسب الترتيب في الدرجة الأولى: تحرير رقبة، وفي الدرجة الثانية: صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، وفي الدرجة الثالثة: إطعام ستين مسكيناً، طبقاً لما يأتي من الآيات في سورة المجادلة. قال جار الله الزمخشري: «فإن قلت ما معنى قولهم أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي؟ قلت: أرادوا أن يقولوا: أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ كَبُطْنِ أُمِّي؟ فَكُنُوا عَنِ الْبُطْنِ بِالظَّهَرِ، لثَلَا يَذْكُرُوا الْبُطْنَ الَّذِي ذَكَرَهُ يَقَارِبُ الْفَرْجَ، وَإِنَّمَا جَعَلُوا الْكِنَايَةَ عَنِ الْبُطْنِ بِالظَّهَرِ، لِأَنَّهُ عَمُودُ الْبُطْنِ»، وكما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، قال تعالى في سورة المجادلة الآية (٢): ﴿إِلَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا أَلْيَىٰ وَلَدُنَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ

الْقَوْلُ وَزُوراً ﴿١﴾

وفي حالة «التبني»، وهي الحالة الثانية، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، بمعنى أن تبني ولد أو بنت ليس من صُلب المتبني، وإنما هو أو هي من صُلب رجل آخر، معروف أو مجهول، عمل غير مشروع لا يرضى عنه الله، ولا يقبله الشرع، لأنه مجرد تزوير، وقلب للحقائق، ومن أجل ذلك سَمَّى كتاب الله هذا الولد المتبني كالبنت المتبنة «دَعِيًّا» أي ولداً ليس بأصيل، والجمع «أَدْعِيَاء»، وبالرغم عن تسميته ابناً من طرف الأب الطارئ المتبني، فإن الله تعالى يرفض قبوله ابناً للمتبني، ويعتبره دخيلاً في الأسرة ومتطفلاً عليها. وتأكيذاً لرفض بنوته وإن ادعاها المتبني قال تعالى في نفس السياق: ﴿ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، أي: لا عبرة به شرعاً، لأنه مخالف للواقع وكذب على الله، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾، لا يرضى بسواه بديلاً، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، فما أقره اتباعناه، وما أنكره رفضناه.

وقد كان هذا النوع المصطنع من الأبوة والبنوة معروفاً عند العرب في الجاهلية، ولا سيما بالنسبة للأولاد الذكور، كما كان معروفاً عند غيرهم، لكن كتاب الله أعلن فسادَه وبطلانه، وفرض على المسلمين أن لا يغيروا خلق الله، وأمرهم أن ينسبوا الولد أو البنت إلى الأب الحقيقي ما دام الأب معروفاً، أو يكتفوا في معاملته كأخ في الدين، أو كمولى من موالي القبيلة أو العشيرة، إن كان مجهول الأب مجهول النسب، وذلك قوله تعالى مخاطباً

لعباده المتقين: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.

ونبّه كتاب الله على أن من نسب ولداً إلى غير أبيه وكان ذلك صادراً منه على وجه الخطأ لا على وجه العمد، فإنه لا إثم عليه، لكن المتعمّد لنسبة الولد إلى غير أبيه، مثل متبنيّه، قاصداً لذلك مصراً عليه، سيؤاخذ بما تورط فيه من قول الزور، ما لم يتب إلى الله، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

والحكمة في تحريم «التبني» ومنعه شرعاً منعاً باتاً أن مرتكبه يعمل على إفساد الأنساب واختلاطها، بدلاً مما أمر الله به من حفظ الأنساب وصيانتها، كما يعمل على انتزاع الحقوق من أهلها وتمكين الغير منها دون حق، لأنه يجعل ولد الغير ولداً للطلب، وبذلك يصبح غير المحارم، من زوجة المتبني وأولاده الأصليين، وقرابته الأقربين، محارماً لمن تبناه، وهو في الحقيقة أجنبي عنهم، يحل لهم منه ما يحل منهم لغيره، ويصبح الولد المتبني شريكاً لهم في الإرث، دون أن يكون له أدنى حق فيه، إلى غير ذلك من التعقيدات والمضاعفات التي تغير طابع الأسرة المسلمة، وتفسد نظامها من الأساس، وإذا كان الإسلام قد أقفل باب التبني ولم يأذن به، لما يترتب عليه من مفساد ومضار، فإنه فتح باب الإحسان في وجه من يريد الإحسان لأطفال المسلمين، ولو كانوا مجهولي الآباء، متى تعرض المجتمع الإسلامي لآفات اجتماعية، أو كوارث طبيعية، وذلك بتربيتهم وتعليمهم، والأخذ بيدهم في

المراحل الأولى من حياتهم، وبتخصيص الهبات والوصايا لصالحهم، عندما يبلغ أحدهم أشدّه، وبهذه الطريقة يتم ادماجهم في المجتمع الإسلامي بصورة مشروعة، فيها نفع لهم من جهة، وليس فيها ضرر على الأسرة المسلمة ولا اعتداء على حقوقها الشرعية من جهة أخرى، ويجب على من تورط في عملية التبنّي أن يُعرّف الولد المتبنّي في الوقت المناسب بأنه ليس ولداً له من الصُّلب، وإنما هو أخ في الدين، له حقّ العون والإحسان، لا حقوق الأولاد الأصليين، وليكن ذلك على وجه لا يشعره بخزي ولا عار، ولا سيما إذا كان في الأمر ما ينبغي ستره من الأسرار.

وكما يحرم على الغير نسبة الابن إلى غير أبيه، فإن انتساب الشخص من تلقاء نفسه إلى غير أبيه يكون حراماً من باب أولى وأخرى، جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ادَّعى إلى غير أبيه»، أي: انتسب، «وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾، أي: غفوراً للمتعمد إذا تاب، رحيماً بالمخطيء، حيث رفع عنه إثم الخطأ.

ثم تصدى كتاب الله لتحديد العلاقة القائمة بين عامة المسلمين ورسوله الصادق الأمين، وبينهم وبين أزواج الرسول من أمهات المومنين، والعلاقة القائمة بين الأقارب من أولى الأرحام بعضهم من بعض، فقال تعالى: ﴿إِنَّبِئْ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، ومعنى كون الرسول عليه السلام أولى بالمومنين من أنفسهم أنه أرف بكل واحد منهم، وأشفق عليه من نفسه

التي يَتَنَّ جنبه، إذ هو يدعو كل مومن إلى النجاة دائماً، بينما النفس الأمارة بالسوء تدعوه إلى الهلاك غَيْرَ ما مرة، ومثل هذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى في وصف رسوله الأعظم (٩: ١٢٨): ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى في وصفه أيضاً (٧: ١٥٧): ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وقد اتسع نطاق رأفته ﷺ بالمؤمنين ورحمته لهم، حتى أخذ يَسُدُّ دَيْنَ من مات منهم وعليه دين، طبقاً لقوله ﷺ، ونَصَّه كما رواه البخاري في كتاب الفرائض من صحيحه: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاقاً فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته».

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، أن أزواج النبي ﷺ أنزلن منزلة أمهات المؤمنين في وجوب البرور والتوقير والاحترام، وكذلك في منع الزواج بهن من بعده، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٣٣: ٣٥): ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُزْنُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾. أما بنات أزواجه وأخواتهن فالزواج بهن حلال بالإجماع، وإن كان بعض الأئمة يتساهل في التعبير، فيطلق على بنات أزواج النبي «أخوات المؤمنين».

ومعنى قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أن ذوي القربابات من أهل الفرائض أحق من غيرهم بالتوارث فيما بينهم، وبذلك يُمنع إشراك الولد المتبني مع

ولد الصُّلب في إرث أبيه أو أمه، لأنه لا رحم بينه وبينهما، وليس من أولادهما الشرعيين الأصليين.

وبمقتضى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾، وضع كتابُ الله حَدًّا للتوارث بمجرد الهجرة والمؤاخاة في الدين التي كانت قد حلت مؤقتاً محل القرابة، بين الأنصار والمهاجرين، فعاد الأمر إلى نصابه، وعادت الموارث إلى أهلها من ذوي القربات، الذين لهم حق في الميراث، سواء في ذلك أولو الأرحام من عموم المؤمنين أو خصوص المهاجرين، طبقاً لقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾، باب واسع فتحه كتابُ الله في وجه من يريد الإحسان إلى من له به علاقة خاصة، لكن لاحق له في الإرث، إما لكون درجة قرابته رغم إسلامه لا تعطيه صفة الوارث شرعاً، وإما لأنه على غير ملة الهالك، كالزوجة الكتابية التي لم تسلم، ففي هذه الحالة التي لا إرث فيها لا مانع من البر والإحسان، عن طريق الهبة أو «الوصية» التي جاء بها القرآن.

وليؤكد كتابُ الله من جديد وجوب قصر التوارث على أولي الأرحام بعضهم مع بعض، وإلغاء كل ما خالف ذلك مما سبق في الجاهلية أو وقع في صدر الإسلام، قال تعالى: ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾، بمعنى أن هذا الحكم هو الحكم الأسناسي الذي شرعه الإسلام، على وجه الاستمرار الدوام.

وَلِيُثَبِّتَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فُؤَادُ خَاتِمِ أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، حَتَّى يَقِفَ فِي وَجْهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيَتَحَمَّلَ كُلَّ عَنَاءٍ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَى الْعَالَمِينَ، ذَكَرَهُ كِتَابُ اللَّهِ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِ وَعَلَى كَافَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي هَذَا الصَّدَدِ، مُؤَكِّدًا أَنَّ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ «مِيثَاقُ غَلِيظٍ»، لَجَسَامَةِ أَمْرِهِ، وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ، مَخِيرًا بِأَنَّ الصَّادِقِينَ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، سَيُسْأَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ مَدَى تَصَدِيقِهِمْ لِذَلِكَ الْمِيثَاقِ، وَمَدَى تَنْفِيزِهِمْ لَهُ فِي دُنْيَاهُمْ، لِيُنَالُوا أَحْسَنَ الْجَزَاءِ فِي آخِرَاهُمْ، أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمِيثَاقِ الْأَنْبِيَاءِ فَسَيُنَالُونَ مَا يَنْاسِبُهُمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالْجَزَاءِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ ، وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ، لَسُئِلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، وَكَمَا يُسْأَلُ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ عَنْ هَذَا الْمِيثَاقِ يُسْأَلُ عَنْهُ الرُّسُلُ أَنْفُسَهُمْ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى (٥ : ١٠٩) : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ .

ويلاحظ في هذه الآية البدء بذكر خاتم الأنبياء قبل نوح : ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ ، ثم ذكر بقية أولي العزم من مشاهير الرسل - حسب تسلسلهم التاريخي قبل الرسالة المحمدية - لأنه هو وارثهم وممثلهم ، وخاتمهم الذي أرسله الله إلى الناس جميعاً ، بينما ورد ذكره بعد ذكر نوح في قوله تعالى : ﴿٤٢ : ١٣﴾ : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ الآية ، لأن المراد في هذه

الآية هو وصف دين الإسلام بالأصالة والقدم. قال جابر الله الزمخشري: «فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بُعث عليه نوح في العهد القديم، وبُعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبُعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير».

وكمثال بارز لحرص الرسول الأعظم والصادقين من أصحابه على تنفيذ ميثاق الله، الذي أخذ عليه وعلى بقية الأنبياء، مَهْمًا كلفهم من توضيحات، قَصَّ كتابُ الله قصة أحزاب الشرك والكفر التي تألَّبت عليه وعلى المسلمين، بتحريض من يهود بني النضير، وقررت الزحف على مدينة الرسول بعشرة آلاف مقاتل، علاوة على يهود بني قُرَيْظَةَ، للقضاء على الإسلام والمسلمين، فتصدى رسول الله ﷺ، والمؤمنون الصادقون معه، للوقوف في وجه زحف تلك الأحزاب، وأقاموا حول المنطقة المكشوفة من المدينة - بإشارة سلمان الفارسي - خندقاً كان الرسول عليه السلام على رأس من يقوم بحفره، وتفتيت صخره، ونقل ترابه، والغبار يتراكم على جسمه الشريف، وهو يرتجز برجز ابن رواحة، تشجيعاً لأصحابه بالقول والعمل والأسوة الحسنة، واستعدَّ الرسول والمؤمنون معه لمواجهة زحف الشرك والكفر، وإن كان عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف وعدد الأحزاب أكثر من عشرة آلاف، واستمر الحصار مضروباً على المدينة شهراً كاملاً، وباءت محاولات اقتحام الخندق كلها بالفشل، وخدَّل الله أحزاب الشرك والكفر، وسلَّط عليهم ريحاً قوية قلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الخيام،

وأطفأت النيران، وأكفأت القُدُور، وجال الخيل بعضها في بعض، وأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بمبارزة عمرو بن عبد ود العامري، من فرسان الجاهلية المشهورين، فلم يلبث أن سقط سريعاً بين يدي علي، وكان ذلك علامة النصر للإسلام والمسلمين، وارتحل أعداء الله ورسوله خائبين خاسرين، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْإَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

وكشف كتاب الله الستار عن موقف المنافقين وتربصهم الدوائر بالمسلمين، وانتحالهم الأعذار، واختلاق المبررات للتراجع والفرار، في انتظار النتيجة التي يتوقعون أن تكون على المسلمين لا لهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ، مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، أي: مكشوفة غير محصنة، ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، أي: لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها، ﴿ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ﴾، أي: الردة عن الإسلام، ومقاتلة المسلمين، ﴿لَأَتَوْهَا، وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾.

وفضحهم كتاب الله فضيحة أكبر وأشد، عندما وصمهم

بوصمة الخيانة العظمى، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.

وتعقياً على ما وصفهم به كتاب الله من التخاذل والتأمر أمر رسوله الأمين أن يُعرفهم بأنهم مهما حاولوا التراجع والفرار، وتولية الأدبار، فإنه لا مفرّ لهم من قضاء الله وَلَنْ يُفْلِتُوا مِنْ قَبْضَتِهِ، فقال تعالى في ختام هذا الربع مخاطباً رسوله الذي وفى بالعهد والميثاق، وَتَحَمَّلْ فِي سَبِيلِهِ التَضَحِيَّاتِ وَالْمَشَاقِ: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ، وَإِذَا لَا تُمَتُّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا، قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين
في المصحف الكريم

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ
وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمُ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ
أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَبَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسِبُونَ
الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوَاتِمَهُمْ بَادُونَ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَاقَتَلُوا
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ
 قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾ لِيَجْزِيَ
 اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ
 عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ
 اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكُتُبِ
 مِّنْ صِيَاصِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
 وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٦﴾ وَأَوْرَثَكُمُوهُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾
 يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا
 جَمِيلًا ﴿١٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ
 الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾
 يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ
 لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَاتُ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

يوصل كتاب الله في هذا الربع كشف الستار عن المنافقين الذين كانوا مندسين بين المسلمين، فبرز نفاقهم بشكل واضح، عندما زحفت أحزاب الشرك والكفر على مدينة الرسول، تريد القضاء عليه وعلى دينه والمؤمنين، فقال تعالى وهو يصف ما قاموا به من تعويق وتثبيط وراء الجبهة، ومن ثاقل عند الاضططر للالتحاق بها، وتكاسل عن العمل مع الآخرين فيها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ، وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

ثم وَصَفَ كتابُ الله حالَ المنافقين الجبناء عندما رأوا قوة

أحزاب الشرك والكفر، فتملّكهم الخوف من كل جانب، وحالهم بعد ما ولّت تلك الأحزاب الأدبار، لا يهمهم إلا النجاة بأنفسهم إن توقعوا للمسلمين الهزيمة، وإذا غلب المسلمون كانوا أكثر الناس شراً وطمعاً في الغنيمة، ولو أن دورهم في كلا الحالين قاصر على مجرد الدس والغيبة والنميمة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

ورغماً عن أن أحزاب الشرك والكفر التي تجمعت حول المدينة ألقى الله في قلوبها الرُّعب، واضطرت إلى الرحيل، فإن المنافقين ظلوا في شك من هذا الأمر، معتقدين أنها لا تزال تحاصر المدينة، فقرؤوا إلى بيوتهم، حرصاً على السلامة، وذلك قوله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾.

على أن أمنية المنافقين كانت هي أن يقع زحف الأحزاب على المدينة وهم متغيبون عنها في البادية بين الأعراب، حتى لا يتورطوا في نزال ولا قتال، ويكتفوا في هذه الحالة بمجرد السؤال: ما هي أنباء المعركة التي تدور بين المسلمين وأعدائهم؟ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ وإذا تظاهر أحد منهم بالاستعداد لخوض المعركة، رغبة في التجسس وحب الاستطلاع، لم يبذل إلا أقل التضحيات وأضعف الجهود، كمال قال تعالى في نفس

السياق: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، تأكيداً لقوله تعالى في وصفهم أوائل هذا الربع: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإذا كان كتابُ الله قد سجل على المنافقين خيانتهم لعهد الله، وتحفظهم المريب وتثاقلهم عن إداء الواجب، كلما دعاهم رسول الله، فهذا هو كتاب الله على العكس من ذلك ينوّه بجهود المؤمنين الصادقين، ومسارعيتهم إلى بذل الأنفس والأموال، وخوضهم المعارك دون تحفظ ولا تثاقل، كلما اضطروا إلى حمل السلاح والقتال، وفاءً بما عاهدوا الله عليه، ودفاعاً عن دين الحق الذي أكرمهم الله بالانتماء إليه، وعلى رأسهم جميعاً سيد الخلق «نبي المرحمة، ونبي المَلَحَمَة» رسول الله وخاتم النبيين، الذي هو قدوتهم وقدوة كافة المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وواضح أن رسول الله ﷺ كان خير قدوة لأصحابه من الأنصار والمهاجرين، وهو خير قدوة لكافة المؤمنين إلى يوم الدين، وقد ضرب المثل بنفسه للذين آمنوا معه، عندما دعاهم

إلى مقاومة أحزاب الشرك والكفر، ووافق على إقامة خندق للدفاع عن المدينة، وكان أول من شمر عن ساعده، وتناول آلة الحفر وآلة تفتيت الصخر بيده الكريمة، إلى جانب أصحابه الكرام، وهم يقومون بحفر الخندق، فكان حفره بقيادة رسول الله وبركته من أعظم المفاجآت، التي حالت بين تلك الأحزاب والاستيلاء على عاصمة الإسلام الأولى.

ولما كان الاتِّسَاء برسول الله والإقتداء به على الوجه الأكمل، مقاماً كبيراً في الدين، لأنَّ رسول الله ﷺ يمثل الإنسان الكامل بين العالمين، نَبَّهَ كتابُ الله على أن هذا المقام لا يبلغه إلا الأصفياء الأتقياء من أقوياء الإيمان واليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾، بعد قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وقول المؤمنين عندما رأوا تألب الآلاف المؤلفة من أحزاب الشرك والكفر عليهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، إشارة إلى قوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، مخاطباً للمؤمنين الأولين (٢١٢): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ إشارة إلى قوله تعالى في ختام تلك الآية: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، أي: من وفَّى

بما عاهد عليه الله، كمن كان عليه دَيْن وقضى دَيْنَهُ، واستُعْمِلَ «النَّحْبُ» هنا بمعنى النَّذْر الذي يلتزم به الشخص، أو العهد الذي يأخذه على نفسه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾، أي: من ينتظر الشهادة في سبيل الله وفاءً بالعهد، وانتظاراً للوعد، ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾، أي: ما بدلوا نذرهم ولا عهدهم، والله تعالى لا يُخْلِف وعدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، معناه أنهم إذا ماتوا على النفاق عذبوا وكانوا في الدَّرَك الأسفل من النار، وإذا تابوا من نفاقهم وآمنوا حق الإيمان تاب الله عليهم، وألحقوا بالمؤمنين الأبرار، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ثم تولى كتاب الله وصفَ النهاية الفاشلة التي انتهى إليها حلف أحزاب الشرك والكفر ضد الرسول والمؤمنين، ووصفَ النهاية الظافرة، التي تَوَجَّت جهود المقاومة الإسلامية، بِرَحِيل تلك الأحزاب، وعودتها من حيث أتت بِخُفْيٍ حُنَيْنٍ، وتقليم أظفار يهود بني قُرَيْظَةَ، الذين بادروا إلى نقض عهدهم مع المسلمين، والتحالف مع الأحزاب، بمجرد زحفها على المدينة، أَمَلًا في القضاء على الإسلام، والتخلص منه في الحين. فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾، أي: ردهم بأخسر صفقة، خائبين منهزمين، ممثلين غيظاً وحنقاً، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، أي: بما آتاهم من عون ظاهر وخفي، فقد وفقهم إلى مفاجأة المغيرين بما لم يكن في

الحِشْبَان، وذلك بحفر خندق يحمي المدينة أثناء حصارها من كل عدوان، كما سلط الله على أعدائهم ريحاً عاتية شتت شملهم، وقطعت حبلهم، وجعلتهم في حالة رُعب وفزع وعويل، لا يهتمهم معها إلا الانصراف والرجيل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أمد رسوله والمؤمنين بقوته، وأعز دينه الحق بعزته، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾، أي: مكن الله للمسلمين من يهود بني قُرَيْظَةَ، الذين تقع مساكنهم على بعد بضعة أميال من المدينة، فاستغلوا قربهم منها، وقلبوا للمسلمين ظَهَرَ الْمِجَنِّ، وتضامنوا مع أحزاب الشرك الزاجفة عليهم، ظناً منهم أن فرصة القضاء على الإسلام قد حلَّ أجلُّها، مع أنهم يُعَدُّون من «أهل الكتاب»، كما وصفهم الله في هذه الآية، لا من أهل الوثنية والشرك. والحليف الطبيعيُّ لهم، الذي كان المَنَظِقُ يقضي بتأييده ومُنَاصَرَتِهِ هو دين الحق، الذي جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتاب، لا دين الوثنية الباطل، الذي لا يؤمن بأيِّ كتاب، ولذلك ما كاد رسول الله ﷺ يعودُ من رباطه بالخندق، بعد جلاء الأحزاب عن المدينة، حتى أوجي إليه أن ينهض من فوره إلى حصار بني قُرَيْظَةَ في قراهم المحصنة، القرية من نفس المدينة، عقاباً لهم على جريمة الغدر، وتأديباً لهم على خيانة العهد والضرب من الخلف، فحاصروهم رسول الله والمؤمنون خمساً وعشرين ليلة، ولما طال عليهم الحصار، ولم يجدوا وسيلة للفرار، لم يسعهم إلا الخضوع والاستسلام، لجنود الإسلام، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تَنَزَّلُونَ

على حكمي» فَأَبَوْا، فقال: «على حكم سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ» فرضوا به، لأن سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ كان هو سيد الأوس، والأوس كانوا في الجاهلية حُلَفَاءَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ، فاستدعاه رسول الله ﷺ من المدينة، حيث كان نازلاً في قُبَّةٍ بالمسجد النبوي، يُعَالَجُ فيها من سهم أصابه أيام الخندق، فلما حضر ودنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله: «قوموا إلى سيديكم»، فقام إليه المسلمون وأنزلوه من مَطِئَتِهِ، إجلالاً واحتراماً له في مَحَلٍّ ولأبنته، ليكون ذلك أنفذ لحكمه، فلما جلس قال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إلى بني قُرَيْظَةَ ومعهم سيدهم كعب بن أسَدٍ الذي نقض العهد - قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت، فقال سعد: «وَحُكْمِي نافذ عليهم؟» فقال رسول الله: «نعم» ثم قال سعد: «وعلى من في هذه الخَيْمَةِ؟» قال رسول الله: «نعم» ثم قال سعد: «وعلى مَنْ هَا هُنَا» - وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ، وهو مُعْرِضٌ بوجهه عن رسول الله إجلالاً وإكراماً - فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فنطق سعد بن معاذ بحكمه بعد أن ارتضاه الجميع حَكْماً، والتزمت الأطراف المَعْنِيَّةُ كلها تنفيذ حكمه، وقال: «إني أحكم أن تُقَتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وتُسَبَى ذَرِيَّتُهُمْ وأموالُهُمْ»، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أَرْقَعَةٍ»، أي: من فوق سبع سماوات. وكان مُقَاتِلَتُهُمْ ما بين سبعمائة إلى الثمانمائة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا في نفس السياق بغاية الإيجاز والإعجاز: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَّوُّهَا﴾، لأنها كانت خاصة بهم،

ومحرماً دخولها على غيرهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، يعفو عمن يستحق العفو والإكرام، وينتقم ممن لا ينفع فيه إلا الانتقام.

وكما تحدث كتاب الله في الربع الماضي عن حالة «الظَّهَار» وحالة «التَّيْنِ» وعلاقة أولي الأرحام بعضهم مع بعض، وعلاقة المؤمنين بالرسول الأعظم وبأزواجه أمهات المؤمنين، فبين حكم الله فيما وصفه من تلك الحالات، وحدد نوع العلاقات الشرعية في تلك المجالات، ها هو يعود مرة أخرى إلى الحديث عن بعض الموضوعات التي لها نوع ارتباط واتصال بما سبق، وفي طليعتها وضع الأسرة النبوية، من الناحية المادية والناحية الأدبية.

وحيث أن للإنسان حالتين: حالة هو فيها تسمى «الدنيا»، وحالة لا بد أن يصير إليها وهي «الأخرى»، والإنسان فيما بينهما إما أن يَحْصِرَ مطالبه وَيُرَكِّزَ اهتمامه على الحالة الأولى، أو يَحْصِرَ مطالبه وَيُرَكِّزَ اهتمامه على الحالة الثانية، أو يهتم بالحالتين معاً وبما يلزمهما من مطالب مشتركة، فقد أمر الله رسوله أَنْ يُجْري استفتاءً بين أزواجه، ويطلب منهن التعبير بصراحة عن رغبتهن الدفينة: هل يُرَدْنَ الحياة الدنيا وزينتها، ولا يجدن الراحة وهُدوء البال، في عيشة الإقلال وضيق الحال، التي اختارها رسول الله ﷺ لنفسه وأهله، أم يُرَدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة، فيقنعن من متاع الدنيا بالقليل، ويكتفين بالمكانة الدينية والأدبية التي ينفردن بها عن نساء العالم، إذ ليس لها بينهن مثل، وذلك

ما يتضمنه قوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.

وهكذا أصبح أزواج رسول الله ﷺ أمام اختيار حاسم، فمن اختارت منهن الحياة الدنيا وزينتها واعتبرت الجانب المادي أهم من الجانب الروحي كان لها الحق في السراح الجميل والمتاع بالمعروف، ونتيجة ذلك مفارقة بيت الرسول والخروج من عصمته، ومن اختارت الله ورسوله، وقدرت حُظوة الانتماء إلى بيت الرسول، والاندماج في أهله حقَّ قَدْرَها، دون أن تعير اهتماماً كبيراً للجانب المادي العابر، بقيت في بيت الرسول، فحافظت على مالها من مقام كريم، وفازت من الله - جزاء إحسانها - بالأجر العظيم.

والمراد (بالسراح الجميل) في هذه الآية مفارقة الزوج لزوجته دون أن يلحق بها أي ضرر، لا من الناحية الأدبية، بالإساءة إلى عرضها أو ذكر عيوبها، ولا من الناحية المادية، بمفارقتها في غير الوقت المشروع للفراق، أو بتضييع حق من حقوقها. ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة البقرة في آية سابقة (٢٢٩): ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾، وقوله تعالى في آية لاحقة من هذه السورة (٤٩): ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾.

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾، أي: أُمْنَحْكُنَّ عند

الفراق عطاءً مناسباً، من باب المواساة والتسلية، والعون على اجتياز مرحلة الفراق الصعبة، في انتظار استئناف حياة زوجية جديدة، وسبق في سورة البقرة (٢٣٦) قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسْوَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعَاءً بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله تعالى في آية أخرى (٢٤١): ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، أما نتيجة استفتاء الرسول لأزواجه حول نَمَط العيش الذي يرغبن فيه، ويحرصن عليه، فقد كانت هي موافقة الواحدة تلو الأخرى، عن رضي واقتناع، على البقاء في عصمته، والتمسك بعدم مفارقتها، والاكتفاء بما قَسَمَ الله له في معيشته، تَعَلُّقاً بمحبته وطاعته.

وإشعاراً لأزواج الرسول عليه السلام، بالمكانة الخاصة التي يتمتعن بها، والمسئولية التي تقع على عاتقهن بسبب وجودهن في بيت الرسول، وكونهن من أهله، وموضع الاقتداء لأمته أخبرهن كتاب الله من باب التنبيه والتحذير: أنه كلما عظمت الحُرُمات، تضاعفت عند هتكها العقوبات، وكلما ازداد الفعل قُبْحاً ازداد عقابه شدة، وذلك قوله تعالى وهو يخاطبهن في نهاية هذا الريع: ﴿يٰۤاَيُّهَا النِّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين
في المصحف الكريم

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٦﴾ يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ
لَسَنُنَّكَ أَهْلًا مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٧﴾
وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٨﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٩﴾
إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِئِينَ
وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ

وَالصَّائِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخُشَّعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُنْصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾
وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا
أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي
نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ○
فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ
وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ
مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝
تَجِيئَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ۝

الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً، نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَدَعْ أَذْيَهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

وَأَصَلَ كتاب الله في الآيات الأولى من هذا الربع خطابه لأزواج الرسول عليه السلام، مبيناً أولاً أن صيانة الحُرُمات توجب مضاعفة الثواب، كما أن هتك الحُرُمات يوجب مضاعفة العقاب، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى مخاطباً لنساء النبي: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ و«القنوت» الطاعة، و«الرزق الكريم» هو ما أعده الله لهن في دار النعيم، وإنما ضوعف أجرهن لطلبهن رضا الله بالطاعة والعمل الصالح، وطلبهن رضا الرسول بحسن

الخلق، وطيب المعاشرة، والقناعة بما هُنَّ عليه من العيش دون إلحاح ولا إزعاج.

ثم قال تعالى وهو يخاطب أزواج النبي: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾، مؤكداً بذلك شرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وعظيم مسؤوليتهن، منبهاً إلى أن «تَقْوَى الله» هو الأساس الذي تبني عليه كل المزايا والفضائل، وأن من لم يتق الله لا يستحق إلا أسفل الدرجات وأحط المنازل.

وإمعاناً في تهذيب أزواج الرسول عليه السلام، وتمكينهن من تسنم أعلى المقامات في التربية والسلوك، حتى يَكُنَّ خير قدوة للمؤمنين والمؤمنات، لقنهن كتاب الله جملة من الآداب النافعة، والوصايا الجامعة، التي تخلع عليهن مزيداً من الجلال والوقار، وتجعلهن في مَنَآى عَن كل الشبهات والأوزار. والخطاب وإن كان موجهاً إليهن بالأصالة فهو موجه بالتَّبَع إلى جميع نساء المسلمين.

الوصية الأولى: أن يكون كلامهن جزلاً، وقولهن فصلاً، دون ترقيق مصطنع، قد يبعث الغريب على الطمع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، أي: في قلبه ريبة، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي: قولاً حسناً، لا لِيناً ولا خسناً.

الوصية الثانية: أن يصرفن عنايتهن الخاصة واهتمامهن الزائد إلى تدبير بيوتهن، إذ لا تتحقق سعادة البيت والأسرة على

الوجه الأكمل إلا بالاستقرار، والتعاون والوقار، وعدم التعرض لمخالطة الأشرار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

الوصية الثالثة: أن يترفعن، عند الحاجة للخروج من البيت، عن التلبس بمظاهر الجاهلية الجاهلاء، ويتعدن كل الابتعاد عن «التبرج» الذي هو أخطر وسيلة للإغواء والإغواء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، أي: لا تحدثن في الإسلام جاهلية أخرى، على غرار الجاهلية الأولى قبل الإسلام، فإنها محرمة من باب أولى وأحرى، وسبق قوله تعالى في سورة النور (٦٠): ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: «يا معشر النساء: قصتن قصه امرأة واحدة، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً».

الوصية الرابعة: أن يُقمن الصلاة التي هي عماد الدين، والحق الأول من حقوق الله، ويوتين الزكاة التي هي عماد التكافل بين المؤمنين، والحق الأول من حقوق عباد الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ﴾.

الوصية الخامسة: أن يُطعن الله ورسوله طاعة عامة مصحوبة بالرضى والتسليم، طبقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

وبعدما انتهى كتاب الله من عرض الآداب والوصايا التي وجه الخطاب بها إلى أزواج الرسول وأمهات المؤمنين بين الحكمة

الإلهية من وراء ذلك، ألا وهي أن المستوى الأخلاقي العالي الذي يريده لأزواج الرسول عليه السلام، وأهل بيته الكرام، في سلوكهم الخاص والعام، إنما يطالبهم به لتظل منزلتهم الخاصة في القلوب بمنأى عن كل نقد أو تجريح، لا بطريق التصريح ولا بطريق التلويح، فبتساميهم في السلوك والتزامه عادة وديناً، لا يجد من في قلبه مرض مغمزاً ولا مطعنأً، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾، وإنما قال: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ... وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾، نظراً لاشتغال بيت النبوة على رسول الله ﷺ وعليّ والحسن والحسين، بالإضافة إلى أزواج الرسول وبنته، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِبَ المذكر.

وبنه جار الله الزمخشري إلى أن كتاب الله استعار كلمة (الرجس) للذنوب، وكلمة (الطهر) للتقوى، لأن عرض المقترف للسيئات والقبائح يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس والخبائث، بينما عرض الذي يمارس الحسنات ويتشبت بالمحاسن يظلّ نقياً مصوناً، كنعاء الثوب الطاهر النظيف.

وليؤكد كتاب الله نفس التوجيهات السامية، ويعمق معناها ومغزاها في قلوب أمهات المؤمنين وعقولهن وَجَّهَ إليهن أمراً جديداً بأن يتذكرن على الدوام ما يتلقاه الرسول عليه السلام من الوحي، فيتلوه عليهن غَضّاً طرياً، ويستمعن إليه بكرة وَعَشِيّاً، وبقدر الأسبقية والأولوية في المزية، تتضاعف المسؤولية، وذلك

ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

والأمر بذكر ما يتلى في بيوتهن يصدق بامتنان الله عليهن بهذه النعمة ووجوب شكره عليها، إذ أكرمهن فجعلن أزواجاً لرسول كريم يتلقى الوحي من ربه، ويصدق بوجوب تدبره والتفكير فيه والعمل به، ويصدق بوجوب حفظه وقراءته وتبليغه إلى الناس، كما يصدق بهذه المعاني جميعاً، إذ لا تناقض بينها ولا تعارض، بل يكمل بعضها بعضاً.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد «بآيات الله» هنا آيات القرآن، و«بالحكمة» سنة الرسول التي هي بيان وتطبيق للقرآن، وذهب جابر الله الزمخشري عند تفسير هذه الآية إلى أن ﴿آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ شيء واحد، حيث إن كتاب الله كتاب جامع بين أمرين، فهو «آيات بينات» تدل على صدق النبوة، لأنه معجز بنظمه، وهو «حكمة» وعلوم وشرائع، وأحسن القاضي أبو بكر (ابن العربي) وأجاد وأفاد، عند ما قال: «آيات الله حكمته، وسنة رسوله حكمته، والحلال والحرام حكمته، والشرع كله حكمة».

ويؤخذ من قوله تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أن لطف الله بنساء النبي، وعلمه بما في قلوبهن من خير، هو الذي أهلهن لنيل هذه المنقبة، حتى حزن بين نساء العالمين أعلى مرتبة.

ومن الحديث عن أزواج الرسول عليه السلام وأهل بيته، الذي استغرق سبع آيات: ثلاث آيات في نهاية الربع الماضي وأربع آيات في هذا الربع، ابتداء من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن أعضاء المجتمع الإسلامي عموماً، رجالاً ونساءً، وحدد الصفات البارزة التي يجب أن يتميز بها أعضاء هذا المجتمع المثالي المهدب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَلَتِينَ وَالْقَلَتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ، وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. وطبقاً لهذه الآية الكريمة يكون على كل عضو من أعضاء المجتمع الإسلامي أن يستوفى عشر صفات:

الصفة الأولى: صفة الإسلام، وهذه الصفة تقتضي الانقياد التام للتوجيه الإلهي، والعيش في ظله وتحت رعايته، في سلام وانسجام.

الصفة الثانية: صفة الإيمان، وهذه الصفة تقتضي التصديق بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وبكل ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين عن رب العالمين، تصديقاً جازماً عن علم ويقين.

الصفة الثالثة: صفة القنوت، وهذه الصفة تقتضي القيام

بالطاعة في حالة اطمئنان وسكون، والمداومة عليها إلى جانب غيرها من الشؤون.

الصفة الرابعة: صفة الصدق، وهذه الصفة تقتضي التحري في قول الحق، والإخلاص في النية والعمل، والوفاء بالعهود والعقود، وعدم تعدي الحدود.

الصفة الخامسة: صفة الصبر، وهي تقتضي الصبر عن المعاصي والخصال الذميمة، وذلك بالابتعاد عنها وعدم تناولها، والصبر على الطاعات والخصال الحميدة، وذلك بالتمسك بها وعدم إهمالها، والصبر عند مفاجآت الأقدار، وذلك بعدم السخط من أجلها، وعدم الاعتراض على الله فيها.

الصفة السادسة: صفة الخشوع، وهذه الصفة تقتضي انكساراً في النفس، وسكينة في القلب، وسكوناً في الجوارح.

الصفة السابعة: صفة التصديق، وهذه الصفة تقتضي الإحسان إلى القادر على الكسب، متى كان في وقت معين لا كسب له، والإحسان إلى العاجز عن الكسب، ما دام لا كاسب له، وتشمل الصدقة بالفرض والنفل، وتتسع أحياناً فتشمل الصدقة بالنفس، علاوة على الصدقة بالمال.

الصفة الثامنة: صفة الصيام، وهذه الصفة تتحقق بصيام الفرض كرمضان، وصيام النفل كصيام عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، وتتسع أحياناً فتشمل الإمساك عن كل ما هو مردول شرعاً من الأقوال والأفعال.

الصفة التاسعة: صفة العفة في العلاقات الجنسية، وهذه الصفة تقتضي التحرز من الوقوع في المآثم والمحارم التي تشوه هذه العلاقات، مما لا يقبله الشرع الحكيم، ولا يرضى عنه العقل السليم، وتستلزم الإقتصار على ما هو موافق للشرع، وملائم للطبع.

الصفة العاشرة: صفة الذُّكر، وهذه الصفة لا تقتصرُ على ذكر الله باللسان، بل تقتضي ذكره وحضوره في الذهن والقلب والخواطر باستمرار، وبذلك تكون مراقبة العبد لربه في تصرفاته متصلة دون انقطاع، لا في الليل ولا في النهار. ومن ذكر الله قراءة القرآن، والاشتغال بالعلم النافع لبني الإنسان.

فمن استوفى مجموع هذه الصفات، التي يعود نفعها على الغير كما يعود نفعها على الذات، كان أهلاً لأن ينال مغفرة الله وثوابه، وأمن في الآخرة عذابه، ومن استوفى بعضها دون بعض كان له من الثواب بقدر ما استوفاه، وآخذه الله بما أهمله واتبع فيه هواه.

ويلاحظ أن كتاب الله عندما عرض هذه الصفات لم يذكر في الثمانية الأول متعلق أي صفة، بينما ذكر المتعلق في الصفتين الأخيرتين، إذ قال تعالى: ﴿وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ، وَالسَّادِّكِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾، وفي ذكر متعلق ﴿وَالْحَفِظِينَ﴾، تنبيه إلى أخطار الشهوة الغالبة، ومكانها الذي يجب الحرص على صونه وحفظه من طَرَف الرجال والنساء، تجنباً للوقوع في الحرام، وبعداً عن العدوان والاعتداء، وفي ذكر متعلق

﴿وَالذَّاكِرِينَ﴾، تنبيه إلى أن الذكر ينبغي أن يكون بالاسم الأعظم وهو «الله» إذ هو الاسم العَلَمُ المحتوي على جميع صفات الحق سبحانه وتعالى، فمن ذكره بهذا الاسم كان كمن ذكره بجميع صفات الكمال، واستحضر في ذكره صفات الجلال وصفات الجمال.

وقوله تعالى: ﴿أَعِدُّوا لِلَّهِ لَهُمْ﴾، عاد الضمير فيه على المسلمين والمسلمات، وما عطف عليهما، طبقاً للتغليب المتَّبَع في الأسلوب العربي عند اجتماع الذكور والإناث.

وعقَّبَ كتابُ الله على ما شرعه الإسلام في هذه السورة من التشريعات والأحكام، للقضاء على مخلفات الجاهلية، التي كانت بعض رواسيها لا تزال سارية، فقرَّر قاعدة عامة يجب أن يلتزمها كل مؤمن ومؤمنة، ألا وهي أنه إذا حَكَمَ اللهُ ورسوله في شيء من الأشياء، خاص أو عام، بحكم من الأحكام، فلا تسوغ معارضته ولا الوقوف في وجهه بأيِّ حال، وإنما يلزم قبوله وتنفيذه بِمُتَّهَى التسليم والإمْتثال، سواء كان الحكم لصالح المحكوم له، أو كان عليه، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٤: ٦٤): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ثم بيَّن كتاب الله أن من يعترض على حكم الله ورسوله ويتعزَّض له إنما يسلك مسالك الضلال؛ فقال تعالى هنا في نفس السياق: ﴿وَمَنْ يَعْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَّالًا مُبِينًا ﴿٦٣﴾، كما تواعد في آية أخرى من يخالف أمر الله ورسوله بالفتنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، فقال تعالى (٢٤: ٦٣): ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبمقتضى ما خولته هذه القاعدة القرآنية لرسول الله ﷺ في مجال التشريع والحكم، ورغبة منه في إهدار الفوارق الاجتماعية في الزواج، التي كانت متعارفة في الجاهلية، أعلن لأمة أن مجرد الاشتراك في العقيدة والدين، شرط كاف في «الكفاءة» بين الزوجين، وأنه من الخير للإسلام والمسلمين أن يُفْتَحَ بابُ الزواج والمصاهرة بين من هم متفاوتون اجتماعياً إذا كانوا متساوين دينياً، وبديهي أن قريشاً كانت مدعوة في الطليعة لأن تطبق هذا المبدأ الإسلامي، ففتتح باب الزواج بينها وبين «الموالي» على مصراعيه، وها هو رسول الله ﷺ يتقدم بنفسه ليضرب المثل لغيره، فيرسل إلى زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته أُمَيَّمة بنت عبد المطلب، يخطبها لمولاه زيد بن حارثة، الذي عاش في كفالة الرسول وخدمته، منذ وهبته له زوجته خديجة، عند زواجه بها قبل النبوة، فأعتقه وتبناه، وقد كان ابنُ أخ زوجته خديجة، حكيم بن حزام بن خُوَيْلِد هو الذي وهبه لها، حيث آل إليه بالشراء من سَبْي من الشام سَبَتْهُ خَيْل من تهامة، وعندما علمت زينب بنتُ عمه الرسول أنه لم يخطبها لنفسه وإنما خطبها لمولاه زيد بن حارثة استنكفت من زَيْد وقالت: أنا خير منه حَسَباً، اعتباراً لنسبها في صميم قريش، الذي يُعَدُّ عند العرب نسباً رفيعاً، بَيْنَمَا

نسب زيد لا يزال يُعدُّ في نظرهم نسباً وضيعاً، إذ هذه أول سابقة من نوعها أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يفتح بها الباب، ليزيل ما كان بين العرب ومواليهم من الفوارق والحجاب، لكن بعدما استمعت بنت عمته إلى كتاب الله وهو يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، لم يسعها إلا النزول على أمر الرسول، والرضى بزيد بن حارثة زوجاً لها والقبول، فدخل بها ومكثت عنده ما يقرب من سنة أو يزيد قليلاً، غير أن العشرة بينهما لم تكن مريحة ولا مطمئنة، فللاعتبارات الاجتماعية التي توارثها العرب لا تزال رواسبها حية في النفوس، ومن الصعب أن تمحي بسرعة وسهولة، ولا سيما في هذه المرحلة الأولى، ولذلك ما لبث زيد بن حارثة أن أخذ يحس بالهوة التي تفرق بينه وبين زوجته زينب، وابتدأ يتردد على رسول الله، شاكياً إليه بنت عمته التي زوّجها بها، وكان يشكو منها على الخصوص غلظة قول، وعصيان أمر، وتعظماً بالحسب والنسب، ويُعربُ في كل مناسبة عن نفرتة منها، ورغبته في فراقها، فتأكد لدى الرسول عليه السلام أن العشرة بينهما لن تأخذ طريقها السوي، وأن زواجهما لا بد آثل إلى الفراق، لكنه بالرغم من ذلك لم يزل يوصي زيداً بإمساكها، حيث أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (٢: ٢١٦)، ولم يغب عن علمه ﷺ ما سوف تتعرض له بنت عمته من الضياع إذا لم يُقبل على الزواج بها من يماثلها أو يقاربها حسباً ونسباً بعد فراق زيد لها، لا سيما والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي خطبها وأشرف على زواجه بها، ولولا

تدخله المباشر لما قبلت الزواج بزید مولاه، وبالرغم من هذه الخواطر التي كانت تشغل بال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينه وبين نفسه، والعواقب التي كان يتوقعها من فراق زید لبنت عمته ومصيرها بعد فراقه، لم يشأ أن يئُت في هذه المشكلة بمجرد الاستنتاج والاجتهاد، وكان عليه أن ينتظر، حتى ينزل في شأنها وحي إلهي صريح، فقد كان يخشى على الناس أن يقعوا في الفتنة من جرّاء قصة زید التي لها طابع خاص من جهة، لما احتفّ بها من الظروف والملابسات، وطابع عام من جهة أخرى، لأنها أول سابقة من نوعها في حياة العرب ينطبق عليها حكم الإسلام الصارم، بعد ما ألفوا «التبني» ورتبوا عليه آثاره الباطلة قروناً طوالاً، لا سيما والمرجعون من المنافقين مُنْذُسُون بين أظهرهم، يتحينون الفرص للذُّس والإرجاف وبث البلبلة، فجاء كتاب الله بحل هذه المشكلة النفسية والاجتماعية، معلناً بالنسبة لزید وزینب إذنه لرسول الله بالزواج من بنت عمته، بعد ما أصرّ على فراقها زید مولاه، وفارقها من تلقاء نفسه، وبذلك يتحدّد مصير بنت عمته، فلا تبقى أيماً دون زوج، ولا تذوق ألم الإهمال والغربة، مع ما يتبعهما من غم وكربة، ويكافؤها الله على طاعتها لرسوله بقبول الزواج من مولاه - لفتح الباب في وجه المصاهرة بين العرب والموالي - في البداية، فتصبح من بين أزواجه أمهات المؤمنين في النهاية: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾، ومعلناً في نفس الوقت أن النهاية التي آلت إليها قصة زید إنما هي نموذج خاص للحكم العام الشامل، الذي تندرج تحته كل مشكلة من هذا النوع، بالنسبة للسلف والخلف: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونُ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴿٢٣﴾.

وهذا الحل الذي نطق به كتاب الله في الآية السابعة والثلاثين من هذه السورة هو النتيجة المنطقية المستخلصة من قوله تعالى في الآية الرابعة منها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، إذ بمقتضى هذه الآية أصبح الابن الذي ليس بابن الصلب - وهو الذي وصفه كتاب الله بوصف (الدَّعِيِّ) والجمع (أدعياء) - شخصاً أجنبياً عن متبنيه السابق، وأصبح هذا المتبني - الذي كان يُدعى (أباً) بالرغم من أنه ليس باب - مسموحاً له بالزواج من امرأة الابن الدعي، متى فارقتها وأنهت عدتها، لأنها بالنسبة إليه زوجة أجنبي عنه، وليست زوجة ابنه الحقيقي، والمحرم على الآباء هو الزواج بزوجات أبنائهم الحقيقيين من الصلب، لا زوجات أدعيائهم الذين وقع تبنيهم وليسوا من أبنائهم الأصليين، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق من سورة النساء (٢٣): ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ويلحق بهم الأبناء من الرضاع، إذ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

وعن هذه النازلة الفريدة المليئة بالعبر تحدث كتاب الله مخاطباً رسوله الصادق الأمين الذي لا يكتم وحي ربه ولا يمين، مبيناً ما تضمنته من حكم وأحكام، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى النَّاسَ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا، لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَىٰ

الْمُؤْمِنِينَ حَرَجَ فِي أَرْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا، وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا، مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ،
سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا،
الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ،
وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا، مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ، وَلَكِن
رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٠﴾.

والمراد «بالذي أنعم الله عليه وأنعم عليه رسوله» هو زيد بن
حارثة، فقد أنعم الله عليه بالسبق إلى الإيمان، وخصه من بين
الصحابة بذكر اسمه الصريح في القرآن، وأكرمه بالشهادة في
سبيل الله والفوز بنعيم الرضوان، وقد أنعم عليه الرسول عليه
الصلاة والسلام بالعنق والحرية، والكفالة والتربية، ويتزوجه بنت
عمته القرشية، وتنصيبه أميراً على المجاهدين في جميع السرايا
التي بعثه فيها، وآخرها غزوة مؤتة من أرض الشام سنة ثمان من
الهجرة.

ثم وجه كتاب الله الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعياً إياهم
إلى الإكثار من ذكر الله وتسييحه بقدر المستطاع، باللسان
والجنان، وعدم الغفلة عن نعمه المتوالية على بني الإنسان، مبشراً
للمؤمنين بصلاة الله عليهم، ودعاء الملائكة لهم بتلقي المزيد من
الهداية والرحمة والإحسان، مع وعدهم بالنعيم المقيم، والأجر
الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا،
نَجَّيْتَهُمْ يَوْمَ يَقُونَهُ سَلَمٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿١١﴾.



وُخِّتَ هذا الربع بخطاب إلهي رقيق، موجه إلى الرسول الأعظم، يُبرز مبلغ منة الله عليه، ومبلغ المنّة العامة التي أسداها بإرساله إلى البشرية جمعاء، ومبلغ المنّة الخاصة التي خصّ بها المؤمنين من أمته، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾، وكما قال تعالى في الآية الأولى من فاتحة هذه السورة مخاطباً لرسوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، ها هو كتاب الله يجدد نفس الخطاب، ويؤكد نفس المعنى في الآية الثامنة والأربعين من نفس السورة، وذلك في ختام هذا الربع إذ يقول: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، ونظراً لما تعرض له الرسول والمؤمنون من أذى الكافرين والمنافقين في مختلف المواقف والمناسبات، مما وصفه لنا كتاب الله تصريحاً أو تلويحاً، فيما سبق بهذه السورة من الآيات، جاء في نفس السياق الأمر بالصبر على أذاهم، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، إذ قال تعالى: ﴿وَدَعِ أَذْيَهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا
فَتَتَّبِعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي سَاءَ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ
يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا
مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾
تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْتَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ

وَلَا يَحْزَنَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
 فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِّسَاءُ
 مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَجَبَكَ حُسْنُهُنَّ
 إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾
 يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ
 لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ بْنِ إِبْنِهِ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا
 فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
 كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي
 مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ
 حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
 أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ
 أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تُبْدُوا
 شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾
 لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءَ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ
 وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِهِنَّ
 وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدًا ⑤٥ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ⑤٦ إِنَّ
 الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ⑤٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ⑤٨
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
 يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا
 يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ⑤٩

الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِينَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

تحدث كتاب الله في الآية الأولى من هذا الربع عن إحدى الحالات التي تتعرض لها الحياة الزوجية، وهي حالة من أمضى عقد النكاح، لكن قبل الدخول بمن عقد عليها دعاه داع ملح إلى فراقها، ففي هذه الحالة لا تجب عليها عدة، وتستطيع استئناف الزواج بمجرد الفراق، بينما يجب على مطلقها أن يؤدي لها في الحين نصف الصداق المسمى في العقد، وإذا لم يكن الصداق «مُسَمًّى»، لأن النكاح «نكاح تفويض»، ووقع الطلاق قبل التراضي على الصداق كان لها الحق في «المُتعة» وحدها، وهي ما يقدمه الزوج للزوجة عند طلاقها، لمساعدتها مادياً على تَحْطِي

مرحلة الطلاق، في انتظار المرحلة القادمة من الزواج، وهذه المتعة شبه التعويض بلغة العصر، وليُفارقها على وجه جميل، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ، ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

ويلاحظ في هذه الآية وصف الزوجات المعقود عليهن بوصف ﴿المُؤْمِنَاتِ﴾، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، إرشاداً من الله لعباده إلى أن أفضل زواج ينبغي أن يختاره المؤمن لنفسه هو الزواج بمؤمنة مثله تدين بدينه، وتشعر بشعوره، وتكون لها نفس النظرة إلى الحياة التي يحياها، ونفس الاحترام للمقدسات التي يقدسها، والقيم التي يحافظ عليها، فينشأ أولاده في بيئة مؤمنة يسودها الانسجام والوئام، نفسياً وروحياً واجتماعياً، أما الزواج (بالكتابيات) فلم يندب إليه الإسلام أصالة، وإنما أباحه بصفة استثنائية، لتحقيق بعض الأغراض الشرعية، بحيث متى أصبح ذلك الزواج عاجزاً عن تحقيقها كان البعد عنه أوجب وأولى، لما له من عواقب سيئة محققة، على الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامي.

كما يلاحظ في هذه الآية إطلاق «النكاح» على العقد وحده، قال ابن كثير: «وليس في القرآن آية أصرح في ذلك من هذه الآية».

ويشهد لما ذكرناه من وجوب أداء نصف الصداق «المسمى» إلى الزوجة المطلقة قبل الدخول قوله تعالى فيما سبق من سورة

البقرة (٢٣٧): ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

أما «المُتَعَّة» بالنسبة لمن كان نكاحها نكاح «تفويض» لأنه لم يُسمَّ صداقها قبل الطلاق، فيراعى في قدرها حال الزوج المفارق، مصداقاً لقوله تعالى في نفس السورة (٢: ٣٦): ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً، وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتِرِ قَدَرُهُ، مَتَّعَاءً بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأما الزوجة التي تم العقد عليها ثم مات عنها زوجها قبل الدخول، فلا بد لها من أن تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وهي في ذلك سواء مع الزوجة التي مات عنها زوجها بعد الدخول، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

والحكمة في ذلك بالنسبة لمن مات عنها زوجها قبل الدخول إشعار الزوجة المتوفى عنها زوجها بأن اختياره لها، وتعلق قلبه بها، وحرصه على تكوين أسرة معها، ومفاجأته بالموت قبل تحقيق أمنيته، كل ذلك يستحق من جانبها تقدير فقهه واحترام ذكراه، وعدم التسرع في الزواج بغيره في الحين، فالزواج تحيط به اعتبارات إنسانية وأخلاقية متعددة، وليس عقدًا ماديًا صرفاً.

وخصص كتاب الله الآية الثانية من هذا الربع للحديث عما

أحل الله لرسوله من الزواج، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِيءَ عَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾، وأطلق لفظ «الأجور» هنا على نفس «المهور» تجوزاً وتوسعاً، وإن كان الصداق والمهر ليس بأجرة، وعقد الزواج ليس عقد إجارة، وإنما قال تعالى: ﴿الَّتِيءَ عَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾، إشارة إلى أن سوق المهر إلى الزوجة عند العقد عليها والدخول بها أفضل من تسميته وتأجيله، فاختار الله لرسوله الأفضل والأولى، قال جار الله الزمخشري: «وكان التعجيل - أي: بالمهر - ديدن السلف وستهم، وما يعرف بينهم غيره».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾، أي: مما حل لك من الغنائم، ﴿وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ، وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، أي: اللاتي دخلن في الإسلام وهاجرن معك إلى المدينة، ﴿وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، أي: عرضت نفسها للزواج به دون مهر، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾، أي: إن أراد الزواج بها، وقد كانت إباحة الزواج على هذه الصفة من خصائص الرسول وحده، إذ لا يصح زواج أحد من أمته إلا بمهر، وليبيان الصفة الاستثنائية لهذه الحالة من الزواج قال تعالى هنا في نفس السياق: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إذ الرسول وأمته سواء في الأحكام، إلا فيما خصه الدليل، لكن الرسول عليه السلام بالرغم من إباحة الزواج بالهبة له خاصة لم يتزوج إلا بمهر، لأن اختيار هذا النوع من الزواج علقت الآية الكريمة على رغبته وإرادته: ﴿إِنْ أَرَادَ

النَّبِيِّ أَنْ يَسْتَنِكَحَهَا»، فلم يكن إذن مُلْزَمًا بقبول الهبة، وقد روى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: «لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة».

وبادر كتاب الله إلى التنبيه في هذا السياق على أن تخصيص الرسول ببعض الأحكام يقتضي قصرها عليه، وعدم السماح بتطبيقها على كافة المؤمنين، فلا بد أن يقفوا عندما حد لهم الشارع من شروط وقيود، سبق علم الله بها، وقضاؤه بحكمها، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في جملة اعتراضية: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾، أي: على المؤمنين، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، وعقَّب كتاب الله على ما خص به نبيه فقال: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ثم عاد سياق الآيات إلى موضوع أزواج الرسول، فتحدث كتاب الله إلى نبيه عن طريقة معاملته لأزواجه في نطاق الحياة اليومية، والعشرة الزوجية المثالية، وفوض له في ذلك، انطلاقاً مما وصفه الله به من «الخلق العظيم» وأنه «بالمؤمنين رؤوف رحيم»، فقال تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فلكل واحدة منهن حق معلوم في رعاية الرسول ومودته، وحظ مقسوم في التمتع بحسن عشرته، ولذلك قال تعالى مؤكداً هذا المعنى الإنساني الرفيع، وكاشفاً عما فيه من سر بديع: ﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تَقْرَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ، وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، فالله تعالى

يريد لأمهات المؤمنين أن يكنَّ قريرات الأعين في بيت الرسول، وأن يعشنَّ عيشة راضية في جو عائلي مقبول، وما دام الرسول عليه السلام هو خير أسوة لكافة المؤمنين، فمن واجبهم أن يمتعوا أزواجهم بما متع به رسول الله أزواجه أمهات المؤمنين: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

ومبالغة في إكرام الله لأزواج رسوله، إذ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولم يرضين بفراق رسوله من أجل متاع الدنيا وزينتها، خاطبه الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يحل له، من بعد ذلك الاختيار، إلا مقابله من جانبه باختيار مثله، بحيث لا يزيد عليهن، ولا يبدلهن بغيرهن، ما عدا «ملك اليمين» الذي قد يؤول إليه من غنائم الجهاد، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، وعقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾، وشعور أزواج الرسول عليه السلام برقابة الله عليه وعليهن ضمانته إضافية لهناء عيشهن، وإحسان بالغ من الله إليهن.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، توكيداً لوصف «البشرية» الذي لا يعد وصمة، وإنما يعد كمالاً، في حق «الإنسان الكامل» الذي هو الرسول الأعظم، فقد اصطفاه الله لرسالته، واختار أن يكون «بشراً رسولاً»، وفيه إشارة إلى أن النظر إلى المخطوبة عند خطبتها جائز، وإلى أن حسن المرأة من جملة الدوافع الطبيعية للزواج بها، وإن اعتبار

هذا العنصر لا حرج فيه في نظر الإسلام، لكن يجب أن يكون مدعماً بعنصر «التدين» الذي هو صمام الأمان، من تقلبات القلوب وطوارئ الزمان.

ثم وجه كتاب الله الخطاب إلى المؤمنين من ضيوف الرسول، الذين يدعوهم الرسول لتناول الطعام عنده، ولقنهم آداب الضيافة، وفي طليعتها الميل إلى التخفيف في الجلوس والحديث، والإنصراف بمجرد انتهاء المأدبة التي حضروها، حتى يتفرغ الرسول عليه السلام لرعاية أهله، إذ لأهله عليه حق. ونبه كتاب الله في نفس السياق إلى منع دخول بيوت النبي دون إذن منه، إبطاً للعرف الذي كان سائداً في الجاهلية بدخول البيوت من غير إذن أصحابها، ثم استمر في صدر الإسلام. كما نبه إلى منع «التطفل» دون دعوة سابقة، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وهذا النص هو الذي يمنع الدخول إلى البيت دون إذن صريح، إذ لا بد من الدعوة والإذن في فتح الباب والدخول، وقوله: ﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾، أي: لا تحضروا وتنتظروا وقت نضج الطعام واستوائه دون سابق دعوة، ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، أي: اذهبوا لحال سبيلكم، ﴿وَلَا مُسْتَنَسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: لا تطيلوا الجلوس والتبسط في الكلام، بعد الانتهاء من تناول الطعام.

وبعد ما ميز كتاب الله ما هو سائغ ومقبول ممّا هو مرفوض

ومردول، قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾، و«الإذاية» كل ما تكرهه النفس، وكما كان ذلك يؤذي النبي عليه السلام كان يؤذي أزواجه، لكن لما كان البيت بيت النبي ﷺ والحق حقه أضيف ذلك إليه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾، وهكذا وجه كتاب الله الخطاب إلى ضيوف الرسول في هذا الشأن، دفعاً للأذى والحرَج الذي كان يصيبه ويصيب أهله في بعض الأحيان، لكنه لم يكن يفصح عنه، لغلبة الحياء عليه ﷺ.

وبهذه المناسبة لفت كتاب الله أنظار الذين تدعوهم الحاجة لمخاطبة أزواج الرسول، إلى أن الواجب يقضي عليهم بمخاطبتهم من وراء حجاب، لا وجهاً لوجه، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾، أي: حاجة، ﴿فَسأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، أما الحكمة في هذا التدبير المُحكم فقد بينها كتاب الله إذ قال: ﴿ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، فطهارة القلوب من خواطر السوء، بالنسبة للرجال والنساء على السواء، مرهونة بالعفاف وغيض البصر.

ولما انتهى كتاب الله من تفصيل القول في الحياة العائلية للرسول وهو على قيد الحياة، أعلن كتاب الله حكمه في مصير أزواج الرسول بعد أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، فحرم الزواج بهن من بعده على كافة المؤمنين، إذ هن بمنزلة أمهاتهم في الحرمة والحرمة إلى يوم الدين. يضاف إلى ذلك ما في هذا التدبير من توقير للرسول يتناسب مع عظيم منزلته، وسامي مكانته، وذلك قوله

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا
أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا، إِنْ تُبَدُّوْا
شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

ورفعاً للخرج في العلاقات العائلية المتشابكة التي لا غنى
عنها أسقط كتاب الله الحجاب عن النساء، بالنسبة لعدد من
أقارب العائلة الأقربين ومن في حكمهم، فقال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ
عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ، وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ،
وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ، وَلَا نِسَائِهِنَّ، وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ولم
يذكر العم والخال، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ويقومان
مقامهما، بدليل نزولهما منزلتهما في حرمة النكاح. وقد جاءت
تسمية العلم أبا في كتاب الله على لسان أبناء يعقوب وهم
يخاطبون أباهم، وذلك في قوله تعالى (٢: ١٣٣): ﴿قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، فأطلقوا لفظ
«الأب» على إسماعيل الذي هو عم أبيهم يعقوب، كما نبه على
ذلك الزمخشري والقرطبي.

وسبق في «سورة النور» ذكر الأقارب الذين لا حرج في
رؤيتهم لزينة النساء، ومن بينهم نفس الأقارب المذكورين ومن في
حكمهم، إذ قال تعالى (٣١): ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ
أَوْ آبَائِهِنَّ، أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ نِسَائِهِنَّ، أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ، أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ، أَوْ
الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

وبعد أن أُذِنَ كتاب الله للنساء برفع الحجاب عند مقابلة هؤلاء الأقارب ومن في حكمهم ومعاملتهم، أوصاهن الحق سبحانه وتعالى بالتزام تقواه ومراقبته في الخلوات والجلوات، حماية لهن من كل زيغ، وصيانة لهن من كل شبهة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾.

وتزكية للرسول من ربه، وتنوياً بقدره لدى أمته ولدى الإنسانية جمعاء، وتعريفاً بسامي منزلته في الملأ الأعلى عنده، تفضل الحق سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، وصلاة الله على رسوله والصالحين من عباده ترمز إلى ذكره الجميل لهم، وثنائه عليهم، وصلاة الملائكة عليهم دعاؤهم لهم بالرحمة والرضوان، ولرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأوفر، والحظ الأكبر.

ثم لقن كتاب الله كافة المؤمنين والمؤمنات ما يجب عليهم نحو الرسول الكريم، من التعظيم والتكريم، بالصلاة عليه والتسليم، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾، قال ابن كثير: «أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والسلام عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين، العلوي والسفلي جميعاً».

واستناداً إلى هذه الآية الكريمة ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وأئمة الشريعة إلى أن الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة في الصلوات الخمس، بحيث لا تصح الصلاة بدونها، خصوصاً في التشهد الأخير. ومن أشهر القائلين بوجوبها في الصلوات

الخمس الإمام محمد بن إدريس الشافعي، والفقيه المالكي المشهور محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز، وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «الصلاة على النبي ﷺ فرض في العمر مرة بلا خلاف، فأما في الصلاة فقال محمد بن المواز والشافعي إنها فرض، فمن تركها بطلت صلاته، وقال سائر العلماء: هي سنة في الصلاة، والصحيح ما قاله محمد بن المواز للحديث الصحيح: (إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك)، فعلم الصلاة ووقتها، فتعينا كيفية ووقتها. وليجتمع المصلي بين الصلاة عليه والتسليم، ولا يقتصر على أحدهما دون الآخر، و«الصلاة الإبراهيمية» التي علمها رسول الله ﷺ لأصحابه أفضل صيغ الصلاة، والصيغة التي رواها الإمام مالك هي أصح صيغها سنداً، أما الصلاة على غير الأنبياء، من عامة المؤمنين، فهي مخالفة لما درج عليه السلف الصالح من تخصيصها بمقام النبوة والرسالة.

ونظراً لخطورة الأذى الذي يوجهه أعداء الرسالات الإلهية إلى أنبياء الله ورسله، إذ يصدون الناس عن رسالته، ويقفون في وجه انتشار تعاليمه والعمل بتوجيهاته، وما يلحقه أذاهم البالغ ومكرهم السيء بعدد كبير من البشر، فيما بطن من حياتهم وما ظهر، أعلن كتاب الله غضبه عليهم، ولعنته لهم، وتوعدهم بالعذاب المهيئ في يوم الدين، وذلك كاف للتفجير من قريهم، والخص على هجرهم وعدم الثقة بهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً

مُهِيناً ﴿١٥٣﴾ وكما استنكر كتاب الله أذى أعداء الرسالات الإلهية لما فيه على الإنسانية كلها من ضرر كبير، استنكر الأذى الموجة إلى أعراض المؤمنين والمؤمنات دون حق، لما فيه من اعتداء وتزوير، والله تعالى لا يرضى لأمة الإسلام فيما بينها إلا التعامل بالصدق، والوقوف عند حدود العدل والحق، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثماً مُبِيناً﴾.

وبعد ما تحدث كتاب الله عن خطورة الأذى العام الذي يمتد إلى كافة البشر، والأذى الخاص الذي ينال من عرض المؤمنين والمؤمنات، نبه في ختام هذا الربع إلى نوع أخص من أنواع الأذى قد تتعرض له الأسرة المسلمة في كل وقت، إذا لم تأخذ في علاقاتها مع الغير عند الحاجة، بالحِطة والحذر، ولم تحصن من عناصر السوء، بالمزيد من التعفف والتصاوت، حتى لا تنزلق نحو حافة الخطر، وذلك قوله تعالى مخاطباً لرسوله وملقناً لأمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيسِهِنَّ﴾، والجلباب هو الثوب الذي يستر جميع البدن: ﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

لِّئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ① مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا
تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ② سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ③
يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ④ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا ⑤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ⑥
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ⑦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ⑧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ
لَعَنًا كَثِيرًا ⑨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا

مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ وَقَوْلِ أَقْوَلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فُتِيَ قَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ
الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيََنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ

مَغْفِرَةً وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ① وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيءَ آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ
 أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ الْيَمِّ ② وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
 الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَرْشِ
 الْحَمِيدِ ③ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
 يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مَرَّ قَتَمٌ كُلُّ مُتَذَقٍّ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ④
 أَفَتَبْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ⑤ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نَحْشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ
 أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑥

الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في هذه الحصة نتناول تفسير الربع الثالث، من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة الأحزاب المدنية: ﴿لَّئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾، إلى قوله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

عند بداية هذا الربع وجه كتاب الله إنذاراً صريحاً إلى العناصر المندسة بين المؤمنين في مدينة الرسول وعاصمة الإسلام الأولى، محذراً تلك العناصر من عواقب نشاطها الهدام، البارز فيما تقوم به من دس جلي أو خفي، وتمسك بالانحراف الخلقي الذي اعتادته في الجاهلية، وبث للبلبة في صفوف المجتمع الإسلامي الناشيء، عن طريق ترويج الإشاعات الكاذبة، والدعايات الإنهزامية المتكررة، كلما قام الرسول والمؤمنون بالدفاع عن كيان الإسلام، الذي لا يزال مهدداً من طرف أحزاب الشرك والكفر في الداخل والخارج، وقد أقسم كتاب الله على

هذا الإنذار الإلهي الخطير، وهو يخاطب رسوله الأعظم إذ قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ﴾. و«الارجاف» هو إشاعة الكذب والباطل بقصد التماس الفتنة وتهيج الخواطر، وتشبيط الهمم، وشل العزائم، والمراد بقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، أي: لنسلطنك عليهم، فتتزل بهم ما هم أهل له من العقاب، و«اللعة» هي الطرد من رحمة الله، قال جار الله الزمخشري: «والمعنى - لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجعون عما يلقون من أخبار السوء - لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم، ثم بأن تضطربهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها» وإنما عطف (بشئ) «ثم لا يجاورونك فيها» لأن وقع الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما يصابون به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه.

ومن تسليط الله لنبيه عليهم وإغرائه له بهم، علاوة على النفي والتشريد، تهديدهم إن لم ينتهوا عن موقفهم المريب، ويكفوا عن نشاطهم الهدام، بوضع اليد عليهم حينما وجدوا متلبسين بالجريمة، وتعريض أنفسهم للاعتقال والقتل أينما ذهبوا، جزاء تعريضهم «سلامة الدولة الإسلامية» الناشئة للخطر، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿أَيْنَمَا تُقَمُّوا أَخِذُوا وَقْتًا ثَقِيلًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، تأكيداً لناموس الحياة الذي عرفته البشرية من

أقدم العصور، في الدفاع عن سلامتها ضد الأخطار المحدقة بها، وقيامها بعزل العناصر الهدامة، وتقليل أظفارها، كلما أصبح نشاطها يُشكّل خطراً محققاً عليها. قال أبو حيان: «والظاهر أن المنافقين انتهوا عما كانوا يؤذون به الرسول والمؤمنين، وتستر جميعهم وكفّوا، خوفاً من أن يقع بهم ما وقع القسم عليه، وهو الإغراء والجلاء، والأخذ والقتل».

غير أنهم لم يمثلوا للانتهاك امتثالاً عاماً وشاملاً، ولم تنزل تبدو منهم نزوات، وتفلت منهم فلتات، فيتعرضون من أجلها لمعاملة استثنائية، دون أن ينفذ عليهم الوعيد الذي هم متوعدون به كاملاً، ومن وجوه تلك المعاملة الاستثنائية إخراجهم من المسجد النبوي في بعض الأحيان، وعدم إقامة صلاة الجنازة على موتاهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهٖ﴾، وما أنزل من الآيات للكشف عن مواقفهم في عدة وقائع ومواقع، ولا سيما ما نزل في حقهم في سورة التوبة.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ تفادى عقابهم بالقتل، وإن كان هذا العقاب مسموحاً به مبدئياً، بمقتضى قوله تعالى هنا: ﴿أَيْنَمَا تُقِفُواْ أَخِذُواْ وَقْتًا ثَقِيلًا﴾، لأنهم كانوا مندسين في غمار أصحابه وعامتهم، ولو حَكَمَ بقتل أحدهم لاختلط الأمر فيه على الناس، ولتحدث المرجفون أن محمداً يقتل أصحابه، ورسول الله ﷺ يترفع عن ذلك.

ونظراً لما عليه خصوم الرسالات الإلهية من الكبر والغرور،

والمماحكة فيها لا يوافق هواهم من الأمور، يلحون في السؤال عن قيام الساعة: إِمَّا سَوَالٌ استبعاد يتضمن التكذيب والإنكار، وإِمَّا سَوَالٌ استعجال، وتَحَدُّ يراد منه الامتحان والاختبار، لكن الله تعالى الذي عنده وحده علم الساعة يلقنُ رسوله الجواب الوحيد عن مثل هذا السؤال، تفادياً من كل مباحكة وجدال، وذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ إذ لم يُطْلِع عليها ملكاً ولا نبياً، ﴿وَمَا يُذْرِيكَ﴾، أي: ما يعلمك، ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾، أي: تأتي في وقت قريب، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (٥٤: ١): ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وقوله تعالى في آية ثالثة (٢١: ١): ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، وفي إجابة السائلين عن الساعة بقرب موعدها - ولودون تحديد - نوع من الوعيد والتهديد، وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى من يده الكريمة، تلميحاً إلى أن الرسالة التي جاء بها من عند الله لا يفصل بينها وبين قيام الساعة أي حاجر حصين، وأنها مستمرة دون انقطاع إلى يوم الدين.

وبعد ما أكد كتاب الله قيام الساعة وقرب موعدها تولى وصف أحوال المكذبين بها عند ما يفاجأون بما لم يكونوا ينتظرونه من الحساب والعقاب، فقال تعالى في شأن أئمة الكفر وقادة الضلال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَاذِبِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ

يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١﴾، وقال تعالى في شأن أتباعهم المضللين وأنصارهم المخدوعين: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْعَنُّهُمْ لَعْنَا كَثِيرًا ﴿٢﴾، فيتبرأ المرؤوسون من رؤوسائهم، والأتباع من سادتهم وكبرائهم، ويضربون عليهم وابل اللعنات، لِمَا أوقعوهم فيه من المتاعب والحسرات، وكما سجل كتاب الله في هذه الآية تبرؤ الأتباع من المتبوعين، سجل كتاب الله في آية أخرى تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، فقال تعالى (٢: ١٦٦): ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

وتوكيداً للنهي عن الأذى بسائر أشكاله وأصنافه، مما تحدثت عنه عدة آيات سابقة في هذه السورة، جاء كتاب الله في هذا الربع بنهي عام شامل عن جميع أنواع الأذى، ولا سيما أذى الرسول الأعظم، وأذى الرسول يصدق بانتحال كل ما يخالف عقيدته وشريعته، والنطقي بما لا يناسب مقامه وشخصيته، ونبه كتاب الله إلى أن وجود فئة شريرة وسيئة النية تؤذي الأنبياء والرسل ليس أمراً طارئاً ولا غريباً، فقد تعرض موسى الكليم عليه السلام لأذى بني إسرائيل في عدة مناسبات، كَمَا تعرض الرسول الأعظم أحياناً لأذى قومه وأذى مخالفيه وَلَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ: ﴿وَدَّعَ أَذْيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، لكن الأذى الواقع في حقه يجر صاحبه إلى الهلاك، وإلى هذا النهي العام يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾، ومن هذا الباب حديث الرجل الذي قال في غيبة

الرسول عليه الصلاة والسلام، تعليقاً على قَسَمَ قَسَمَهُ: «إن هذه لقسمة ما أريد بها وجهُ الله»، فغضب رسول الله ﷺ عندما بلغه الخبر، فقال: «رحم الله أخي موسى، لقد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر» والحديث مروي في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

وإذا كان الله تعالى لا يرضى لعباده المؤمنين أن يتورطوا في أي نوع من أنواع الأذى، فإن أفضل ما يتقربون به إليه هو النطق بالكلام الطيب، والإقبال على العمل الصالح، وذلك ما وصى به كتاب الله عند ما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فقد دعا المؤمنين إلى التمسك بتقوى الله، حذراً من مكائد الشيطان، ودعاهم إلى السداد في القول، بالتزام الحق والصدق وعفة اللسان، ضماناً لحسن المعاملة والبعد عن الشنآن، وتوثيقاً لعرى التفاهم بين الإنسان وأخيه الإنسان: «والقول السديد» الوارد في هذه آلاية الكريمة مأخوذ من تَسْدِيدِ السهم ليصاب به الغرض، يقال سَدَّدَ السهم نحو الرميّة إذا لم يَعْدِلْ به عن سَمَتِها، وفي ذلك تنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يتكلم بالعبث، ولا أن يُلقِي الكلام جزافاً دون رويّة ولا تفكير، بل من واجبه أن يتحرى في القول، وأن لا يقول إلّا حقاً وصدقاً، ولم يقتصر كتاب الله على الأمر بالتقوى وسداد القول، بل بيّن في نفس السياق حكمة هذا الأمر الإلهي الحكيم، وما يؤدي إليه امتثاله في الدنيا والآخرة من الفوز العظيم، فمن نتائجه المباشرة توفيق المؤمن وتوجيهه إلى ممارسة العمل الصالح بصورة مستمرة، بحيث تصبح أعماله كلها موجهة

نحو الصلاح والإصلاح، لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لغيره، ويصبح شعاره الدائم في الحياة هو شعار شعيب عليه السلام (١١: ٨٨)، ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، ومن نتائجه المنتظرة إكرام المؤمن بِمَحْوِ السَّيِّئَاتِ وغفران الذنوب، والإنعام عليه بعيشة راضية لا يمسّه فيها نَصَبٌ ولا لغوب، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ثم عَقَّبَ كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾، وإنما كان الفوز العظيم في الدنيا والآخرة مرهوناً بطاعة الله ورسوله، والخسران المبين معقوداً بناصية العصاة الخوارج عن تلك الطاعة، لأن طاعة الله ورسوله تعني التطبيق الدقيق للنواميس الخلقية التي وضعها الله لضبط سلوك الإنسان، حماية له من الوقوع في المزالق والعثرات، وتحصيناً له من عواقب النكسات والأزمات، فيخرج سليماً منها، منتصراً عليها، ويعيش في وئام وانسجام مع توجيهات خالقه ورازقه، ومدبر أمره، الذي «طَبَعَ الطبيعة» و«شَرَعَ الشريعة».

وبعدما أبرز كتاب الله الأثر العميق الذي تحدثه طاعة الله ورسوله في حياة الإنسان المؤمن، وهو الفوز العظيم بسعادة الدنيا والآخرة، انتقل كتاب الله مباشرة إلى الحديث عن «الأمانة العظمى» التي انفرد بحملها الإنسان دون بقية الأكوان، أليس الإنسان هو الذي تَوَجَّهَ اللَّهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى بتاج الخلافة في الأرض؟ أليس

الإنسان هو الذي سخر الله له ما في السماوات والأرض وخلق له ما في الأرض جميعاً؟ أليس الإنسان هو الذي كرمه الله فخلقه في أحسن تقويم، وحمله في البر والبحر، وفضله على كثير ممن خلقه تفضيلاً؟ لذلك كُله أصبح الإنسان يشعر من أعماق قلبه بأنه هو المخلوق الوحيد المؤهل لحمل تبعّة الأمانة ومسؤولية التكليف، وأدرك تمام الإدراك أنه لا يكون منطقياً مع نفسه إلا إذا تقدم ورشح نفسه أمام ربه لهذه المهمة السامية وهذا العبء الجسيم، إيماناً منه بأن الحقوق والمزايا التي منحه الله إياها - تفضلاً منه وكرماً - لا يُعقل أن يتمتع بها ويمارسها، دون أن يقوم بواجبات تقابلها، ويتحمل تبعات تستتبعها وتنشأ عنها.

وتمثيلاً لعظمة قدر «الأمانة» التي رشح الإنسان نفسه لحملها، وتصويراً لخطورة مسؤوليتها وتبعاتها ضرب كتاب الله المثل بالسماوات والأرض، وخص منها الجبال بالذكر، لكونها أوتاد الأرض الصلبة، ورواسيها الثابتة، التي لها علاقة وثيقة باستقرارها وتوازنها، مبيناً أن السماوات والأرض التي التزمت منذ نشأتها بطاعة الله طاعة مطلقة، قائمة على مجرد «التسخير»، لا تريد أن تزجّ بنفسها في أمر التسيير والتدبير، ومن أجل ذلك أشفقت كل الإشفاق من عرض الأمانة عليها، واستعفت من حملها وتحمل مسؤوليتها، بالرغم مما تتوافر عليه من الخصائص الطبيعية الكبرى التي لا نسبة بينها وبين خصائص الإنسان، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (٤٠: ٥٧)، وإلى ذلك المثل يشير قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ ﴿١﴾.

وكما ضرب كتاب الله المثل في هذا السياق، بما عليه السماوات والأرض والجبال من إباء وإشفاق، سيضرب المثل في «سورة الحشر» بخشوع الجبل وتصدعه، من شدة التأثر بكتاب الله، والخشية من الله، إذ يقول (٥٩: ٢١): ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وتشمل «الأمانة» التي حملها الإنسان كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى، وشأن دين ودنيا، ويدخل في ذلك الحفاظ على الدين والنفس والعقل والعرض والنسل، وبالإجمال تشمل الأمانة قيام الإنسان بالواجبات كلها، أصولها وفروعها، على أن يتقبل العقاب إذا تخلى عنها، وينتظر الثواب إذا وفى بها، وكلما كان الشيء المؤتمن عليه مخفياً لا يطلع عليه إلا الله كان أحق بالحفظ وأولى بالرعاية.

وبعد ما نوه كتاب الله بشجاعة الإنسان وترشيح نفسه لحمل الأمانة، وقبوله لعرضها، والتزامه للقيام بحقها، أشار إلى ما يعترض حياته من ضعف واختلال، يؤديان به إلى الانحراف والانحلال، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ (٤: ٢٨)، فيظلم نفسه ويظلم غيره، ويتصرف في شؤونه تصرف الجاهل الذي لا يميز الضار من النافع، ولا يفرق بين الصالح والطالح، وذلك قوله تعالى تعقياً على ما سبق: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، أما

«ظلمه» البالغ لنفسه وغيره، فلأن الأمانة هي صِمام الأمان بالنسبة للفرد والجماعة، وَمَنْ خان الأمانة أفلت من يده الزَّمام، ولم يَرَعَ أيَّ ذِمَام، وتعرض لتقلُّبات الدهر وعوادي الأيام. وأما «جهله» الفاضح، فلأنَّ أبسط شيء من العلم والتجربة يقود الإنسان إلى الاقتناع بأن الأمانة هي محور الثقة التي يمكن أن يتمتع بها، وأساس السمعة الحسنة التي يحرص عليها، ومفتاح السعادة التي يطمح إليها، ومن خان الأمانة عاش في هم ونكد، وظل منبوذاً من أهله وقومه طول الأمد، لكن من حسن حظ الإنسانية ما هي عليه من ازدواج وامتزاج، يُعَدِّل مزاجها، ويصلح حالها، فالظالم لا بد أن يجد من يَحُدُّ من ظلمه، وهو أخوه الإنسان، الذي حمل أمانة العدل، والجاهل لا بد أن يجد من يَحُدُّ من جهله، وهو أخوه الإنسان، الذي حمل أمانة العلم، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (٢: ٢٥١)، وبذلك يضيق الخناق على من خان الأمانة من الجهلة والظالمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٨: ٥٨).

ومن نتائج حمل الأمانة والوفاء بها، أو حملها وخيانتها، انقسمَ الناسُ إلى قسمين، فَمَنْ ضَيَّعَهَا بالمرّة كان أهلاً للعقاب والعذاب، ومن وفى بها كُلياً، التزاماً بعهده ووعدده، نال أجزل الثواب، ومن وفى بها جزئياً، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لم يخب رجاءه في مغفرة الله إذا تاب وأناب، وذلك ما ينطق به كتاب الله إذ يقول في ختام سورة الأحزاب المدنية: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، والمنافقون هم

الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله، ويظنون الكفر متابعة لأهله، والمشركون هم الذين تواطأ باطنهم وظاهرهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿وَيُثَوِّبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

وبعدما منَّ الله علينا بتفسير سورة الأحزاب المدنية نتنقل إلى سورة سبأ المكية، وإنما سميت «سورة سبأ» لقول الله تعالى فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾، وتتضمن فاتحة هذه السورة حمد الله في الأولى والآخرة، وتمجيد حكمته وقدرته، والتعريف بعلمه الذي أحاط بكل شيء من مخلوقاته، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ثم جدد كتاب الله الحديث عن قيام الساعة وموقف المكذبين بها، عن جهل، أو عناد، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً، أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾.

ووصف مآل الذين استجابوا لله ورسوله فقال في حقهم:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وبين السر في وقوفهم هذا الموقف، وهو ما هم
عليه من علم وإيمان، فقال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ،
الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ﴾، كما وصف مآل المعاندين الذين يتحدثون الله ورسوله
فقال في حقهم: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾.

وختم هذا الربع بدعوة الجاحدين والمعاندين إلى النظر في
خلق السماوات والأرض، والتدبر في آيات الله البارزة فيهما،
واستخلاص النتائج الحتمية من التدبر العميق في عظمة خلقهما،
مع تهديدهم إن لم يتراجعوا عن جحودهم وعنادهم بعذاب
مُفَاجِئٍ، يسلط عليهم من تحت أرجلهم أو من فوق رؤوسهم،
وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ
كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَلْآيَةَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين
في المصحف الكريم

وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا
يَجِبَالُ أَوَّيَ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدُ ⑤ أَنْ إِعْمَلْ
سَبِغَتْ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ⑥ وَلَسْلَيْمَنْ الرِّيحِ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ
وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَمَنْ يَنْزِعْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ⑦
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَأُجُوبٍ
وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ إِعْمَلُوا أَلْ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ
عِبَادِي الشَّاكِرُ ⑧ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى
مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ
إِلَيْنَ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ⑨

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتْنِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا
 مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا
 فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
 ذَوَاتِي أُكْلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ
 جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا
 بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا
 فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا
 بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
 وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
 شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
 فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ
 إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٢١﴾ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ
 اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
 وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
 وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ

عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ ﴿٧٣﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

في بداية هذا الربع بين كتاب الله لمن لا يزالون في شك من أمر النبوة أن الرسول الأعظم ليس يدّعا من الرسل، وأن الرسالات الإلهية التي جاءوا بها كما تُعنى بالشؤون الروحية للنوع الإنساني تُعنى بشؤونه المادية المباشرة، بل تأخذ بيده فتسدّد خطواته الأولى في نفس المجال التقني والصناعي، و«الآخرة» التي دعا الرسل والأنبياء إلى الإيمان بها إنما هي المرحلة الأخيرة في مسيرة جهاد الإنسان المتواصل، من أجل صلاح الإنسان، وازدهار العمران، حيث يجني الإنسان ثمرة عمله، ويصل إلى تحقيق رجائه وأمله، إن وفّى بما عاهد عليه الله في خلافته، ولم يتنكر لدينه وشريعته، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. (١٨ : ٧).

يقول الله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وهذا الفضل الذي آتاه الله إياه يظهر بشكل بارز في عدة مظاهر روحية ومادية:

المظهر الأول: تسبيح الجبال معه عندما يتلو «الزبور» الذي أنزله الله عليه، وإصغاء الطير أثناء تلاوته إليه، فالجبال تردد صدى صوته القوي العظيم، وأسراب الطير تلتف حوله وتطرب عند سماع صوته الرخيم، فيشترك في تمجيد الله في آن واحد الجماد والحيوان والإنسان، وتبرز من خلال تمجيد الله وتوحيده وحدة الأكوان، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧: ٤٤)، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى وهو ينادي الجبال لتُسَبِّحْ الله مع نبيه داود: ﴿يَجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾، وسيأتي في سورة (ص) قوله تعالى في شأن داود عليه السلام (١٨): ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو يقرأ في الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال: (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود)، فأجابه أبو موسى قائلاً: «لو علمت أنك تسمع لخبرت لك تحبيراً» والثوب «المحبر» هو المخطط بالألوان، أي: لجعلته لك أنواعاً حسناً. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) تعليقاً على نفس الحديث في سياق كلامه على هذه الآية: «فيه دليل على الإعجاب بحسن الصوت، والقلوب تخشع بالصوت الحسن كما تخضع للوجه الحسن، وما تتأثر به القلوب في التقوى أعظم في الأجر، والأصوات الحسنة

نعمة من الله تعالى، وزيادة في الخلق ومنة، وأحق ما ليس هذه الحلة النفسية والموهبة الكريمة كتاب الله، فنعم الله إذا صرفت في الطاعة قضي بها حق النعمة.

المظهر الثاني من مظاهر الفضل الذي آتاه الله داوود : تمكينه من استعمال معدن الحديد فيها تتوقف عليه سلامة الدولة، وإطلاعه على سر صناعته، وتطويره في يده، حتى عاد كالطين المبلول والعجين والشمع. وللحديد أهمية خاصة في حياة الشعوب والدول نبه إليها كتاب الله فيما سيأتي من سورة الحديد، إذ قال تعالى (٢٥): ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾.

المظهر الثالث من مظاهر فضل الله على داوود: تعريفه بالطريقة التقنية المثلّية لصنع الدروع، حتى تحمي المحاربين من سهام الأعداء، متى اضطروا لحمل السلاح، وتنبيهه إلى أن الدرع الذي يحمي لابسَه يلزم أن يكون على قدر جسمه وقامته، لكي يستره ستراً تاماً، وإرشاده إلى أن كل حلقة من حلقات الدرع يلزم تقديرها بقدر الحاجة، بحيث تجمع بين الخفة التي لا تضعف من مناعة الدرع، وبين الحصانة التي لا تثقل الجسم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿إِنْ إِعْمَلْ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرْ فِي السَّرْدِ﴾، ويقال لصانع الدروع «سَرَادُ وَزَرَادُ» بإبدال السين زايًا، ويزيد هذا المعنى تأكيداً وإيضاحاً قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنبياء في شأن داوود عليه السلام (٨٠): ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ

الْجِبَالُ يُسَبِّحُنَ وَالطَّيْرُ، وَكُنَّا فَعِلَيْنَ، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٤﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عما امتن به على سليمان بن داوود من فضل أشمل وأعظم، وهذا الفضل يتجلى في عدة مظاهر:

المظهر الأول: تسخير الريح له في زمان محدود ومكان محدود، وجعلها أداة سريعة في يده ويد أعوانه، للقيام بأسرع ما يمكن من التنقلات والمواصلات، بحيث يكون من المستطاع قطع مسافة شهر في الغدو ومسافة شهر في الرواح، أي قطع مسافة شهرين في يوم واحد، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَسَلِّمْنَ الْريِّحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحُهاً شَهْرٌ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق في سورة الأنبياء (٨١): ﴿وَلَسَلِّمْنَ الْريِّحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيها، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمِينَ﴾، وقوله تعالى فيما سيأتي من سورة (ص: ٣٦): ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الْريِّحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

والمظهر الثاني: تمكينه من استعمال معدن النحاس، وتعريفه بالطريقة التقنية المثلى لتدويبه وإسالتة، وإرشاده إلى استعماله في صنع ما يلزم من آلات وأدوات، للنفع الخاص والنفع العام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: معدن النحاس، وقوله تعالى في نفس السياق:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ، وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَّتٍ﴾، و«المحارب» جمع «محراب»، وهذا اللفظ يُطلق على كل بناء مرتفع ممتنع، وعلى أشرف بيوت الدار، كما يطلق على المكان الذي يصلي فيه الإمام، لأنه يجب أن يُرْفَعَ ويُعْظَمَ، وهو أرفع مكان في المسجد، و«التمثيل» جمع «تمثال»، وهو اسم للشيء المصنوع باليد، المُمَثِّلُ بغيره، أي المشبه به من إنسان أو حيوان أو غيرهما، و«الجفان» جمع «جَفْنَةٍ» وهي القصعة الكبيرة، وشبهت في هذه الآية «بالجوابي» جمع «جابية»، لِاتِّسَاعِهَا وَكِبَرِهَا، ومعنى «الجابية» الحوض العظيم الذي يجمع فيه الماء، و«القدور الراسيات» هي القدور الثابتة التي لا تُحْمَلُ ولا تُحَرَّكُ لعظمتها، ومنها يُغْرَفُ الطعام في الجفان. قال (ابن العربي): «ورأيت برباط أبي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً، من غير استئثار أحد منهم على أحد».

وتعليقاً على كلمة (تمثيل) الواردة في هذه الآية وما تفيد من إباحة التصوير على عهد سليمان قال (ابن العربي) ما نصه: «ورد على السنة أهل الكتاب أنه كان أمراً مأذوناً فيه، والذي أوجب النهي عنه في شرعنا - والله أعلم - ما كانت العرب عليه من عبادة الأوثان والأصنام، فكانوا يصوِّرون ويعبدون، فقطع الله الذريعة وحمى الباب».

ومن لطائف التفسير ما نبه إليه الرازي أثناء تفسيره لهذه الآيات من «أن كتاب الله ذكر ثلاثة أشياء في حق داوود، وثلاثة

أشياء في حق سليمان عليهما السلام، فتسخير الجبال لداوود هو من جنس تسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير للأول هو من جنس تسخير الجن للثاني، إذ الشأن في الطير النفور من الإنس، والشأن في الإنس النفور من الجن، ومع ذلك صار الطير لا ينفر من داوود، بل يستأنس به ويطلبه، وأصبح سليمان لا ينفر من الجن، بل يُسخّره ويستخدمه، وأما القطر، أي: النحاس والحديد فتجانسهما غير خفي» وذكر كتاب الله في حق داوود اشتغاله بآلة الحرب، بينما ذكر في حق سليمان اشتغاله بمهام السلم؛ لأن ملكه كان موطداً من عهد أبيه.

ثم أننا نجد كتاب الله يُدرج في سياق التنويه بفضل الله على نبيه سليمان عليه السلام آياتٍ يدور الحديث فيها حول نوع «الجن» الذي يقابل نوع «الأنس»، والمراد بهم نوع خفي من الكائنات يَعْمُرُ الكون علاوة على الإنسان، وهو خاضع مثله للتكليف في الدنيا والجزاء في الآخرة، حسبما تدل عليه عدة آيات في سورة الأنعام وسورة الأعراف وسورة فُصِّلَت وسورة الذاريات وسورة الرحمان وسورة الجن، غير أن كتاب الله لم يُفصّل القول في هذا النوع الخفي من الأحياء، واقتصر على بيان أن الله خلقه من نار، وترك تفاصيل أمره مستورة ومحجوبة عن الأنظار، ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (١٥: ٢٧)، ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (٥٥: ١٥).

ونظراً إلى أن بعض الأغرار من البشر تكونت عندهم فكرة غامضة وسخيفة عن الجن من نسج الخيال، وأخذوا يعبدونهم،

ظناً منهم أنهم يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب، واستمر اعتقادهم الباطل، يتناقله جيل عن جيل، إلى حين ظهور الإسلام، فقد تصدى كتاب الله في سياق الحديث عن سليمان لأبطال هذا الاعتقاد الفاسد، مبيناً أن الجن ليسوا إلا عبارة عن كائنات خفية، خاضعة لأمر الله، ومسؤولة عما كُلفت به أمام الله، فليس للجن في الكون أمر ولا نهى، ولا سطوة ولا تأثير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى واصفاً تسخير سليمان لهم أثناء حياته: ﴿وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَمَنْ يَّزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنبياء (٨٢): ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾، وقوله فيما سيأتي من سورة (ص): ﴿وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

وللدلالة على أن علم الجن علم قاصر ومحدود، وأنهم لا يعلمون من الغيب شيئاً، على خلاف ما يعتقدُه الأغرار البسطاء، أورد كتاب الله شاهداً على ذلك موت سليمان، مبيناً أن الجن الذين كانوا يعلمون بين يديه لم يشعروا بموته، واستمروا على أداء الخدمات الشاقة التي عاقبهم بها، ظناً منهم أنه لا يزال حياً يملك ويحكم، ولولا أن «العصا» التي كان يتوكأ عليها أكلتها الأرضة وانكسرت، فسقط جثمانه على الأرض، لَمَا أدرك الجن أنه مات، ولَمَا توقفوا عما كان قد كلفهم به من الخدمات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

إِلْمُوتَ مَا ذَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٤٠﴾، والمراد «بدابة الأرض» هنا الأرضة التي تأكل الخشب، والمراد «بالمِنْسَاء» العَصَا.

وتنويهاً بـداود وآله قال تعالى في نفس المقام: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، إشارة إلى أن الله تعالى يرعى عمل الصالحين من عباده بعين رعايته، ما داموا لا يفترون في عملهم عن خشية الله ومراقبته. وقال تعالى: ﴿إِعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ، شُكْرًا﴾، إشارة إلى أن شكر الله على نعمه متى كان محور الحركات والسكنات، والدافع الأول إلى ما يقوم به العبد من صالح الأعمال وجميل الحسنات، أثمر لصاحبه في الدنيا والآخرة أطيب الثمرات. قال الزمخشري: «فيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدي على طريق الشكر»، وقال أبو بكر (ابن العربي) «حقيقة الشكر استعمال النعمة في الطاعة، والكفران استعمالها في المعصية».

وقد نوه كتاب الله بشكر سليمان في غير ما آية، كقوله تعالى في سورة النمل (١٩): ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾، وقوله تعالى في نفس السورة حكاية عن سليمان وقد رأى عرش ملكة سبأ بين يديه (٤٠): ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، إشارة إلى أن أكثر من يتقبلون في نعم الله الظاهرة والباطنة لا يؤدون حق شكرها، بل هم في غفلة ساهون، حتى إذا ذهبت النعمة، وحلت النقمة، أفاقوا من غفلتهم، وندموا على سكرتهم، ولات حين مندم، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١٤: ٧) و﴿الشَّاكِرُونَ﴾، هو المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعته فيه، الذي يشغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكذباً، حسبما عرفه جار الله الزمخشري، ومن شاء أن يكون من عباد الله الصالحين فليكن من هذا الفوج القليل.

ومن قصة آل داود التي يتجلى فيها فضل الله ومقابلة فضله بالشكر، انتقل كتاب الله إلى قصة، «سبأ» التي يتجلى فيها فضل الله، لكن مع مقابله بالجحود والكفر:

أما فضل الله على سبأ فينطق به قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ، جَنَّتْنِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً، وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا - آمِنِينَ﴾.

وأما جحود سبأ وكفرهم بنعمة الله، وما نشأ عنه من تبديل الأحوال، والتعرض للدمار والزوال، فينطق به قوله تعالى: ﴿فَاعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا، وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا

بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ، إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨١﴾

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾، أي: أن ما أكرم الله به قوم سبأ من خصوبة الأرض وجودة التربة، ونقاوة الهواء، واختلاف الزروع والأشجار، وتنوع الثمار، وامتداد الظلال، وجريان الأنهار، يُعَدُّ آية من آيات الله، الناطقة بقدرته وحكمته ورحمته، الباعثة على عبادته وشكره وطاعته: ﴿جَنَّتَيْنِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، أي: أن مساكنهم تحفُّ بها من جهة اليمين - كما تحفُّ بها من جهة الشمال - بساتين خضراء، ومزارع فيحاء، على مدِّ البصر، حتى كأنَّ ما على اليمين من البساتين والمزارع يُكوِّنُ جَنَّةً واحدة، وما على الشمال منها يُكوِّنُ جَنَّةً واحدة أيضاً، لاتصال تلك البساتين والمزارع بعضها بعض، وتداخل بعضها مع بعض، ﴿كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾، أي: أن كل ما حولهم كان لسان حاله يوحى إليهم بالإقبال على مائدة الله، والتمتع بالطيبات من الرزق، والشكر لله على نعمه المتواصلة، فقد أتم الله عليهم نعمته من جميع الوجوه، ولا يسعهم إلا أن ينهضوا يشكرها فرحين مبتهجين.

يقول الله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾، هذا تعقيب مستأنف، أوجز فيه كتاب الله وصف أرض سبأ ووصف أهلها، فالأرض أرض طيبة، وطيبها يصدق بكونها أرضاً خصبة لا سبخة، وكون مناخها مناخاً صحياً طيب الهواء، لا وخامة فيه ولا وباء،

ولا هوامَّ كالعقرب والحية والحرباء، والناس في هذه الأرض يعبدون الله ويشكرونه، ويذكرون فضله ويستغفرونه، فيغفر لهم ما فرطَ منهم من السيئات، ويتقبل منهم ما قدموه من الحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ (١١: ١١٤).

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً - آمِنِينَ﴾، أي: أن الله تعالى أكرم قوم سبأ بعمران مزدهر متصل الحلقات، ترتبط فيه المدن الكبرى بسلسلة من القرى الصغيرة العامرة، المبنوثة في أطراف البادية، وهذه القرى قريب بعضها من بعض، ويتراءى بعضها لبعض، والسير فيما بينها يمكن ليلاً ونهاراً، بما تتوفر عليه من استقرار وأمان، ناشئين عن ازدهار واتصال العمران، وقد دلت الكشوف الأثرية الحديثة على أن الحضارة العربية في عهد دولة سبأ بلغت غاية النمو والازدهار، لا فرق في ذلك بين الناحية الإدارية، والناحية العمرانية، والناحية الثقافية، والناحية الصناعية، والناحية التجارية، والناحية الزراعية.

ومما يتصل بموضوع الآيات الواردة هنا عن سبأ اتصالاً وثيقاً، ويلقى الأضواء عليها: أن دولة سبأ بلغ أهلها في العلم بالهندسة وتنظيم الري وحسن الاستفادة من مياه الأمطار درجة عالية، فأنشأوا من السدود والقنوات ما كان مثاراً للدهشة والإعجاب في أطراف العالم إذ ذاك، إذ أن تلك السدود العربية تعتبر أقدم السدود التي عرفها التاريخ، مما كان له أثر كبير فيما وصفه كتاب الله بأنه «آية» من آيات الله، إذ قال تعالى هنا: ﴿لَقَدْ

كَانَ لِسَبَا فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ ﴿١٨٣﴾، وقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

لكن لما أعرض قوم سبأ عن عبادة الله وطاعته، وانصرفوا عن شكره على نعمته، بَطَرًا وطغياناً، وجحوداً وكفراناً، بذلهم الله من حال إلى حال، وسلَّطَ عليهم الكوارث والأحوال، فتهدم «سد مأرب» الذي كان يعد من أعاجيب العالم القديم، إذ كَانَ أوسع السدود وأشهرها، [وهو يبعد عن مدينة صنعاء بنحو ستين ميلاً، ولا تزال بقاياه ماثلة للعيان إلى الآن]، وطغى ماء السد وماء السَّيْلِ على ما كان عندهم من بساتين ومزارع وأبنية، فذهب العمران والازدهار، وحل محله الخراب والدمار، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴿١٨٥﴾﴾، و«العَرِم» السيل الذي لا يطاق.

يقول الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ، وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٨٦﴾﴾، ها هنا يبين كتاب الله ما حل بمزارعهم ومعايشهم من ضياع وإهمال، حيث تحولت البساتين والمزارع إلى غابات وأدغال، والمراد «بالخَمْط» كل شجر ذي شوك فيه مرارة، و«الأَثَل» نوع من الخشب شبيه بالطرفاء لا ثمرة له في الغالب، و«السُّدْر» شجر النبق، وبعد ما أصبح السُّدْر أحسن أشجارهم لم يبق منه إلا القليل. وإنما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ ﴿١٨٧﴾﴾، لأجل «المشاكلة» بين النوعين، على غرار قوله تعالى: ﴿وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴿١٨٨﴾﴾، إذ مِثْلُ هذا النبات الوحشي لا يسمى في

الحقيقة «جنة» ولا يستأنأ. ثم عَقَّبَ كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا، وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾.

وبعدما تحولت مزارع قوم سبأ وبساتينهم الفيحاء إلى غابات وأدغال، وأصبحت قراهم المزدهرة وعمرانها المتصل في خبر كان، ولم يبق منها إلا الخراب والأطلال، تذكروا الله والتجأوا إليه، لكن كان أمر الله قَدْرًا مقدورًا، فَاسْتَبَدَلَهُمْ بَعِيشَتَهُم الراضية، «معيشة ضنكاً» كلها متاعب مُضْنِيَّة، تحتاج إلى ركوب أخطار عديدة، والتقلب في أسفار طويلة وبعيدة، لا يكفي فيها زاد ولا راحلة، ولا تنجو من مخاوفها ومفاجأتها أي قافلة، وبذلك جعلهم عبرة للمعتبرين يتحدثون بهم، ويتمثلون بمصيرهم المفجع قائلين، «تفرقوا أيادي سبأ» وذلك ما يُشِيرُ إليه قوله تعالى، عقاباً على بَطَرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبَيَّنَّ كتابُ الله أن إبليس لا سلطان له على الخلق، وإنما يُغْرِي وَيُغْوِي مَن اختار الغواية والضلال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، أي: لنكشف للناس عما سبق في علمنا من أمر المؤمن والكافر، ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.

ثم خاطب كتابُ الله المشركين متحدياً لهم، وطالبا منهم أن

يَدْعُوا شُرَكَاءَهُمْ: ﴿قُلْ اَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ﴾، مبيناً لهم أن الله تعالى غني عن الشركاء والأعوان: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾.

وُخْتُم هذا الربع بالإشارة إلى أن سَبَقَ الإِذْنَ من الحق سبحانه وتعالى للشفعاء والمشفوع فيهم أمر ضروري قبل كل شفاعة، وأن الشافعين والمشفوع لهم يكونون أثناء انتظارهم لإِذْنِهِ سبحانه في حالة جزع وفزع لا يدرون هل يُؤْذَنُ لهم أو لا يؤذن، فإذا صدر الإِذْن بالشفاعة من الرحمان الرحيم، ذي العرش العظيم، تبادلوا البشري، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، أي: زال الفزع وارتفع، بالإِذْن لهم في الشفاعة، سأل بعضهم بعضاً، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا الْحَقُّ﴾، أي: قال القول الحق، وهو الإِذْن بالشفاعة لِمَنْ ارتضى، فليس لملك ولا نبي أن يتكلم في ذلك اليوم إلا بإِذْنِهِ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾
قُلْ لَا تَسْأَلُونَنَا عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾
قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا
بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ
مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدُكُمْ
 عَنِ الْهَدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
 لِمَتَارَاؤِ الْعَذَابِ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ
 نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾
 وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلِ
 إِنِّي بِنِعْمَةِ رَبِّي أَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا
 ذُلًّا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضِعْفُ
 بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
 آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلِ إِنِّي
 رَبِّي بِنِعْمَةِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ
 وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ آيَاكُمْ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٥﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
 النَّارِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٧﴾ وَإِذَا تَنَبَّلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
 قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ
 وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَافُكُ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا
 جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٨﴾ وَمَاءَ آتَيْنَهُمْ مِنْ كُنْهِ يَدْرِئُونَهَا
 وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٩﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا
 بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَاءَ آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا أَرْسِلْ فَنَكِيفَ كَانَ نَكِيرٍ ﴿١٠﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين، في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قُلِ اللَّهُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

في الآيات الأخيرة من الربع الماضي وجه كتاب الله الخطاب إلى نبيه، أمراً له أن يتحدى المشركين، ويطلب منهم دعوة شركائهم الذين يتمسكون بعبادتهم، ويعلقون الأمل على شفاعتهم، مسجلاً على أولئك الشركاء العجزة المفاليس، فقرهم المدقع وعجزهم التام، إذ قال تعالى فيما سبق: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾.

وفي بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى نبيه، أمراً له أن يواصل تحدّيه للمشركين، ويوجه إليهم سؤالاً ملحاً عما يرزقهم، وهل أولئك الشركاء الذين يعبدونهم هم الذين يرزقونهم، مع أنهم لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وحيث أنه كان من المنتظر أن يتلعثموا ولا يجيئوا، فقد

أذن الله لنبيه أن يتولى هو بنفسه الجواب نيابة عنهم، بمقتضى لسان الحال، الذي هو أفصح من لسان المقال، وذلك قوله تعالى في السؤال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، فكان الجواب، ﴿قُلْ اللَّهُ﴾.

قال جار الله الزمخشري محلاً السر في توجيه السؤال وتلقي الجواب من مصدر واحد، وهو نفس النبي عليه السلام: «أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾، وذلك للإشعار بأنهم مقررون به بقلوبهم، إلا أنهم رُبَّمَا أبوا أن يتكلموا به، لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق، مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فَمَا لَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾، (١٠ : ٣١) إلى أن قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (١٠ : ٣٢)، فكأنهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة، ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وإصراراً، وحذراً من التزام الحجة».

ورغمًا عن وضوح الحجة وسلامة البرهان، على أن الله الذي يرزق عباده هو الذي يستحق عبادتهم وطاعتهم، وَمَنْ عَبَدَهُ هو الذي يكون على هدى، وأن من لا تأثير له في خلق ولا رزق، ولا شِرْكٌ له في السماوات والأرض، ينبغي أن يُهْمَلَ وَيُسْقَطَ من الحساب، وَمَنْ عَبَدَهُ هو الضال المضل، قال تعالى

مستدرجاً للكافرين المشركين، وإن كان الحق كله مع المؤمنين الموحدين، ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا، وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْلَمُونَ ﴿١٩١﴾.

ونظراً إلى أن اختلاف البشر في معتقداتهم لا سبيل إلى القضاء عليه في الحياة الدنيا ما داموا موكولين إلى اختيارهم، فإن فصل القضاء بينهم لا يتم إلا عند حشرهم ووقوفهم جميعاً بين يدي الله يوم القيامة، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾، أي: القاضي بالحق، العليم بأحوال الخلق.

ولتبكيك المشركين وتسفيه معتقداتهم من جهة، والمزيد من التنازل، أملاً في إقناعهم بالرجوع إلى الحق من جهة أخرى، أمر الله تعالى نبيه أن يقترح عليهم عقد مقارنة وموازنة بين خصال الشركاء الذين ألحقهم بالله، وبين كمالات الله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، وبديهي أنه لا مجال للمقارنة بين صفات الخالق وصفات المخلوق، وبين الحي القيوم، والجماد الشبيه بالمعدوم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ، كَلَّا﴾، أي: ليس له شركاء، ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة الذي قهر بعزته كل شيء، الحكيم في تصرفاته وكلماته، وشرعه وقدره.

وجه كتاب الله الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله، ممتناً عليه، ومؤكداً للناس أجمعين أن الرسالة التي جاء بها رسالة عامة إلى كافة البشر، ولا يقل من حدّها ولا ينقص من شأنها كون

الجاهلين والمعادنين أصرروا على تجاهل أمرها، وعدم الإقرار بها، فستفرض نفسها بحجتها البالغة عليهم جميعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ومن لوازم عموم الرسالة أن يتوجه الرسول إلى الإنسانية جمعاء بالتبليغ والتبشير والإنذار، وأن يكفهم عن الضلال ويرشدهم إلى الهدى على ممر الأجيال والأعصار، وبنفس المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأعراف (١٥٨): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾، وقوله تعالى في سورة الفرقان (١): ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، و«البشارة» لمن أسلم وجهه لله بإحسان، و«النذارة» لمن أسلم وجهه للهوى والشیطان.

وأورد كتاب الله سؤالاً عن موعد قيام الساعة، وهو أحد الأسئلة الغريبة التي يوجهها المتعنتون والمعادنون في كل مناسبة، لا بقصد الاسترشاد، ولكن بقصد التحدي والعناد، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ولَقَدْ رَسُوهُ الجواب المناسب لهذا السؤال: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً، وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، و«الميعاد» ظرف الوعد من مكان أو زمان، وهو هنا للزمان، ولم يُخَفِ كتاب الله وجود طائفة من الكافرين بلغ بها الجحود والعناد، والغلو في الكفر والإلحاد، ليس فقط إلى عدم الاعتراف بالقرآن، وإنكار ما تضمنه من العقائد الثابتة بالحجة والبرهان، بل إلى إنكار جميع الكتب السماوية والعقائد التي جاءت بها الأديان، وذلك قوله

تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ثم بين كتاب الله لرسوله الأعظم ما سيكون عليه يوم القيامة حال الأتباع والمتبوعين، والرؤوساء والمرءوسين، الضالين منهم والمضلين، وهم يتبادلون الاتهام والملام، ويتراشقون بلاذع القول وقارص الكلام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: محبوسون في موقف الحساب بين يدي الله، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾، أي: لو رأيت تحاورهم وتناكرهم وتراجعهم في القول لرأيت مشهداً مريعاً، وموقفاً فظيعاً: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾، وهم الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم القادة، ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم القادة، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾، وهم الأتباع: ﴿أَنْحُنْ صَدَدْتَكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾، أي: الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، أي: القادة، رداً عليهم، ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ، وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً﴾، أي: أن الإجرام لم يكن من جهتنا، بل من جهة مكرهم وخداعكم لنا، واحتيالكم علينا، وبث معتقداتكم الباطلة بيننا باستمرار، في الليل والنهار.

ولما رأوا العذاب رؤساء ومرؤوسين، استولى عليهم الذُّعر والندم، من الرأس إلى أخمص القدم، فبرزت آثاره على أساور وجوههم، وأحاطت الأغلال بأعناقهم. أما القادة والرؤساء فمن

أجل ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، وأما الأتباع والمرؤوسون فمن أجل تسليم مقادتهم لهم والانقياد لأوامرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذاب بحسبهم، وبدلاً من سلاسل الخداع والتضليل، التي كانوا يوثقون بها أعناق الجيل بعد الجيل، ها هي أعناقهم موثقة بسلاسل من أغلال الحديد الثقيل.

وانتقل كتاب الله إلى كشف الغطاء عن الخطة العدائية التي جرى عليها الطغاة المترفون كلما بُعث إلى الناس نبي أو رسول، وما تواطأوا عليه من غلط كبير، ووهم خطير، إذ يظنون أن سعة أموالهم، وكثرة أولادهم هي من دلائل حظوتهم عند الله، فيأمنون مكر الله، جاهلين أن الله تعالى إنما يُمهّل الظالمين، وأن كيده متين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ، قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، فسعة الرزق عند الغني لا تدل على مقامه الكريم عند الله، وضيق ذات اليد عند الفقير لا يفيد هوانه على الله، ووجود الترف، لا يدل على الشرف، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قرر كتاب الله حقيقة دينية ثابتة قام عليها الإسلام، ألا وهي أن قيمة الإنسان عند ربه تقدر بخُلُقهِ القويم، وسلوكه المستقيم، بشكل متواصل ومستديم، ولا دخل للغنى والفقر في

هذا التقويم، وذلك ما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾، أي: ليست الأموال والأولاد دليلاً على حظوتكم عندنا وقربكم منا، إذا لم يزينها الإيمان والعمل الصالح: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، فمن أدى في أمواله حق الله، وأنفق أمواله في سبيل الله، وعلم أولاده الخير وفقههم في الدين، ورباهم على طاعة الله، كانت له الأموال والأولاد نعم الزُلْفَى إلى الله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: لهم الجزاء المضعَّف «الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف»، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفِ ءَامِنُونَ﴾، أي: آمنون من العذاب والأسقام والأحزان.

أما الذين حَدَّثُوا اللَّهَ ورسوله كِبْرًا وعناداً، فستلقاهم الزبانية يوم القيامة من سبعة أبواب، وسيساقون أذلاء مستسلمين إلى ساحة العذاب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِتِنَا﴾، أي: يسعون في إبطال أدلتنا، وتكذيب ما أنزلناه في كتابنا، ﴿مُعْجِزِينَ﴾، أي: معاندين لنا، محاولين تعجيزنا، ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، أي: يساقون مرغمين على الحضور، جزاء ما أصرروا عليه من كفر وفجور.

وأكد كتاب الله مرة أخرى أن مقدار الرزق الذي يناله الإنسان لا يدل على مقامه عند الله، فكثرة الرزق لا تدل على التكريم، وقلته لا تدل على الهوان، لكن «نعم المال الصالح للرجل الصالح» كما جاء في الحديث الشريف، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ،

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴿١﴾، أي: يخلفه عليكم ويعطيكم بدله، إذا كانت النفقة في طاعة الله، وذلك إما بمثله، وإما بالثواب عليه وإدخاره للآخرة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ (٣: ٣٠)، وإما بالقناعة وغنى القلب، «والقناعة كنز لا يفد»، على أن كل ما عند العبد إنما هو من خلق الله ورزقه، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، إذ هو سبحانه خالق الرزق، وخالق الأسباب التي بها يتنفع المرزوق بالرزق، وخزائن رزقه لا تنهاى ولا تنفى ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٦٣: ٧)، قال مجاهد: «لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، مَنْ كَانَ عَنْده مِنْ هَذَا الْمَالِ مَا يَقِيمُهُ فَلْيَقْتَصِدْ فِيهِ، فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ، وَلَعَلَّ مَا قُسِمَ لَهُ قَلِيلٌ، وَلَا يُنْفِقُ جَمِيعَ مَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ يَبْقَى طَوِيلَ عَمْرِهِ فِي فَقْرٍ».

وكما استنكر كتاب الله في الربع الماضي «عبادة الجن» وقضى على روايتها المتخلفة من عهد الجاهلية، عند ما قال في شأنهم: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، وعندما قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، استنكر كتاب الله في هذا الربع عبادة فريق من الناس للملائكة، وجاء هذا الاستنكار، في صيغة سؤال واستفسار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: نحشر الكافرين والمشركين في عرض شامل جامع: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، أي: هل أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، وكنتم راضين عن عبادتهم، فيتبرأ الملائكة منهم

بالمرة، وابدأون جوابهم بتنزيه الله عن كل سوء: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾، أي: تعاليت وتقدست عن أن يُعبد أحد سواك، ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾، أي: أنت ربنا الذي نتولاه وحده بالعبادة، ونخلص له الطاعة، لا نتولى غيرك ولا نعبد سواك.

وسبق في كتاب الله سؤال من هذا النوع، موجه إلى عيسى عليه السلام مع جواب مماثل (٥: ١١٦)، ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ااتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ، سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، ثم واصل الملائكة جوابهم قائلين: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾، أي: أن شياطين الجن هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وخيلوا إليهم أن تلك الأوثان هي على صور الملائكة، فصدّقوهم وآمنوا بهم، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ (٦: ١٠٠)، ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (٣٧: ١٥٨)، قال جار الله الزمخشري: «قد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين براء مما وُجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون تقرير من عبدوهم أشد، وتعيرهم أبلغ، وخجلهم أعظم».

ثم بين كتاب الله أن الآمال التي كان يعلقها عبدة الأوثان والجن والملائكة على معبوداتهم آمال ضائعة، وأن رجاءهم في نفعهم عند نزول الشدائد مآله الخيبة والخسران، فقال تعالى مخاطباً لهم جميعاً: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا

تُكَذِّبُونَ ﴿١﴾، إذ الآخرة دار حساب وجزاء، لا دار تكليف وابتلاء.

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن مزاعم أعداء الرسالة والرسول، وما يحدثونه من البلبلة في النفوس والعقول، وذلك قوله تعالى في وصفهم ووصف مزاعمهم الباطلة: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ، قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ﴾، والإشارة هنا إلى الرسول عليه السلام، ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾، والإشارة هنا إلى القرآن، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، والإشارة هنا إلى الحق.

وهكذا انحصرت مزاعمهم ضد الرسالة والرسول في وجوب التقليد الأعمى لمعتقدات الجاهلية والتمسك بها، ورمي الرسالة بكونها مجرد كذب وسحر، دون الدخول في مناقشة محتوياتها، ومحاولة التصدي لإبطالها بالدليل والبرهان، علماً منهم بأن رسالة القرآن وحدها هي التي تأخذ قَصَبُ السبق وتفوز في الرهان، لأن حجتها فيها، ودليلها منها، إذ لا كتاب أبين من كتاب الله، ولذلك وصف كتاب الله الآيات بأنها «بينات»، والحق أن موقف الذين تمسكوا بالشرك والكفر من العرب كان موقفاً غريباً، فبعدما ظلوا قروناً طويلاً منذ عهد إسماعيل يتطلعون إلى أن يُبعث إليهم رسول، وَيَنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِمْ كتاب، مثل الأقوام الآخرين، ﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾، إذا بهم عندما أكرمهم الله بخاتم رسله، وأنزل عليه خاتم كتبه، يتكفرون له، ويكفرون به، ويعلنون الحرب عليه، وكان من

المعقول والمتنظر أن يتلقفوا رسالته ويتلقوها بكلتا اليدين، لأنها رسالة حق وصدق لا شك فيها ولا مِثْن.

وختَم هذا الربع بالإشارة إلى أن وجود روافض مُكذِّبين يتبجحون بتكذيب الرسل ورفض الرسالات الإلهية ليس بدعاً في تاريخ البشر، لاختلاف الاستعدادات الطبيعية، واختلاف المستويات الفكرية، واختلاف الأهواء والاختيارات الشخصية، واختلاف البيئات الاجتماعية، لكن عاقبة الرفض والتكذيب كانت دائماً هي إنزال العقاب بالمكذِّبين، وكان عقابهم من الله بالتدمير والتعذيب، وذلك هو «النكير» العظيم، الذي يشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَمَا بَلَّغُوا مِيعَاتِ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ إِنَّمَا

أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِيٍّ وَقُرْدِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا
بَصَحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ وَأِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنْ رَأَيْتَ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عِلْمٌ
الْغُيُوبِ ﴿١٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿١٩﴾
قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا
يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا
قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا أَمْتَابِيَّةٌ وَأَبْنَى لَهُمْ
الْتِّسَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٢٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٢٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٢٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِةَ رُسُلًا أُولَئِكَ
 أَجْنَحَةٌ مَشْنُوءَةٌ وَثُلُثٌ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
 وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ②
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ
 يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُفَكُونَ ③
 وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
 الْأُمُورُ ④ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
 فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ أَفَمَنْ رَزَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَبَاءَ حَسَنًا
 فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ
 الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ

بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ① مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
 جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
 يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ
 يَبُورُ ② وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
 أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ نَثْوٍ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ
 وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ③
 وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ
 أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا
 وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ④
 يُوجِبُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُوجِبُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتَخِرُّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 كُلُّ يَمْرٍءٍ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمْرُ اللَّهِ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ⑤ إِنْ تَدْعُوهُمْ
 لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ⑥

الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذا اليوم مع الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، إلى قوله تعالى في سورة فاطر المكية أيضاً: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

في بداية هذا الربع لَقَنَ كتابُ الله لرسوله الأعظم ما يُواجه به الشاكين والمعاندين، لإفحامهم وإقناعهم، وللقضاء على شكهم وعنادهم، داعياً إياهم إلى الالتقاء معه على كلمة سواء، وهذه الكلمة الواحدة الجامعة المانعة هي أن ينهضوا وينتصبوا للبحث عن «الحق المطلق» في أمر الرسول وأمر الرسالة، متجردين من كل هوى وعصية وفكر مُسَبِّق، مستخدمين العقل والمنطق، وملكة التفكير العميق، في دراسة هذا الأمر دراسة موضوعية، على أن تتم هذه الدراسة بطريقة «فردية» متأنية، حتى لا يتأثر أحدهم بالآخر، وبطريقة «ثنائية» وجماعية، حتى يناظر كل واحد الآخر، ويقارن النتيجة التي وصل إليها بما وصل إليه قرينه

من رأي، وبهذا الأسلوب المزدوج، من تمحيص أمر الرسول والرسالة تمحيصاً موضوعياً، دون عصبية ولا هوى، يثبت الحق ويزهق الباطل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾، أي: بكلمة واحدة هي أجمع جوامع الكلم، ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي: أن تقوموا للبحث عن الحقيقة وطلب الحق بكامل التجرد والإخلاص لوجه الله، ﴿مَثْنَى﴾، أي: اثنين، عندما يكون الواحد منكم مع غيره، ﴿وَفُرَادَى﴾، أي: واحداً واحداً عندما يكون الواحد منكم منفرداً بنفسه، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، أي: منفردين ومجتمعين، وتستخدموا فكريكم على فطرته وسجيته، وتقبلوا وجوه النظر في أمر الرسول وأمر الرسالة، قال جار الله الزمخشري: «أما الاثنان فيتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع الهوى، ولا ينفض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح، على جادة الحق وسنته، وكذلك الفرد، يفكر في نفسه بعد ونصفة، من غير أن يكابرهما، ويعرض فكره على عقله وذهنه، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم» ونقل القرطبي عن بعض المفسرين تعليقا على قوله تعالى هنا: ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾: «أن العقل حجة الله على العباد، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا ﴿فُرَادَى﴾ كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا ﴿مَثْنَى﴾ تقابل الذهنان، فترأى من العلم لهما ما أضعف على الأفراد»، أي: ما زاد على الأفراد، أضعافاً مضاعفة.

وَمَتَى أَنْعَمُوا النِّظَرَ، عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمَعْتَبَرِ، رَفَضُوا مَزَاعِمَ
 الْمَعَانِدِينَ وَالْمَكْذِبِينَ، وَأَدْرَكُوا عَنْ عِلْمٍ وَبَقِيْن، إِنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصَدَقًا، وَأَنَّهُ خَاتَمَ الرُّسُلِ الْمُبْعُوْثُ
 إِلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَبِذَلِكَ يَبْطُلُ تَلْقَائِيَّاءُ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ
 «سَاحِرٌ»، إِذْ لَا أَثَرَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ لِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحَرِ،
 وَيَبْطُلُ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ «شَاعِرٌ» إِذْ لَا تَشَابَهَ بَيْنَ آيَاتِ الذِّكْرِ
 الْحَكِيمِ وَبَيْنَ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ، وَيَبْطُلُ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ
 «مَجْنُونٌ»، إِذْ لَا يَبْدُو فِي تَصَرُّفَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ أَيُّ أَثَرٍ مِنْ أَثَارِ
 الْجُنُونِ. وَكَيْفَ يَنْسَبُ الْجُنُونُ إِلَى مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ،
 وَأَكْرَمَهُ بِمِزْيَةِ التَّحْصِينِ وَالْعِصْمَةِ: ﴿مَا بِصَنْجِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ، إِنَّ
 هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وَجَرِيًّا عَلَى مَا دَرَجَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ
 مِنْذُ أَقْدَمَ الْقَدَمِ، مِنَ التَّطَوُّعِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ، وَالتَّرَفُّعِ
 عَنْ تَنَاوُلِ أَيِّ أَجْرٍ عَلَى مَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ،
 خَاطَبَ كِتَابُ اللَّهِ خَاتَمَ رِسَالِهِ قَائِلًا: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ
 لَكُمْ، إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثُمَّ إِنَّ «الْحَقَّ»، لَا بَدَّ أَنْ يَنْتَصِرَ، وَ«الْبَاطِلُ»، لَا بَدَّ
 أَنْ يَنْدَحِرَ، وَمَا عَلَى الرُّسُولِ الْأَعْظَمِ إِلَّا أَنْ يَضَعَ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ
 شَكَّ أَمَامَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ النَّاصِعَةِ: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ
 بِالْحَقِّ﴾، ! أَيُّ: يَرْمِي بِهِ الْبَاطِلُ، فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، ﴿عَلَّمَ
 الْغُيُوبَ، قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، أَيُّ: لَا
 يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ لِأَهْلِهِ خَيْرًا وَلَا يَعِيدُهُ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ،

وسبق قوله تعالى في سورة الإسراء (٨١): ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

ومن المواقف الحاسمة التي طُبِّقت فيها هذه الآيات الكريمة، في الوقت المناسب، والموقف المناسب، أن رسول الله ﷺ عندما فتح مكة ودخل الكعبة، ووجد حولها ثلاثمائة وستين صنماً جعل يطعنها بسية قوسه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، و(سِية القوس) ما عُطِفَ من طرفيها.

وردّاً على ما كان يزعمه المشركون من أن عقيدة التوحيد التي يدعوا إليها رسول الله، ويبرهن عليها كتاب الله، إنما هي مجرد ضلال وانحراف، وأن الوثنية التي درجوا عليها هي الحق الصراح، أكد لهم الرسول عليه السلام بأمر من ربه أنه سيظل وفيّاً لعقيدة التوحيد، متمسكاً بها، وداعياً إليها، حاملاً رايته، متحملاً كل النتائج التي تترتب على الإيمان بها والدعوة إليها، بالرغم من كونهم يعتبرونها ضلالاً وانحرافاً، مُهْتَدِياً بالمبدأ القرآني القويم، الْمَطَابِقُ للمنطق السليم، ﴿مَنْ إِهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٧: ١٥)، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾، وهذا هو الشق الأول من الرد، أما الشق الثاني فقد جاء بأكثر مما كان يُتَنَظَرُ، إذ تضمن إشارة إلى أن قدرة العقل على التفكير الصحيح ومعرفة الحق، التي سبق التنبيه إليها عند قوله تعالى في الآية الأولى من هذا الربع، ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾، هي وإن كانت أساساً للنظر، والوصول

إلى الاقتناع والاعتقاد، تَظَلُّ قُدْرَةً محدودة تكتنفها السُّحْب والغيوم في كثير من الأحيان، ولذلك فهي لا تستغني عن الهداية الإلهية، التي يحمل «الوحي الإلهي» مشعلها الكشاف المنير، فالوحي الإلهي - لكونه منبثقاً من منبع النور نفسه - له نور قوي تخترق أشعته جميع الحجب التي تعترض العقل في طريقه، فيهتدي العقل بمعونته إلى اكتشاف الحق ومعرفته في كثير من المجالات، وهذا هو المعنى الإضافي الذي جاء به الشق الثاني من رد الرسول على المشركين ومن كان على شاكلتهم إذ يقول: ﴿وَإِنْ إِهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾.

ثم عَقَّبَ كتابُ الله على ذلك كله بقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ إشارةً إلى أن الله تعالى مطلع على كل ما يدور بين الرسول وخصوم الرسالات من جدل وحوار، وأنه يبارك ذلك الحوار الموصول الحلقات، عسى أن يقتنع الشاكون والجاحدون بما يقدمه لهم كتاب الله من الحجج والبراهين، ويهتدوا إلى الحق المبين، ويقولوه: ﴿قَرِيبٌ﴾، إشارةً إلى أن من طرق باب الحق سبحانه وتعالى ملتمساً للهداية، نال منه ما يرجوه وأشرف على الغاية، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، (٥٠: ١٦).

وتعريفاً ببعض المشاهد المثيرة التي سيكون عليها خصوم الرسالات الإلهية يوم الفَرْع الأكبر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ﴾، ووقت الفَرْع هو وقت البعث وقيام الساعة، ومعنى ﴿لَا قُوَّةَ﴾، أنهم لا يُفْلِتُونَ من سطوة الله، ولا أمل لهم

في النجاة، ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، فمن كان منهم في مكان سحيق لم يحلَّ بعدُ المسافة بينه وبين عذاب الله، ومن حاول منهم الفرار لم يستطع أن يفلت من قبضة الله، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (٣٩: ٧١)، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾، أي: عندما رأوا العذاب رأي العين آمنوا بالرسول ورسالته بحكم الاضطرار، لكن الإيمان من هذا النوع وفي مثل هذا الوقت ليس له أي اعتبار، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ، وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أنى لهم أن يتداركوا في الآخرة ما ضيعوه في الدنيا، مع أن الدنيا هي دار التكليف والإبتلاء، والآخرة إنما هي دار الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يلقون الكلام على عواهنه دون تحفظ أو تثبت، ويتفننون في إلقاء التهم دون تريث، فتارة يتهمون الرسول بأنه ساحر، وتارة أخرى يتهمون به بأنه شاعر، وتارة يتهمون به بأنه كاهن، وتارة أخرى يتهمون به بأنه مجنون، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام بريء من ذلك كله، بعيدٌ عنه بُعدُ السماء من الأرض، ولا سند لهم في ذلك إلا «الرَّجْمُ بِالْغَيْبِ» والتحدِّي بالعناد والرفض، ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾، أي: لما كان همهم الأول والأخير وشغلهم الشاغل هو التمتع بالشهوات والملذات، في جميع الأحوال والأوقات، فوجئوا في دار الجزاء بالحرمان التام، كما فُعِلَ بمن كان على شاكلتهم من سالف الأمم والأقوام.

ثم كشف كتاب الله عن السر فيما تعرضوا له من الأهوال،

مبيناً أن «الشك» الذي كان مسيطراً على عقولهم هو علة العلل فيما أصاب حياتهم من الانتكاس والاختلال، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾.

والآن وقد انتهينا بفضل الله وعونه من تفسير سورة سبأ المكية نشرع بحول الله وقوته في تفسير سورة فاطر المكية أيضاً، وتسمى أيضاً سورة (الملائكة) وإنما أطلق عليها سورة فاطر وسورة الملائكة معاً، لقول الله تعالى في الآية الأولى منها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾.

وقد افتتح كتاب الله هذه السورة الكريمة بتمجيد الله والثناء عليه، تلقيناً لعباده المؤمنين، حتى يقدروا الله حق قدره، ويلتزموا طاعته والوقوف عند نهيه وأمره، مبيناً أن أحق من يحمده العباد ويعبدونه هو المَنعم عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الأمداد، خالق الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، ومُرسل الملائكة إلى الرسل والأنبياء، لهداية الإنسانية جمعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما، ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: بينه وبين الأنبياء، كما قال تعالى في آية أخرى (٤٢: ٥١)، ﴿أَوْ يُرْسِلْ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾، ﴿أَوَّلَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّثْنَىٰ وَتُلَاثٍ وَرُبْعٍ﴾، أي: رسلاً لتبليغ الأوامر الإلهية، وتنفيذ مقتضياتها في العوالم العلوية والسفلية، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٧٤: ٣١)، ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار،

لا تحُدُّ قدرته حدود، ولا تقيد مشيئته قيود، فعملية الخلق لا تنقطع على مر الأيام، وخلقُه قابلٌ للزيادة والتطور على الدوام، ومن ذلك ما تمتازُ به الأفراد والأقوام، رغم اشتراكها مع غيرها في التكوين العام، قال جار الله الزمخشري عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: «والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامه، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجراءة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأنٍ في مزاوله الأمور، وما أشبه ذلك، مما لا يحيط به الوصف».

ثم بين كتاب الله إلى أي حد تبلغ سعة رحمة الله وسعة قدرته، منبهاً إلى أنه لا أحد في الكون يستطيع كَفِّ رحمته وإمساكها، في الوقت الذي تقتضي حكمته إرسالها، كما أنه لا أحد في الكون يستطيع إرسال رحمته، في الوقت الذي تقتضي حكمته إمساكها، وفي كلا الأمرين حكمه إلهية بالغة، ومصلحة محققة لنفس الإنسان، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥: ٢١)، وذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ومن رحمته إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتصريف الرياح وإثارة السحب، ومن رحمته الهداية والتوفيق، إلى أقوم طريق، والتوبة من الذنوب، وتفريج الكرب. وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾، بالتذكير يتناول

جميع أنواع الرحمات في السر والعلن، ما ظهر منها وما بطن.

ووجه كتاب الله في هذا الربع خطابتين اثنتين إلى الناس أجمعين، لا فرق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ففي الخطاب الأول دعاهم إلى الإفاقة من سكرتهم وغفلتهم، واستحضار نعمة الله عليهم، والقيام بالشكر الواجب في حقهم، وذكرهم بأن كل ما يتصرفون فيه من أرزاق ويتقبلون فيه من نعم، إنما هو من فضله العميم، وعطائه الكريم، ثم نعى عليهم انصرافهم عن شكره، وتحديهم لأمره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ومن رزق السماء المطر، ومن رزق الأرض النبات، وبدونهما لا يمكن للنوع الإنساني عيش ولا اقتيات، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَإِنِّي تُوفِّكُونَ﴾ من «الإفك» بالكسر، وهو ممارسة الكذب، أو من «الأفك» بالفتح وهو الصرف عن الأمر والانصراف عنه. وعقب كتاب الله على ذلك بأن ما تتعرض له رسالة الرسول من شغب وتشويه لا ينال مقام الرسول بسوء، وأن القول الأخير والفصل في شأن خصوم الرسالات، سيتم يوم الفصل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

وفي الخطاب الثاني الموجه إلى الناس كافة مثل الأول، دعاهم كتاب الله إلى التخلي عن الظن والشك والوهم والتخمين، والإيمان باليوم الآخر بجميع سوابقه ولواحقه عن بينة و يقين، وحضهم على الاعتدال في الأخذ من حظوظ الدنيا، بغية التفرغ

لحقوق الآخرة، لإقامة توازن وتكامل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ووعد الحق هو التعرض للموت والبعث والثواب والعقاب ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، والغرور بها هو استغراق العمر كله أو جلّه في التمتع ب لذاتها، ونسيان الآخرة بعدم الاستعداد لعواقبها، والغفلة عن التفكير في تبعاتها، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، هذا تحذير من وساوس الشيطان، الذي تعهد، منذ استخلاف آدم في الأرض، بخداع الإنسان، ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤: ١٢٠)، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وتعريفاً بما يؤول إليه أمر الكافرين والمؤمنين في الآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

وحيث إن الرسول عليه السلام كان يغتم كثيراً، ويحزن حزناً كبيراً، لإصرار المشركين على شركهم، والكافرين على كفرهم، والمنافقين على نفاقهم، دعاه الحق سبحانه وتعالى إلى الرفق بنفسه، إذ ليس عليه هداهم، وإنما عليه البلاغ، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا، فَإِنْ أَلَّهُ يَظِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران (١٧٦): ﴿وَلَا يُحْزِنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

واستعرض كتاب الله في هذا السياق، جملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، ليذكر بها من يمرون عليها وهم عنها معرضون.

فمن آيات الله في الأنفس قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى، وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، قال سعيد بن جبير: «ما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبله فهو الذي يُعمره، وبذلك تتفق هذه الآية مع قوله تعالى (١٠: ٤٩)، ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ومن آيات الله في الآفاق قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبِيرُ سَحَابًا، فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾، أي: أن بعث الأموات يماثل إحياء الأرض الموات، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾، أي: ما تستوي البحار وكبريات الأنهار، ﴿هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَائِغُ شَرَابِهِ، وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ، وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد كان المتعارف بين الناس أن الحلية إنما تستخرج من البحار، لكن أثبت البحث الآن أنها تستخرج حتى من بعض الأنهار، مصداقاً لما ورد في القرآن، وفُسرَت الحلية في هذا المقام باللؤلؤ والمرجان. وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٤﴾، والأجل المسمى «هو الذي يتوقف فيه جريان الشمس والقمر»، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٥﴾﴾ (٤٨ : ١٤).

ولنعد الآن إلى الآيات الكريمة التي تخللت آيات الله في الأنفس والآفاق، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾، أي: أن من طلب العزة من الله بافتقار وخضوع، وخشية وخشوع، وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة، لأنها بالصدق والإخلاص مطلوبة، ومن طلبها من سواه، لم ينل منها. وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، أي: إن العمل الصالح إذا تعاضد مع القول الطيب زاد في قبوله ورفع، وضاعف من حسن وقعه، كما أن القول الطيب إذا تعاضد مع العمل الصالح كان العمل به أتم وأكمل، وأشرف وأفضل. قال ابن عطية: «والحق أن العاصي إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له، متقبل منه، وله حسناته، وعليه سيئاته». وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: أن من يمكر بالناس ويوهمهم أنه في طاعة الله، كذباً ورياء، سيعذبه الله في الآخرة، وسيكشف زيفه في الدنيا، فمن أسر سريرة ألبسه الله رداءها.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، أي: أن الله تعالى هو الذي بيده الملك والملكوت، وعنده خزائن السماوات والأرض، فهو الخالق والرازق والمدبر الذي يدبر الأمر، وما يتصرف فيه الإنسان، - انطلاقاً من نفسه التي بين

جنبه - إنما هو عارية مستردة على وجه الارتفاق والانتفاع، ولا يملك أحد - على وجه التحقيق - ملكية مطلقة، حتى القشرة الرقيقة البيضاء، التي تفصل بين الثمرة والنواة، وهي ما يطلق عليه اسم «القطمير»، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

وختم هذا الربع بتسفيه معتقدات الشرك، وإقامة الحجة على المشركين الذين تتعلق آمالهم «بشركاء» عاجزين، لا ينفعونهم في الدنيا، ويتبرأون منهم في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾، وحيث أن الحق سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم السر في السماوات والأرض، ولا أحد أخبر منه بخلقه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧: ١٤): ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

الثلث الأول من الربع الثالث في
الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا

النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑩ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⑪ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑫
وَلَا تَذِرُوا زُرَّةً وَزَرَ أَخْرَجْنِي وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ أَحْمَلِهَا
لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَذَكَّرْ فَإِنَّمَا
يَتَذَكَّرْ لِنَفْسِهِ ⑬ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ⑭ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ ⑮ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ⑯ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ⑰
وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ
وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ⑱ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ⑲ إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ⑳
وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ شَجَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ
 بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿١٧﴾ وَمِنَ
 النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلَا نَعْلَمُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۚ كَذَلِكَ إِنَّمَا
 يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَامِلُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا
 مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٠﴾
 لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ
 شَكُورٌ ﴿٢١﴾

الثلث الأول من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الأول من الربع الثالث في
الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم، ابتداءً من قوله
تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ
إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ
تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ
شَكُورٌ﴾.

بعدما دعا كتاب الله في الربع الماضي الناس كافة، البرّ
منهم والفاجر، والمؤمن والكافر، إلى أن يتذكروا نعمة الله
عليهم، ومدده الواصل دون انقطاع إليهم، إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وبعدما أعلن للجميع أن الله تعالى هو
وحده مالك الملك، لا يشاركه في ملكه أحد، إذ قال تعالى:
﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، عقب على ذلك في بداية هذا
الربع بتقرير حقيقة كونية وبشرية لا مفر لكل إنسان من الاعتراف
بها، ولو حاول أن يتجاهلها ويتغافل عنها، ألا وهي أن النوع

الإنساني وإن بلغ ما بلغ من العتو والاستكبار، والادعاء العريض للسعة والغنى والتحكم في مجاري الأقدار، كان ولا يزال وسيظل يتعثر في أذيال الفقر والاحتياج باستمرار، وذلك قوله تعالى هنا يخاطب الناس جميعاً، حتى يُخَفَّفُوا مِنْ غُلُوثِهِمْ، ويترجعوا عن غرورهم وادعائهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، فقراء إلى توجيهه وهدايته، فقراء إلى توفيقه ورعايته، فقراء إلى رزقه ورحمته، فقراء إلى عفوه ومغفرته، وأنتم من بين جميع الخلائق أشدَّ الخلائق افتقاراً إليه، واضطراباً إلى الاعتماد عليه، لتنوع حاجاتكم، وكثرة رغباتكم، وما أنتم عليه من إغراق في الخيال، وتعلق شديد بالأمني والآمال، وعناد وإلحاح ودلال، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ (٤: ٢٨)، فالفقر هو صفة الإنسان الطبيعية، وغناه الطارئ إنما هو مجرد عارية، والغنى الحقيقي والمطلق والدائم هو صفة الذات العلية ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، وكل ما تتقلبون فيه من النعم الظاهرة والباطنة إنما هو من صنع الله، وهبة مهداة إليكم من الله، وقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدُ﴾ بعد وصفه «بالغني» إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى وإن انفرد بوصف الغنى الحقيقي دون عبادِهِ الفقراء، فإنه لا يبخل عليهم بالإمداد المتواصل والعطاء، وإذن فليس في وصف الله لهم بالفقر أي تحقير أو ازدراء، وإنما هو نوع من الإشارة والتنبيه والإغراء، والذين يَقْدُرُونَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حق قدرها، لا بد أن يحمداوا المُنْعِمَ بها ويؤدوا واجب شكرها، فهو «غني» يسدُّ فقرهم، «حميد» يستحق شكرهم، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (٣٩: ٧).

ويكفي أن يتذكر الإنسان ما يصيبه من حيرة وذهول، عندما يفاجأ بما لم يكن في الحُساب، فتختل موازين حياته العادية، ويشعر بأنه قد نزلت بساحته أكبر داهية، وبذلك يظهر الفقر الطبيعي للإنسان، ويتجلى عجزه البالغ للعيان، ولا تعود حياته سيرتها الأولى إلا إذا حفته الألفاظ الخفية، فمن الله عليه، وأمه من جديد بما يحتاج إليه، وصدق الله العظيم إذ قال في فاتحة هذه السورة: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وتنبيهاً للغافلين السادرين في غفلاتهم، وتحذيراً للعصاة المصرين على عصيانهم، المتمردين على طاعة الله، والمتعدين حدود الله، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، شعوباً أو دولاً أو حكومات، خاطبهم الحق سبحانه وتعالى منذراً ومحذراً، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ذلك أن الله تعالى لم يستخلف الإنسان في الأرض ليفسد فيها ويسفك الدماء، ويمارس المنكر والفحشاء، وإنما استخلفه ليقوم فوق سطحها دولة الفضيلة والصلاح والعدل والإخاء، وهو سبحانه وتعالى قادر على أن يعاقب الإنسان بالسلب بعد العطاء، متى أخل برسالة الخلافة وأهملها، ولم يتعظ بعاقبة السوء التي أصابت كل من تنكر لها وعطلها، وصدق الله العظيم إذ قال (٦: ١٣٣): ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾، وإذ قال (٤: ١٣٣): ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾.

وليؤكد كتابُ الله إمكان هذا التأديب الإلهي الصارم، قال تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي: ليس ذلك على قدرة الله وحكمته بمتعذر ولا ممتنع، بل هو أمر واقع، ليس له من دافع، فكم من أجيال فاسدة لقيت مصرعها ودخلت في خبر كان، فحلت محلها أجيال صالحة، لأن كَفَتْها أصبحت في كَفِّ القَدَر وميزان الحق راجحة.

على أن قوله تعالى هنا في سورة فاطر المكية: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، إنما هو تأكيد جديد لنفس الإنذار الإلهي الذي سبق في سورة إبراهيم المكية أيضاً، في مثل هذا السياق، وبنفس اللفظ والمعنى، حيث قال تعالى (٢٠): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، وسيجدد كتاب الله التذكير بهذه الحقائق مرة أخرى في سورة «محمد» عند قوله تعالى (٣٨): ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

ونظراً لأن الدنيا دار ازدواج وامتزاج يوجد فيها الصالح والطالح، والعاصي والمطيع، ومن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإن كتاب الله اعتبر كل شخص مسؤولاً عن عمله الخاص من صلاح أو فساد، وطاعة أو معصية، ولم يعتبره مسؤولاً شخصياً عن

عمل غيره من الناس، وإن كانت عاقبة فساد المفسدين قد تعم الجميع في الحياة الدنيا، فتُهْلِك الحرث والنسل، وتحرق الأخضر واليابس، على حد قوله ﷺ وقد سئل: «أنهْلِك وَفِينَا الصالحون؟» قال: «نعم، إذا كثر الخبيث».

وهذا المبدأ، مبدأ المسؤولية الفردية، المتعلقة بكل شخص بمفرده، يوم الجزاء، وأمام القضاء، قرره كتاب الله وأكَّده في غير ما سورة وغير ما آية. وورد بنفس اللفظ والمعنى في سورة الأنعام: (١٦٤)، وسورة الإسراء: (١٥)، وسورة الزمر: (٧)، وسورة النجم: (٣٨)، وهنا في سورة فاطر، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وهذه السور كلها سور مكية، مما يدل على أن مبدأ مسؤولية كل فرد عن عمله الخاص، وعدم مؤاخذته بعمل غيره، ولا مؤاخذه الغير بعمله، يُكوِّن جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، وأصلاً أساسياً من أصول التشريع الإسلامي، ومن بين الآيات التي قررت وأكدت هذا المبدأ العادل قوله تعالى (٥٢: ٢١): ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾، وقوله تعالى (٥٣: ٣٩): ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَى الْجُزَاءَ الْآوْفَى﴾، وذلك على خلاف المعمول به في عرف الطغاة المستبدين، قديماً وحديثاً، من مؤاخذه الفرد بعمل غيره، وإن كان لا دخل له فيه من قريب ولا من بعيد.

وليُوضَّح كتاب الله ثقل المسؤولية الشخصية، الملقاة على عاتق كل فرد، صوِّر لنا الشخص وهو يمشي مثقلاً بأوزاره، يلتمس من رفاقه في القافلة إعانته والتخفيف عنه، فلا يستجيب له

أحد، ولو كان من أقرب الأقربين، لأن كل واحد منهم ينوء بحمله الخاص، ولسان حاله يقول: «نفسي نفسي»، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٨٠: ٣٧) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

وقوله تعالى خطاباً لنبيه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، إشارة إلى أن الموعظة الحسنة إنما تحدث أثرها، وتؤدي أكلها على الوجه الأكمل، عندما يكون المستمع إليها والمتفعل بها ممن يؤمن بالله، ويؤدي حقوق الله، ومن فعل ذلك وأقبل على ممارسة العمل الصالح عادت بركته عليه، وانجر نفعه إليه، فعاش عيشة طيبة طاهر القلب، طاهر العرض، زكي النفس: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾، أما الله تعالى فهو غني عن عباده غني مطلقاً، بحيث لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: إليه سبحانه مرجع الخلق أجمعين، العصاة منهم والطائعين، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١٨: ٤٩).

وتصويراً للبون الشاسع بين المؤمن وغير المؤمن، حتى إن الفرق بينهما يماثل الفرق بين الأعمى والبصير، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، ومثل كتاب الله أوهام الشرك وضلالات الكفر «بالظلمات»، وحقيقة الإيمان والتوحيد «بالنور»، فقال تعالى: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، أي: لا تستوي الظلمات والنور أبداً، وحيث أن مغالطات الشرك ووجوه الكفر

متعددة لا تحصى جاءت كلمة «الظلمات» المعبرة عنها بصيغة الجمع، على خلاف حقيقة الإيمان والتوحيد، التي هي حقيقة واحدة لا تقبل التعدد، فجاء لفظ «النور» المعبر عنها بصيغة المفرد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾، إشارة إلى ما يكرم الله به المؤمنين من عباده في الجنة من الظل الظليل والنعيم المقيم، وما يسلطه على المشركين والكفرة في حر جهنم من العذاب الأليم، وذلك علاوة على ما تنعم به قلوب المؤمنين في الحياة الدنيا من سكينة وطمأنينة، وما تكون عليه قلوب غيرهم من قلق وبلبلة واضطراب، وتعرض لانهيار الأعصاب، لإتقنه الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوْتُ﴾، إشارة إلى أن التفاوت بين المؤمن وغير المؤمن قد تتسع شقته، فيتجاوز درجة الفرق بين الأعمى والبصير، ليصل إلى درجة الفرق بين الحي والميت، نظراً لرسوخ الكفر في قلب الكافر، وتبلد حسه الباطن والظاهر، وسبق في سورة الأنعام قوله تعالى (١٢٢): ﴿أَوْ مِمَّنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى مكتفياً من رسوله الأمين بما قام به من تبليغ وإنذار، في حق من أصرَّ على كفره بالغ الإصرار: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يُشَاءُ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ، إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

وتذكيراً لرسوله الأمين، بما أصاب الرسل السالفين، وما تعرضت له رسالاتهم من طرف المكذبين، رغماً عما رافقها وأيدها من المعجزات التي تثبت أنهم كانوا صادقين، وتعريفاً للناس أجمعين، بما لحق أعداء الرسالات السابقة من العذاب المهيمن، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ، وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، وَبِالزُّبُرِ، وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: أن عقاب الله لهم كان فوق الوصف، فليحذر اللاحقون أن يعاقبوا بمثل ما عوقب به السابقون.

وبعد ما وصف كتاب الله جملة من أحوال المكذبين الضالين، وما يتعرضون له من شقاء في الدنيا وعذاب يوم الدين، استأنف كتاب الله دعوته المثلى، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فوجه الخطاب إلى كل إنسان عنده بصر وبصيرة، ليتفكر ويتدبر في ظواهر الكون الفسيح المحيط به، حتى يتكون عنده شيء من العلم بتلك الظواهر، فيسخرها ويستفيد بها، وينطلق منها إلى الإيمان بوجود خالقها ووحدانيته، والاعتراف بقدرته مبدعها وحكمته، والإقرار بوجوب طاعته وعبادته، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ،

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١﴾، ففي هذه الآيات الكريمة دعوة من الله للإنسان، أيّاً كان، إلى أن يستعمل حواسه وعقله، في تتبع واستقراء كل ما يراه حوله، عسى أن يستخلص النتائج والعبر من ذلك الاستقراء، للارتفاع إلى مصاف العلماء.

وقد أبرز كتاب الله في هذه الآيات بالخصوص ظاهرة اختلاف الألوان، في الحيوان والإنسان، والجماد والنبات: فبالنسبة لألوان النبات نجد قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

وبالنسبة لألوان الجماد نجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾.

وبالنسبة لألوان الإنسان والحيوان نجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾.

وسبق في سورة «الروم» قوله تعالى (٢١): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ اللَّسَانِ وَاللَّسَانِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وواضح أن من استعرض في صعيد واحد نماذج من جميع أصناف الإنسان والحيوان، المنتشرة في أطراف العالم، أو استعرض نماذج من جميع أنواع النبات وأصناف الثمرات، التي تزخر بها الطبيعة، ولاحظ ما بينها من تفاوت في الألوان والسّمات، وتفاوت في نفس اللون الواحد الذي تختلف فيه الدرجات، لرأي العجب العجائب، مما تحار فيه الأبواب، وكذلك

الأمر عندما يستعرض الإنسان أنواع الأحجار والصخور والجبال، وما هي عليه من ألوان تبهر الخيال، وتُمثل الجمال والجلال، فيرى إلى أي حد تتصرف قدرة الله الكبير المتعال.

ولفظ «الجُدَد» في قوله تعالى هنا: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾، جمع «جُدَّة»، وتطلق على الجزء من الشيء الواحد، إذا كان لونه يخالف لون الباقي، وواضح أن شعاب الجبال وثناياها يختلف لون بعضها عن بعض، فتزداد تنوعاً وتألقاً، يقال: «طريق مجدود» أي طريق مسلوك، و«الجادة» وسط الطريق.

ولفظ «الغرايب» في قوله تعالى هنا: ﴿غَرَائِبُ سُودٌ﴾، جمع (غريب)، أي: شديد السواد، تشبيهاً بلون الغراب الأسود.

ولفظ ﴿إِلْعَلْمُوْا﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ إِلْعَلْمُوْا﴾، لا يقتصر على أهل الفقه والأثر، الذين ورثوا «العلم النبوي الشريف» فكانوا أمناء على تبليغه ونشره، بل يشملهم ويشمل كل من نال حظاً من العلم، - ولا سيما العلم بأسرار الكون وحقائق الطبيعة - فسخره لخير الإنسان، وجعله معراجاً للدخول في حظيرة الإيمان، والتحق بركب الصالحين من «عباد الرحمان»، والمراد «بالخشية» هنا تلك الحالة النفسية والروحية التي تهز كيان المؤمن، فتجعله يُقبل على الله من كل قلبه، ويتهب الأقدام على معصية ربه، ولا ينبغي أن يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ إِلْعَلْمُوْا﴾، أن الخشية لا تكون إلا من عالم منتصب لنشر العلم، إذ كثير من المؤمنين، غير العلماء المنتصبين، يخشون الله، لأن عندهم حظاً من العلم بالله،

وإنما المراد أن الخشية على وجهها الصحيح الكامل لا يتصف بها إلا العالم الكامل، قال ابن كثير: «كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر» وقال القشيري: «من فقد العلم بالله فلا خشية له من الله»، وقال الربيع بن أنس: «من لم يخش الله تعالى فليس بعالم».

وقوله تعالى تعقيماً على ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، إشارة إلى أنه بوصفه «عزیزاً»، سيعامل المُسيء بمقتضى «العزة»، وبوصفه «غفوراً» سيعامل المحسن بمقتضى «المغفرة».

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة المؤمن المثالي، التي ينبغي أن يطمح إليها كل مؤمن. ويُستخلص من الآيات الواردة في هذا الوصف أن المؤمن «المثالي» هو الذي يتخذ من كتاب الله دليلاً ورفيقاً في حياته اليومية، وهو الذي يؤدي حقوق الله وحقوق العباد عن رغبة وطوعية، وهو الذي لا يختلف حاله في السر عن حاله في العلانية، وأضاف كتاب الله إلى هذا الوصف ما يكون عليه المؤمن «المثالي» من تفاؤل ورجاء، في حسن العاقبة وحسن الجزاء، فقال تعالى في وصف هذا الصنف من المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ، لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، إشارة إلى أنه تعالى يتولاهم بعفوه ومغفرته، ويشيهم أجزل ثواب بمحض كرمه وإرادته.

الثلثون الثاني من الربع الثالث في
الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

وَالَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٢٩﴾
ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ
بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣٠﴾
جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣١﴾ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٣٢﴾ الَّذِي أَهْلَلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ
لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢٣٣﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْبَضُ عَنْهُمْ
فَيْمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ

تَجْزِيهِ كُلِّ كَفُورٍ ❸٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
 رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
 أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ
 فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ❸٧ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ❸٨
 هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
 الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ
 إِلَّا خَسَارًا ❸٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
 أَمْ أُنِثْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنَّ يَعْدُو الظَّالِمُونَ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ❹٠

الثلثون الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

لا يخفى على كل مؤمن أن الذكر الحكيم هو حجر الزاوية في بناء صرح الإسلام، والحصن الحصين الذي يحمي الأمة الإسلامية من كوارث الدهر وتقلبات الأيام، ولذلك يتجه أعداء الإسلام في كل حين إلى الطعن في مبانيه، والتشكيك في معانيه، وهم يرددون في كل عصر ما قاله الكافرون الأولون (٤١: ٢٦): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، من أجل ذلك نجد كتاب الله يرفع في كل مناسبة علم الحق والحقيقة، مؤكداً أن الذكر الحكيم كتابٌ وحي إلهي كريم، يُحق الحق ويُبطل الباطل، ويكشف ما هو زيف وزور عند الأواخر والأوائل، فما وافقه في القديم والحديث فهو

حق وصدق، وما خالفه فهو باطل وزور، وذلك قوله تعالى في بداية هذا الثمن: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وبمثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة البقرة (٩٧): ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ، بِإِذْنِ اللَّهِ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران (٣): ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الآية، وقوله تعالى في سورة المائدة (٤٨): ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾. الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، إشارة إلى أن الله تعالى «الخبير» ببواطن عباده و«البصير» بظواهرهم، لا يمكن أن يُنزل لهدايتهم إلا كتاباً كله حق وصدق، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (٤١: ٤٢)، متى اتبعوه كانوا من الفائزين، وصدق الله العظيم إذ قال: (٦٧: ١٤)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى التحدث عن المنّة الكبرى التي منّ الله بها على الإنسانية، وأبقاها نعمة مسترسلة متوارثة في الأمة الإسلامية، ألا وهي نعمة القرآن الكريم، والذكر الحكيم، الذي جعله الله خاتم الكتب المنزلة، ودستور «الأمة الوسط» التي أصطفى دينها وفضلها، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، و«توريث الكتاب» يقتضي الحرص التام على القيام بحفظ نصوصه ومبانيه، والعمل المتواصل على تطبيق

أحكامه وتفسير معانيه، بما فيه من عقائد وشرائع، ومحاسن وبدائع، والعناية البالغة بكل ما يعين على حفظه وفهمه وتطبيقه، من فروع المعرفة القديمة والحديثة، إذ هو منبع التراث الإسلامي الأصيل، الذي يجب أن يتلقاه غصاً طرياً جيل عن جيل، دون تحريف ولا تبديل، والمراد «بالاصطفاء» الاختيار والاجتباء، مشتق من «الصفو» وهو الخلو من شوائب الكدر، وهذا المعنى يتضمنه أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة (١٢٢): ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران (٨٥): ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة المائدة (٣): ﴿إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

ثم تولى كتاب الله تصنيف المؤمنين من عباده، حسب سلوكهم الخاص والعام، وحسب الدرجة التي يحتلونها في سلم الاستقامة والانحراف، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾، فالظالم لنفسه من لم يشكر نعمة الله عليه ووضعها في غير موضعها، فغلبته زلاته، وتتابعت سقطاته، والمقتصد من مال إلى القصد والاعتدال، وحاول أن يعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها، والسابق بالخيرات من حاز قصب السبق في الحسنات والمبرات، ونال رفيع الدرجات، وبذلك يكون «المقتصد» واسطة بين طرفين: طرف «الظالم لنفسه» من جهة، وطرف «السابق بالخيرات» من جهة

أخرى، وسبق في سورة آل عمران قوله تعالى (٦٦): ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾. وسبق في سورة لقمان قوله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه (١٩): ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، من «القصد» بمعنى التوسط، على أن الشأن في المؤمن، إذا تورط في ظلم نفسه بارتكاب السيئات وتناول الموبقات، أن لا يُصرَّ عليها، وأن يتوب إلى الله منها، اعتماداً على الوعد الحق الذي وعد الله به المذنبين التائبين، إذ قال تعالى (٢٥: ٤٢): ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِهِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، بعد قوله: ﴿ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ تنبيه إلى أنه لا يرتفع إلى درجة السابقين المتقين، إلا من أعانه الله وشمله برعايته، فكان من الموفقين، وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه بكل صراحة الآية الكريمة التي سبقت في سورة النور (٢١): ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾، إشارة إماماً إلى نعمة «توريث القرآن العظيم لهذه الأمة، واصطفائها لأداء أسمى مهمة، وإماماً إلى نعمة السبق بالخيرات، ورفع الدرجات، وإماماً إلى نعمة التوفيق الحاصل بإذن الله، لمن وفقه الله، ولا مانع من أن تكون إشارة شاملة لهذه المعاني مجتمعة، إذ لا تناقض بينها، فكلها فضل كبير من الله، وعلى رأسها جميعاً كتاب الله.

وتعريفاً بحسن العاقبة التي يؤول إليها أمر المصطفين

الأخيار، وما يَنْتَظَرُهم من فضله الكبير عند الانتقال من هذه الدار إلى تلك الدار، قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ، مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، والبدأ بقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾، قبل قوله، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، يؤدي معنى لطيفاً: هو المسارعة والمبادرة إلى تبشيرهم بحسن مصيرهم، فيفاجئون بما هوسار، من الأخبار، إذ ما أعظم الفرق بين دخول الجنة ودخول النار.

وقوله تعالى: ﴿يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾، الآية، يشعر بأن الجنة ليست دار تكليف وابتلاء، وإنما هي دار نعيم مقيم وسعادة وهناء، ولذلك تكون أيدي المنعم عليهم محلاة بالأساور، المرصعة باللالء والجواهر، ويزيد هذا المعنى توضيحاً قوله تعالى على لسانهم في نفس السياق: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، أي: لا يصيبهم فيها تعب، ولا يلحقهم فيها إعياء، لأنهم معفون في الآخرة من جميع التكاليف والأعباء.

وكما ورد هنا قوله تعالى: ﴿يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ سبق في الآية الثالثة والعشرين من سورة الحج نفس النص ونفس النظر، وسيأتي في سورة الإنسان قوله تعالى (٢١): ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾، إشارة إلى أن حلية المنعم عليهم كما تكون من ذهب تكون من فضة، حسب مقاماتهم ودرجاتهم في الجنة، والله الفضل والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾، تعبير عما أخذوا يحسون به من سكينه وطمأنينة، ورضا واستبشار، عند حلولهم بجنات عدن، فقد فارقتهم الأحزان كلها، ولا سيما الحزن الأكبر الناشئ عن خوف العقابة، ومن أجل ذلك ما هم يحمدون الله ويسبحون بحمده، ولفظ ﴿الْحَزْنَ﴾، الوارد في هذه الآية بفتح الحاء والزاي هو لغة في (الحُزْن) بضم الحاء وسكون الزاي.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾، تعبير عما هم عليه من أدب مع الله، وإعلان «للاعترا ف بفضله سبحانه، إذ هو الغفور الذي يغفر السيآت ولو كثرت، وهو الشكور الذي يثيب على الحسنات ولو قلّت، وفيه كذلك تنبيه إلى أن الدنيا إنما هي دار مرور وعبور، وأن الآخرة هي دار القرار، لأنها دار الإقامة الدائمة والاستقرار. قال فخر الدين الرازي تعليقاً على هذه الآيات الكريمة: «كما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى، حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة، وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الأنابة، فقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾، اعترافاً بتقصيرهم، وقالوا ﴿شَكُورٌ﴾، إقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم، وقالوا: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾، أي: لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله».

وعلى العكس من ذلك ما حكاه كتاب الله عن الكفرة الفجار، إذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، لَا يُقْضَى

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٦٧﴾، فهم في عذاب دائم لا تخفيف فيه، حتى لا يتعودوا عليه، وهم يتمنون الموت السريع، لكن لا يجابون إليه، ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ، لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ (٧٧: ٤٣)، وهم يملأون جهنم بصراخهم، طالبين العودة إلى ديارهم، زاعمين أنهم إذا رجعوا إليها سيعملون عملاً صالحاً، غير العمل الفاسد الذي درجوا عليه طيلة حياتهم، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (٦: ٢٨).

وقوله تعالى في وصفهم: ﴿يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾، مأخوذ من «الصراخ» الذي هو الصياح بجهد وشدة، ويلاحظ فيما حكاه كتابُ الله عنهم في هذا السياق: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾، ما هم مطبوعون عليه من الأسلوب الجاف، والكلام النازل إلى حد الأسفاف، لكونه خالياً من كل أدب مع الله، والغريب في الأمر هو إصرارهم على ذلك حتى في الوقت الذي هم فيه أحوج ما يكون إلى فضل الله ورحمته، وهم بين يديه لا يستطيعون الإفلات من قبضته، فكان الرد عليهم أنسب ما يكون لطلبهم، إذ قال تعالى تَأْنِيْباً لَهُمْ: ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾، إشارة إلى أن الله تعالى قد أمهلهم ولم يعجل موتهم، عسى أن يتداركوا ما فاتهم، لكنهم استمروا على ما اعتادوه من التمرد والعصيان، ولم يُفَكِّرُوا لحظة واحدة في الانتقال من الكفر إلى الإيمان، لا عن طريق التأمل والتذكر والاعتبار، ولا عن

طريق ما جاءتهم به الرسل من التبشير والإنذار، وحيث أنهم وضعوا نعمة الله في غير موضعها، وأتوا بالمعذرة في غير وقتها، قيل لهم، جَزَاءُ كَفْرِهِمْ وَكِبْرِهِمْ: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

وتعليقاً على قوله تعالى هنا: ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، قال جار الله الزمخشري: «إنه يتناول كل عُمر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قَصُر، إلا أن التوبيخ في العمر المتطاوُل أعظم» ونقل ابن كثير عن ابن عباس: أن العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في هذه الآية هو ستون سنة، وهذا موافق للحديث الذي رواه البخاري في «كتاب الرِّفَاق» من صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أعذر الله عز وجل إلى أمرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة) ومعنى «أعذر إليه» أي بلغ به أقصى العذر.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، إشارة إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأنه لا يخفي عليه شيء، ولعلمه بخبث سرائر المصّرّين على الكفر المستحقين للعذاب، لم يفتح في وجوههم للرحمة أي باب.

ووجه كتاب الله الخطاب من جديد إلى كافة البشر، ولا سيما الجاحدين والمعاندين، مذكراً إياهم بأنه هو الذي خلقهم واستخلفهم في هذا الكوكب الأرضي السابح في الفضاء، وأنه هو الذي خصصه لهم وكيّفه بشكل يتناسب مع حياتهم، ويستجيب

لمطالبهم، ملقياً على عواتقهم مسؤوليتهم عن أنفسهم إيماناً أو كفراً، وعن الخلافة الموكولة إليهم فساداً أو إصلاحاً، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَيفَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

ثم قال تعالى متحدياً لمن أشركوا به غيره، مبرزاً سفاهة رأيهم، وسقوط زعمهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ، أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ، بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين
في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ① وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ
إِلَّا نِفُورًا ② إِسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ
الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ
فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ③
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ
شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ④
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى
ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ⑮

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَّ ① وَالْقُرْءَانَ الْحَكِيمَ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ④ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ

ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ ⑦ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهِ أَعْنَقِيَهُمْ وَأَغْلَلْنَا فِيهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ

مُقْمَقُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا

فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ

الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ الْمُوقِنُونَ وَنَكْتُبُ

مَا قَدَّمُوا وَءَاخِرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ⑫

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ⑬

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ابْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَمَزْنَا نِثَالًا فَقَالُوا إِنَّا

إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ⑭ قَالُوا مَآ أُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ

الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَاذِبُونَ ⑮ قَالُوا إِنَّا نَعْلَمُ

إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ⑯ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ⑰

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْهَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ
 مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَإِيرُكُمْ مَعَكُمْ وَأَيْنَ
 ذِكْرُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا
 الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا
 مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ
 إِلَهَ إِلَّا فِطْرَتِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً
 إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنْقِذُونِي ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي
 ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ
 قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، إلى قوله تعالى في سورة يس المكية أيضاً: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

في بداية هذا الربع خص كتاب الله بالذكر ظاهرة كونية كبرى تحار فيها العقول والأفهام، ألا وهي ظاهرة تماسك الكائنات وتجاذبها بعضها مع بعض في السماء والأرض، دون أن تكون مرتكزة على أي شيء، أو معلقة بأي شيء، وذلك بالنسبة لجميع الكواكب والشموس والأجرام، السابحة في أفلakها في الفضاء، بنظام وانتظام، على مر الليالي والأيام، والقرون والأعوام، مما لا يحيط به علماً وعداً، ولا يقوم به صيانة وحفظاً، إلا خالقه بديع السماوات والأرض، وذلك ما ينطق به قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾، قال الفراء: «أي ولو

زالتا ما أمسكهما من أحد» فبالقوة الماسكة التي أودعها الله في السماوات والأرض حماهما من التصدع والانحيار، وأنعم على الإنسان بنعمة الطمأنينة والاستقرار، وذلك بالرغم مما يقترفه من الذنوب والأوزار: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

وسبق في التنبيه إلى هذه الظاهرة الكبرى قوله تعالى في سورة الرعد (٢): ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، وقوله تعالى في سورة لقمان (١٠): ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، قال القشيري: «أمسكهما بقدرته، وأنقنهما بحكمته، وربتهما بمشيئته، وخلق أهلهما على موجب قضيته، فلا شبهة في إبقائهما وإفنائهما يساهمه، ولا شريك في وجودهما ونظامهما يقاسمه»، وسبق في سورة الحج قوله تعالى (٦٣): ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحديث عن أعداء الرسالات ومواقفهم الملتوية، وتقلباتهم المزرية، ومن بينهم أئمة الكفر وقادة الجاهلية، حيث أنهم اعتادوا أن يُقسِموا الأيمان الغليظة على استعدادهم لقبول الرسالة إذا جاءتهم، ويُعلنوا رغبتهم في أن يكونوا أهدي من بقية الأمم التي سبقتهم، حتى إذا جاءهم الرسول المنتظر نفروا، واستكبروا ومكروا، ولم ينفع فيهم أي إنذار، وأصروا على الكفر أيما أصرار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾، ثم قال تعالى تأكيداً

لغلبة الحق على الباطل، وتذكيراً بعذاب الله الذي حل بأئمة الكفر الأوائل: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: سنة الله التي أجراها في الأولين.

وأعاد كتاب الله تقرير حقيقة كونية اجتماعية ثابتة، ألا وهي أن لله في خلقه سنة منتظمة ومحكمة، ترتبط فيها الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، ارتباطاً وثيقاً، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الأحزاب (٦٢): ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الإسراء (٧٧): ﴿وَلَا تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

و «التبديل» المرفوض هنا بالنسبة لأئمة الكفر هو تبديل العذاب بغيره، فالعذاب قائم بهم، وثابت لهم، و«التحويل» المرفوض بالنسبة لهم هو تحويل العذاب عنهم إلى غيرهم، فالعذاب واقع على من استحقه، لا يتجاوزه إلى غيره أبداً، ونبه القرطبي إلى أن كلمة «سنة» في هذا السياق تضاف أحياناً إلى الله، وأحياناً إلى غيره، لتعلق الأمر بالجانبين، مثلها في ذلك مثل كلمة «الأجل»، تضاف إلى الله كما في قوله تعالى (٢٩: ٥) ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾، وتضاف إلى غيره كما في قوله تعالى (٣٤: ٧): ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن الجاحدين والمعاندين الذين أصروا على عتوهم واستكبارهم وتمردهم على الله لو فتحوا أعينهم،

والتفتوا إلى ما حولهم، وساروا في الأرض سِيرَ الناظر المتفحص،
 لأخذوا العبرة من مصارع الشعوب والحضارات التي سبقتهم،
 بالرغم مما كانت عليه من توسع في العمران، وقوة متنوعة
 الأشكال والألوان، فالبقاء والفناء، والقوة والضعف، سُنن لا
 تَخْلُف قديماً وحديثاً، وذلك ما يقرره قوله تعالى هنا في إيجاز
 وإعجاز، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، على غرار قوله تعالى
 فيما سبق من سورة الروم (٩): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً،
 وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ونفس المعنى سبق
 في سورة التوبة عند قوله تعالى (٦٩): ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً
 وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدَاءً﴾، كما نص عليه كتاب الله أيضاً في سورة
 غافر مرتين، وذلك قوله تعالى في الآية الواحدة والعشرين:
 ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ﴾، وفي الآية
 الثانية والثمانين: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي
 الْأَرْضِ﴾، وذلك حتى لا يغتر الأقوياء بقوتهم، ما دامت لا
 تساندها قوة الله، إذ قوة الله القاهرة، لا يعجزها أي شيء من قوة
 البشر الظاهرة، كيفما كانت وتنوعت، وطغت وتجبرت.

وللتخفيف من غُلُوِّ البشر المتبجحين بقوتهم، ومواجهة
 تحديهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي
 السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾، ﴿عَلِيماً﴾،
 بمبلغ قوتهم المحدودة، ﴿قَدِيراً﴾، على أخذهم وتأديبهم في

ثوان معدودة، وصدق الله العظيم إذ قال في كتابه في سورة فصلت (١٥): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وفي سورة البقرة (١٦٥): ﴿وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾، قال الرازي: «لو أن قائلًا قال: هَبْ أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً، لكننا نستخرج بذلكنا ما يزيد على قواهم، ونستعين بأمور أرضية لها خواص، أو كواكب سماوية لها آثار، لقال تعالى أي جواباً على هذا الإشكال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾».

ثم أبرز كتاب الله مبلغ حلم الحق سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة بالخلق، حيث يمهّل العصاة من عباده، فلا يستعجلهم بالمؤاخذه والعقاب، ويتخولهم من حين لآخر بالموعظة الحسنة واللوم والعتاب، عسى أن يعودوا إلى جادة الصواب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ، إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيؤخر كل فرد إلى حلول أجله، وكل أمة إلى حلول ساعتها، والجنس البشري كله إلى حلول الساعة الكبرى، والضمير في: ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾، يعود على الأرض التي فيها مستقر الناس ومعاشهم، وقد سبق ذكر «الأرض»، عطفاً على السماوات قبل هذه الآية، والمراد «بالدابة» هنا كل ما دب فوق الأرض ودرج، بما في ذلك الإنسان والحيوان: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾، بصيراً بأحوالهم، بصيراً بأعمالهم، بصيراً بما يستحقه كل فرد من ثواب

أو عقاب، قال القشيري في (لطائف الإشارات) تعليقاً على هذه الآية الكريمة « لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلة به، ولم تتسع أيامهم القصيرة له، فأخَّرَ ذلك ليوم الحشر، فإنه طويل، والله على كل شيء قدير، ويأمر عباده خبير بصير ».

والآن وقد انتهينا بفضل الله وتوفيقه من تفسير سورة فاطر المكية نشرع بحول الله وقوته في تفسير سورة (يس) المكية أيضاً، وقد افتتح كتاب الله هذه السورة بحرفين اثنين من حروف الهجاء المقطعة، هما الياء والسين، على غرار ما بدأ به (طه) و (طس) فيما سبق، وعلى غرار (حم) الذي تتكون منه مجموعة سور (الحواميم) الآتية.

وقد سبق من هذا النوع المبدوء بحروف الهجاء المقطعة مجموعة أولى مكونة من سورتين متتابعتين لا غير، هما سورة البقرة (الْمَ) ، وسورة آل عمران (الْمَ) أيضاً، ومجموعة ثانية مكونة من ست سور متتالية: أولها سورة يونس (الر) ، وآخرها سورة (الججر) أيضاً (الر) ، ومجموعة ثالثة تشتمل على سورتين متابعتين لا غير، هما سورة مريم (كهيعص) ، وسورة (طه): ثم مجموعة رابعة تشتمل على سبع سور يتلو بعضها بعضاً، أولها سورة الشعراء (طسم) ، وآخرها سورة السجدة (الْمَ) .

ويلاحظ أن سورة (يس) التي نحن بصدد تفسيرها جاءت على انفراد، إذ لم يأت ما يماثلها من هذا النوع، لا قبلها

ولا بعدها، فقد سبقتها سورة (فاطر)، ولحققتها سورة (الصافات)، وبدايتهما معاً بحروف التهجي العادية، ونفس الشيء وقع مثله في سورة الأعراف ﴿الْمَصَّ﴾، التي لم يسبقها ولم يلحقها مباشرة ما يماثلها من نفس النوع، حيث سبقتها سورة (الأنعام)، ولحققتها سورة (الأنفال) وبدايتهما معاً بالحروف العادية أيضاً، ولا بد من التنبيه هنا إلى أنه لا علاقة بين حرف الياء وحرف السين الواردين في فاتحة هذه السورة ﴿يَسَّ﴾، وبين قوله تعالى في سورة (الصافات) بعدها في ختام قصة «إلياس عليه السلام»: ﴿سَلَّمْ عَلَىَّ آلَ يَاسِينَ﴾، الذي جاء على غرار قوله تعالى قبل ذلك: ﴿سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَلَمِينَ﴾، ﴿سَلَّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿سَلَّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وقد رواها بعض القراء، ﴿سَلَّمْ عَلَى إِيْلَاسِينَ﴾، بدلاً من (آل ياسين)، وإلياسين وإلياس وياسين شيء واحد حسبما نص عليه ابن جنى والنحاس ونقله القرطبي. وإذن ففاتحة هذه السورة يجري عليها ما جرى على فواتح السور الأخرى التي تماثلها في التكوين من حروف الهجاء المقطعة، مما سبق وما سيأتي.

أما قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فهو قَسَمٌ من الله تعالى يؤكد به للشاكين والكافرين أن محمداً رسول من عند الله حق، وأن دين الإسلام هو دين الحق. وإبرازاً لعظمة القرآن الكريم، وتنبيهاً إلى أنه هو المعجزة الكبرى الباقية والدائمة، الدالة على صدق الرسول وصدق الرسالة في جميع العصور، اختار الحق سبحانه وتعالى أن

يُقَسَّم في هذا المقام بالقرآن نفسه، حتى يَقْتَنِع كل من في قلبه شك أو ريب بأن أَحْكَم كتاب عرفته الإنسانية - منذ ميلادها إلى فنائها - هو كتاب الله «أحكم الحاكمين»، وكيف لا يكون القرآن «حكيمًا» وهو: ﴿كِتَابُ حَكِيمَتٍ - آيَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١١ : ١)، وكيف لا يكون القرآن «حكيمًا»، وهو ﴿تَنْزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. (٤١ : ٤٢).

ومن وجوه حِكْمَتِهِ أن مبانيه محكمة لا يلحقها عيب ولا خلل، ولا ينشأ من الإقبال عل تلاوتها وتدبرها أدنى سأم أو ملل.

ومن وجوه حِكْمَتِهِ أن معانيه محكمة لا يلحقها تناقض ولا بطلان، ولا تفنى عجائبها ولا تبلى جدتها بمرور الزمان.

ومن وجوه حِكْمَتِهِ التي أقرتها التجارب المستمرة، الكثرة بعد الكثرة، أن من اتخذ دليله في حياته من الأفراد والجماعات نال السعادتين، وفاز في الدارين، فهو دليل حي ناطق بالحكمة الإلهية، يهدي من تتبعه وتبعه في كل حين إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (١٦ : ٦). وسبق في آيات أخرى وصف القرآن بكونه «حكيمًا»، مثل قوله تعالى في سورة آل عمران (٥٨): ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، وقوله تعالى في سورة يونس (١) وسورة لقمان (٢) معاً، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، إشارة إلى رحمة الله بعباده، وأنهم كلما

طال عليهم الأمد وقست قلوبهم، ونسوا ما ذكروا به، بعث الله إليهم رسولا من عنده مؤيدا بكتابه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويوقظهم من سنة الغفلة ونشوة الغرور، عسى أن ينالوا حظهم من السعادة، وينالوا الحسنى وزيادة، وكما قال تعالى هنا:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾، قال تعالى في سورة السجدة (٣): ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْهِمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وقال تعالى في سورة سبأ (٤٤): ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ﴾.

وكلمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الملاصقة لكلمة ﴿الرَّحِيمِ﴾ في قوله تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، ترمز إلى معنى الإنذار، لمن رفضوا الهدى وأصروا على الضلال، حيث يعاملهم الحق سبحانه وتعالى بمقتضى وصف «عزته» كما ترمز كلمة ﴿الرَّحِيمِ﴾ إلى معنى البشري، للذين اهتدوا وآمنوا، حيث يعاملهم الحق سبحانه وتعالى بمقتضى وصف «رحمته».

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة المصممين على الكفر، المصيرين على الضلال، السابحين في بحار الخيال والوهاب، فضرب بحالتهم أشنع وأفجع الأمثال، لأنهم أقاموا بينهم وبين الحق والحقيقة أعظم سور، حتى لا ينفذ إليهم أي شعاع من النور، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ، فَهُمْ مُّقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، مما يدل على أن قلوبهم مقفلة،

وعقولهم معطلة، و«المُقَمَّح» هو الرافع رأسه الذي لا يستطيع الإطراق، لأنه قيَّد نفسه بقيود تحول بينه وبين الحركة والانعتاق، ومعنى «أغشيناهم» جعلنا على أبصارهم غشاوة، وإذن فلا سبيل إلى إقناعهم والأخذ بيدهم، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وبين كتاب الله أن الدعوة إلى الحق إنما تعمل عملها، وتحدث أثرها ومفعولها، فيمن فتح بصره وبصيرته للنظر والاعتبار، وكان عنده استعداد خاص للبحث عن الحق والحقيقة، وتقبل الهداية وتلقي الأنوار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾، أي: راقب الله في سره وإن كان لا يراقبه أحد. ثم قال تعالى مبشراً من وفق في هذه الخطوة، فقال من ربه الرضى والخطوة: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾، و«الأجر الكريم» هنا هو الأجر الكبير الوافر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾، رد على منكري البعث في القديم والحديث، وقد كان البعث ولا يزال موضوع شك وجدل، عند من أصيبت عقولهم بالكلال والخلل، فتصدى كتاب الله لتقريره بشتى الوجوه حتى يستقر في الأذهان، لأنه عقيدة جوهرية في الدين لها أكبر الأثر في سلوك الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثِرَهُمْ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، تعريف بمضمون العدل الإلهي المطلق نحو كل إنسان كيفما كان، فالله تعالى لا يضيع عمل

عامل من ذكر أو أنثى ولا ينساه، بل ما من عمل عمله الإنسان - خيراً كان أو شراً - إلاّ وسجله له أو عليه وأحصاه، لا فرق في ذلك بين عمل الإنسان المباشر وهو على قيد الحياة، وبين الآثار المترتبة على عمله باستمرار بعد الوفاة، سواء كان ذلك الأثر من قبيل الحسنات كعلم نافع علّمه، أو رباط للجهاد أسسه، أو كان ذلك الأثر من قبيل السيّات، مثل حان هياه لتناول الخمر، أو ناد زخرفه للقمار، أو ماخور أعده للفسق والفجور، فكلما تجددت منفعة الأثر الحسن كُتِبَ لصاحبه من الحسنات بقدرها، وكلما تضاعفت مضرة الأثر السيء كُتِبَ لصاحبه من السيّات بقدرها، بناء على الأصل الإسلامي الثابت في السنة النبوية الشريفة «من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». «وقال ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده» والمراد (بالإمام) في قوله تعالى هنا: ﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، الكتاب المقتدى به، الذي هو حجة للإحصاء ويزيد معنى هذه الآية توضيحاً قوله تعالى في سورة الكهف (٤٩): ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَتُولَتْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وَلْيُثَبِّتِ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْادَ خَاتَمِ رُسُلِهِ حَتَّى يَتَحَمَلَ
أَذَى قَوْمِهِ، وَيَقَابِلَ أَعْرَاضَهُمْ بِالصَّبْرِ وَالتَّجَمُّلِ، وَلِيَتَأَكَّدَ عَبْدُ اللَّهِ

ورسوله من أن المكذبين من قومه ليسوا بدعاً من الأقوام، بل لهم سلف طالح في العناد والتكذيب، وجه إليه كتاب الله الخطاب، داعياً إياه إلى التدبر في قصة «أصحاب القرية» الذين جاءتهم رسل من عند الله فكذبوهم، ورفضوا دعوتهم، وقابلوهم بالسوء من القول، وهددوهم بالرجم والتعذيب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ، فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا ﴿أَيُّ مَثَلْنَا، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا ﴿أَيُّ قَالَ رَسُلُ اللَّهِ رَدًّا عَلَى أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ، قَالُوا ﴿أَيُّ قَالَ أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ الْمَعَانِدُونَ، ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، أي: شددنا أزرهما، وقوينا رسالتهما برسول ثالث، وهذه هي القصة الوحيدة التي يتحدث فيها كتاب الله عن تكليف ثلاثة من الرسل في آن واحد، ومكان واحد، بتبليغ رسالة واحدة، وذلك بالإضافة إلى ما هو متعارف عند الجميع، من اشتراك موسى وهارون في تبليغ رسالة واحدة، مما تناولته عدة آيات في عدة سور، من بينها قوله تعالى في سورة «المؤمنون» (٤٥): ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

ومعنى قول أصحاب القرية في خطابهم للرسل الثلاثة:

﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾، أي: تشاء منا منكم وبكم، تعبيراً عن كراهيتهم للرسول، ونفورهم من الرسالة، مثلهم في ذلك مثل قوم فرعون، الذين وصفهم كتاب الله بنفس الشيء، حيث قال تعالى في شأنهم ﴿ (٧: ١٣١): ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾، ومثل قوم صالح، الذين واجهوا نبيهم وأخاهم صالحاً بالسوء، فقالوا: ﴿ أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ ﴾ (٢٧: ٤٧)، لكن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله إلى أصحاب القرية ردوا عليهم رداً مُفحماً: ﴿ قَالُوا طَهِّرْكُمْ مَعَكُمْ ﴾، أي أن الشؤم الذي تحسون به إنما هو نتيجة لفساد عقيدتكم، وأثر من آثار كفركم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ ﴾، أي: أين أجل أننا ذكرناكم بالله، ودعوناكم إلى توحيدهِ وعبادته، تطيّرتم بنا، وتشاءتم برسالتنا، وهددتمونا بالرجم والتعذيب، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ من «الاسراف» بمعنى مجاوزة الحد، أي: أنتم قوم مغرقون في الضلال والعصيان، مُّمعنون في الغي والعدوان.

ولعل سائلاً يدفعه حب الاستطلاع إلى أن يتساءل ما هي القرية التي جرت فيها هذه القصة؟ والجواب أن بعض قدماء المفسرين، قد اهتموا بهذا الأمر الجانبي، وبناء على ما تلقفوه من بعض الأخبار صرحوا بأن هذه القرية هي «أنطاكية»، لكن ابن كثير، المفسر والمحدث والمؤرخ، تصدّى في تفسيره لإبطال هذا الرأي من عدة وجوه، مستنداً إلى حجج تاريخية وواقعية مقنعة، وبذلك بقي اسم هذه القرية مبهماً، على ما هو عليه في كتاب الله دون تعيين.

وواضح أن هذه القرية ليست هي القرية الأولى والوحيدة التي وقف أصحابها في وجه الرسل ورسالاتهم، فهذا النوع من المواقف تجدد كلما تجددت الرسالات عبر العصور والأجيال، والعبرة في القصة بالمواقف التي سجلتها، لا بالمكان الذي وقعت فيه، إذ ليست للمكان في هذا المقام أدنى خصوصية مميزة.

وانتقل كتاب الله إلى حكاية الشق الثاني من قصة أصحاب القرية، وهو ما يتعلق بمواطن آمن بالله وبرسله، فانطلق يدعوا قومه إلى اتباع الرسل واعتناق دينهم، ويعلن أمام الملأ سفاهة ما عليه قومه من الشرك والضلال، فلم يلبثوا أن ضاقوا به ويدعوته ذرعا، وقضوا عليه وعليها قضاء مبرما، لكن الحق سبحانه وتعالى أكرمه بدخول الجنة جزاء إيمانه وصدّعه بالحق، وما كاد يحل بدار النعيم حتى أخذ يتمنى على الله أن يعرف قومه المنزلة الرفيعة التي أنزله فيها، عسى أن يؤمنوا بمثل ما آمن، ويفوزوا بمثل ما فاز به من النعيم المقيم، وذلك حرصاً منه على نجاتهم وسعادتهم، وقد حقق الله أمنيته عندما سجل قصته في كتابه العزيز من بدايتها إلى نهايتها، ليعرفها السلف والخلف، ويلاحظ في الشق الثاني من هذه القصة ذكر لفظ «الْمَدِينَةِ»، بدلاً من لفظ «الْقَرْيَةِ» الوارد في الشق الأول، وليس في هذا الاستعمال أي إشكال، لأن لفظ «الْقَرْيَةِ» في لسان العرب يستعمل في غير ما موضع مرادفاً للفظ «الْمَدِينَةِ»، وإلى قصة هذا المؤمن السعيد يشير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ،

وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، ءَاتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا
إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ،
إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ
الْجَنَّةَ، قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ ﴿٤٠﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين
في المصحف الكريم

وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ وَآلِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ وَأَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ❸ وَالْقَمَرُ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ❹ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ❺
وَأَيُّهُمُ أَهْلُهُمْ وَأَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ❻
وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ❼ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا
صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ❽ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ❾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ❿
وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ❶
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ❷ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❸
مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ❹ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ❺ وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ❻
قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ❼ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٧﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٩﴾ هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿٦٠﴾
لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٦١﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّنْ
رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٣﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا يَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الحديث عن مصرع أصحاب القرية، الذين حكى قصتهم في الربع الماضي، ليبين ما تعرضوا له من سوء العاقبة، جزاء شركهم بالله، واعتدائهم على كرامة رسله، وحيث أن الحق سبحانه وتعالى يفعل في ملكه ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، ولا يظلم أحداً، فإنه يختار لكل قوم العقاب اللائق بهم، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٢٩: ٤٠): ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وقد اختار لعقاب أصحاب القرية الظالم أهلها من أنواع العقاب التي أشارت إليها هذه الآية النوع الثاني منها دون غيره، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾، أي: قوم «مؤمن القرية» الذي انفرد

عنهم جميعاً بإعلان إيمانه، والثبات عليه، والموت في سبيله، ﴿مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ، وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ، إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، أي: إن كانت الواقعة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، إشارة إلى سرعة هلاكهم، وخمود حركتهم، كما تخمد النار فتصير رماداً.

ونظراً لما اتصف به الحق سبحانه وتعالى من رحمة بعباده، وحِرْصٍ على هدايتهم والأخذ بيدهم، إنجازاً لوعده بتمكينهم من وسائل الهداية حتى لا يبقوا هملاً، ولا يتركوا سُدىً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة (٣٨): ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة طه (١٢٣): ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، فإن كتاب الله أراد أن يُبرز للعالم أجمع مبلغ التعجب والاستغراب والأسى، الذي يوجي به موقف الضالين المعاندين، المعرضين عن هداية الله، والمكذِّبين برسله ورسالاته، رغماً عن كونها إنما جاءت لإنقاذهم، وهي منهم «على طَرَفِ الثُّمَامِ»، مبيّناً لهم أنهم مهما طال عليهم الأمد، فلن يفلتوا من قبضة الله، وأنهم سيساقون جميعاً إلى حضرته، ويقفون بين يدي جلاله وعظمته، ويا ويلهم من العقاب والعذاب، عند حلول يوم الحساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بإيجاز وإعجاز: ﴿يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ، مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ، أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وحيث أن كثيراً من الناس تسيطر عليهم الغفلة والنسيان، وتستغرق شهواتهم وملذاتهم كل أوقاتهم، وإن طال عليهم العمر وامتد بهم الزمان، فلا يلتفتون إلى ما حولهم من آيات الله، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، (١٢ : ١٠٥)، ها هو كتاب الله يقرع أسماعهم من جديد، ويشير انتباههم إلى جملة من آياته الكونية الكبرى، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم، ويلتفتوا إلى آياته في الأفاق وفي أنفسهم، التفاتة تدبر واعتبار، تنير منهم البصائر والأبصار:

أما الآية الكونية الأولى في هذا السياق فهي الأرض التي جعلها الله للإنسان موطناً وموتناً، ومستقراً ومستودعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾، أي: لياكلوا مما خلق الله من الثمر، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ومن غريب أمر الإنسان أنه لا يقدر نعمة الله عليه بالأرض والماء، والنبات والغذاء، إلا عند ما ينتشر القحط ويعم الجذب، فيصبح شبح الجوع والعطش أمامه ماثلاً، ويصبح ميزان عيشه مختلاً وشائلاً، ويحس بقلق بالغ لا مزيد عليه، وبأليته يرجع إلى الله ويدرك أنه لا ملجأ منه إلا إليه.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، يتضمن الإشارة إلى معنيين جليين: المعنى الأول ما أبدعته القدرة الإلهية في النبات والإنسان،

ومثلهما بقية الحيوان، من أجناس وأنواع وألوان، وما هي عليه من أشكال وصور وأحجام، لا سبيل إلى حصرها ووصفها في هذا المقام، والمعنى الثاني ما قام عليه الكون من الثنائية والازدواج في التكوين من ذكر وأنثى وسالب وموجب، وتعميم ذلك في النبات والحيوان والإنسان، مما يدل على وحدة التكوين ووحدة المكوّن سبحانه وتعالى، وسيأتي بهذا المعنى العام، الشامل للثنائية والازدواج، قوله تعالى في سورة الذاريات (٤٩): ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ولاتساع البحث ودقته في هذا المجال، وفتح باب الاكتشاف فيه أمام الأجيال، قال تعالى في نفس الموضوع: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: مما لا يعلمه المخاطبون عند نزول القرآن، لكن يمكن أن يكتشفه من يأتي من بعدهم، متى رفع عنه الحجاب في مستقبل الزمان، وذلك على غرار قوله تعالى في آية سابقة (١٦: ٨): ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وأما الآية الكونية الثانية في نفس السياق فهي آية السماء، وما سخره الله فيها من شمس وقمر، وليل ونهار، لمصلحة الإنسان ومنفعته، وانتظام عيشه وراحته، وتحقيق أكبر حظ من هنائه وسعادته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَايَةَ لَهُمُ الْيَلِّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، فبتنظيم الحياة اليومية للإنسان وتقسيمها إلى وقت

ملائم لليقظة والنشاط والعمل: هو النهار، ووقت ملائم للاستجمام والراحة والنوم هو الليل، ويتعاقب الليل والنهار على الأرض ومن فيها وما فيها، بالحرارة والبرودة الملطفة لها، وبضياء الشمس ونور القمر، استطاع الإنسان أن يتحمل تكاليف العيش فوق سطح الأرض، وأن يكيف حياته فيها التكييف المناسب، وعبر كتاب الله عن إدبار النهار بضياءه، وإقبال الليل بظلامه، ببلاغته المعهودة فقال: ﴿وَعَايَةُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾، أي: خارجون من ضياء النهار، وداخلون في ظلام الليل في الحين.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، أي: تسير على ترتيب معلوم، ونظام مرسوم، لا تفاوت فيه ولا اختلاف، وهذا النظام يتجلى في دورانها حول نفسها أولاً، وفي جريانها حول مدارها ثانياً، وذلك دون توقف وفي اتجاه واحد، في الفضاء الكوني الواسع، ويفعل دوران الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق تراءى لنا الشمس أيضاً وهي تجري من الشرق إلى الغرب، وهذا المعنى الكوني الرائع يؤكد قوله تعالى في آية أخرى (١٤: ٣٣)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾، أي: لا يفران ولا يقفان، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أما «مُسْتَقَرٌّ» ، الشمس الذي نطقت به الآية الكريمة فيصدق بمسقرها في المكان، وهو مدارها الذي لا تتجاوزه في الفضاء، ويصدق بمسقرها في الزمان، وهو ما تتعرض له في الأخير، من انقلاب وتغيير، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

وَالسَّمَوَاتِ ﴿١٤ : ٤٨﴾، طبقاً لقوله تعالى (٢٩ : ٣١)، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقوله تعالى (٨١ : ١)، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾، أي: وآية لهم القمر، معطوف على ما قبله، فيه إشارة إلى أن الله تعالى جعل سير القمر منازل متوالية، بحيث ينزل كل ليلة منها بمنزل، وعدد منازل ثمانية وعشرون منزلاً، وسبق في سورة يونس قوله تعالى مبيناً حكمته البالغة في ذلك (٥)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً، وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ﴾.

وحيث أن القمر يشرع نوره في التناقض والتراجع بعد الليلة الرابعة عشرة، ولا يأتي آخر الشهر حتى يكون قد بلغ غاية النقص، فقد شبهه كتاب الله في هذه الحالة بالعنقود اليابس من الرطب إذا تقوَّس وانحنى وأصبح عتيقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، والعُرْجُون من «الإنعراج» وهو الانعطاف.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن النواميس الثابتة والسنن المنتظمة، التي يسير بمقتضاها كل جزء من أجزاء الكون، دون خلل ولا اضطراب، حتى لا يعترض أحدها طريق الآخر، فقال تعالى مُّمَثَّلًا بالشمس والقمر والليل والنهار: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وسيأتي في سورة الملوك ما يؤكد نفس المعنى ويزيده

إشراقاً وتألقاً، لكن من زاوية أخرى، حيث قال تعالى (٣: ٤): ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾، أي: من شقوق وثغرات، ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ينصبُ معناه على الآية الكونية الأولى والآية الكونية الثانية، فهو تعقيب على ما سبقه، وتمهيد لما لحقه، إذ المراد به تنبيه كل غافل أو متغافل، وكل جاهل أو متجاهل، إلى أن هذا التنظيم الدقيق للكون، الملائم في كلياته وجزئياته لحياة الإنسان، والمنسجم مع فطرته وطبيعته، والضامن لمنفعته ومصلحته، إنما هو من صنع الله وحسن تدبيره، ولولا فضل الله على الإنسان ورحمته به لما تمكن من الانتفاع به، ولعجز عن تسخيريه.

وأما الآية الكونية الثالثة التي وردت في نهاية هذا السياق فهي آية البحر وتسخير مياهه لجري السفن وحمل الإنسان، ونقل البضائع والأمتعة على وجه التبادل والتجارة من مكان إلى مكان، بحيث أصبح البحر هو الطريق الممهد والمطرزق بين القارات، والفلك التي تمخر فيه هي أداة الاتصال المباشر بين مختلف الأجناس والسلالات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَعَايَهُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، أي: لا مغيث يغيثهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ﴾، وسبق في سورة النحل قوله تعالى (١٤): ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ

فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾، وسيأتي في سورة الجاثية، قوله تعالى (١٢): ﴿إِلَهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وكلمة «الذرية» هنا تصدق على الأبناء والآباء، لأن من الآباء تُذَرُّ الأبناء، و«الْفُلُكُ المشحون»، حمله بعض المفسرين على «سفينة نوح» التي كانت أول سفينة من نوعها، وكانت سفينة النجاة لنوح ومن حمل معه من ذرية آدم ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (١٧: ٣)، وطبقاً لهذا التفسير يكون وصف «الْفُلُكِ»، بالمشحون، لأن نوحاً «شحن» فيه من كل زوجين اثنين، إبقاءً على جملة من الكائنات الحية، حتى لا تتعرض للإبادة والفناء بفعل الطوفان، ولفظ «الْفُلُكِ»، يستعمل في كتاب الله أحياناً بصفته مفرداً كما جاء في هذه الآية، وأحياناً بصفته جمعاً كما جاء في قوله تعالى (١٦: ١٤)، ﴿وَتَرَى أَلْفُكُ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾، الآية.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ما أَلْهِمَهُ الله للبشر من بناء السفن الصغرى والكبرى لركوبهم لُجَجَ البحر، انطلاقاً من سفينة نوح التي كانت بالنسبة للأوائل سفينة نموذجية، وفي هذه الآية تنبؤ صريح بما سيهتدي إليه الإنسان من بناء البواخر والبوارج التي تمخر البحار، وإيذان من الله بما سيظهر من طائرات الجو وسفن الفضاء، التي يمتطيها الإنسان في الليل والنهار، فهي وما شابهها تندرج كلها تحت قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾، والتعبير فيه بصيغة الماضي: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾، حقٌ وصدق، لأن الله تعالى يعلم ما كان وما سيكون.

وبعد أن استعرض كتاب الله جملة من آيات الله في الآفاق والأنفس، عسى أن يهتدي بحكمتها الضالون، ويستيقظ بعظمتها الغافلون، عاد كتاب الله إلى وصف حالة هذا النوع من البشر، الذي استولى عليه الشك والخور، والقلق والضجر، فلم يعد يُصغي بسمعه إلى أي مقال، وإذا عُرض عليه الحق قابله بالإعراض واشتط في الجدل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، سواء كانت الآية من الآيات الماثلة في الكون العظيم، أو من الآيات الواردة في الذكر الحكيم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، أي: على الفقراء والمحتاجين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعِم مِّنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ناسين أن المال الذي بأيديهم هو مال الله، وإنما استخلفهم فيه، وفيه حق معلوم، للسائل والمحروم.

ثم بين كتاب الله ما هم عليه من شك في البعث، واستهزاء بالوعد والوعيد، وأكد الحق سبحانه وتعالى لمن في قلبه أدنى شك أن كل آت قريب وليس ببعيد، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، مَا يَنْظُرُونَ﴾، أي: ما ينتظرون، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، أي: يختصمون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وكشف كتاب الله الستار عن هول المفاجأة التي تبهرهم،

وتهز كيانه، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، أي: من القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾، قَالُوا يَنْوِيلُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، وَرَدًّا عَلَىٰ سَوَالِهِمْ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وللتذكير بقدرة الله القاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كما قال تعالى في أوائل هذا الربع: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وللتذكير بعدل الله المطلق بالنسبة للعاصي والمطيع والمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وختم هذا الربع بالحديث عن أصحاب الجنة المكرمين، وما هم عليه وأزواجهم من نعيم مقيم، فقال تعالى: ﴿إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، أي: مسرورون مغتبطون بتخطي الأهوال، وتجاوز الأخطار، وجواز الصراط، وضيافة الله لهم في الجنة، ﴿فِي ظِلٍّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّئُونَ، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ، وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾، أي: ما يتمنونه ويطلبونه يأتيهم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾، أي: يدخل عليهم الملائكة بالتحية من رب العالمين، بينما المجرمون يذوقون ألوان العذاب الأليم، ﴿وَامْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين
في المصحف الكريم

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ
تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾
أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى
أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا
الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ
فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تَعَسَّرَ
نَفْسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ
وَمَا يَتَّبِعِ لَهُ وَوَإِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾
لِنُذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
 مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
 وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزِنُكَ قَوْلُهُمْ وَ
 إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا
 خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
 وَنَسِيَ خَلْقَهُ وَقَالَ مَنْ بِنْتِي الْعِظَامُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ
 يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا آنَسْتُمْ
 مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
 إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ
 الَّذِي يَبْدِئُ مَلَائِكَةً كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالصَّفَاتِ صَفًا ١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ٢ فَالتَّلِيَّتِ ذِكْرًا ٣

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
 الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا
 مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
 الْخِطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ فَاسْتَفْتِهِمْ وَأَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
 أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ⑪ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫
 وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ⑭
 وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑮ أ. ذَامِنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
 إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⑯ أَوَّابًا أَوْنَا الْأَوَّلُونَ ⑰ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ⑱
 فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ⑲ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا
 يَوْمُ الدِّينِ ⑳ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ㉑



الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة يس المكية: ﴿الَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنِيَّ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، إلى قوله تعالى في سورة الصافات المكية أيضاً: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

وجه كتاب الله في بداية هذا الربع خطاب تقريع وتوبيخ إلى الجنس البشري كله، مذكراً بني آدم بقصة إبليس الذي وسوس إلى أبيهم آدم، معلناً ما بينه وبينهم من العداوة الراسخة والصراع الدائم إلى يوم الدين، نظراً لما تحداهم به إبليس اللعين، من إغوائهم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (٢٠: ١٢٣).

وتساءل كتاب الله كيف يقع بنو آدم في فخ الشيطان، رغماً عن الوصايا المتتالية التي أوصاهم الله بها في جميع رسالاته وكتبه، للتحذر من وساوس الشيطان، فقال تعالى: ﴿الَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنِيَّ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، أي: لا تطيعوه ولا

تمثلوا أمره، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، أي: ثابت العداوة لكم سراً وعلناً ظاهراً وباطناً، ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، فعبادة الله وحده هي الطريق اللّاحب، والنهج الصائب، ﴿وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، أي: أن الشيطان قد أغوى وأضل منكم خلقاً كثيراً، فكانت عاقبة الضالين منكم هي العذاب الأليم، لانحرافهم عن الصراط المستقيم، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾.

وها هو كتاب الله يصف سوء عاقبتهم، حتى أن «أَيْدِيهِمْ»، التي كانوا يبطشون بها أصبحت هي الشاهدة عليهم بما اجترحوه من الآثام في خطواتهم، بدلاً من أفواههم وألسنتهم، التي لم تعد لها أدنى قدرة على الجواب، لأن أصحابها أبلسوا عند الحساب، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وكإرهاص سابق في الدنيا من هذا القليل، ما هو معروف الآن من أن بَصَمَات الأصابع وفك الأسنان، تكشف أثناء التحقيق في الجرائم عن شخصية الإنسان. قال القرطبي: (فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾، فجعل ما كان من اليد كلاماً، وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مُباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره «شهادة»، وقول الفاعل على نفسه «إقرار» بما قال أو فعل، فلذلك عبّر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل «بالشهادة») وهذه لطيفة من لطائف التفسير ونفائسه.

ومضى كتاب الله ينذر الذين ضلّوا سواء السبيل، بالطمس والمسح في الآخرة، جزاء ما ارتضوه لأنفسهم في الدنيا من انطماس البصائر والأبصار، وتعطيل العقول وفساد الأفكار، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ، وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾، ومن كان عديم الإرادة مشلول الحركة كيف يخرق الصفوف وسط الزحام، ولا سيما عندما تلتف الساق بالساق، ومن كان مطموس العين فاقد البصر كيف يجتاز الصراط الذي هو «أرق من الشعرة وأحد من السيف»، بل كيف ينجح مثله في مثل هذا السباق؟ ألم يقل الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (١٧: ٧٢).

ومن الإنذار بالمسح الذي هو تبديل خلقة الإنسان، وقلبها إلى جماد أو حيوان، مما يُعدُّ عقاباً إلهياً صارماً، انتقل كتاب الله إلى وصف ما يتعرض له المعمرون الذين طال عليهم العمر في أغلب الأحيان، سواء كانوا أبراراً أو فجاراً، مؤمنين أو كفاراً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾، أي: رددناه بعد القوة إلى الضعف، وبعد النشاط إلى العجز، وبعد الشباب إلى الهرم، وهذه الحالة يصدق عليها معنى النكس والانتكاس، يقال: نكست الشيء فانتكس إذا قلبته على رأسه، ووصف كتاب الله في سورتين سابقتين هذه الحالة «بأرذل العمر»، لما يعتورها من التراجع والتناقص في القوى والملكات، على العكس من «أفضل

العمر»، الذي تنمو فيه القوى والملكات، وتزداد يوماً بعد يوم، فقال تعالى في سورة النحل (٧٠): ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، وقال تعالى في سورة الحج (٥): ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

وتعرض كتاب الله لوصف هذه الحالة نفسها بالتفصيل في سورة الروم السابقة أيضاً، فقال تعالى (٥٤): ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾، وفي صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ ويقول: «أعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أَرْدَلِ العُمُرِ»، وقد استجاب الله دعاء رسوله فانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره لا يزيد عن ثلاثة وستين عاماً. ثم قال تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، إشارة إلى أن الله الذي خلق الإنسان وقضى بتنكيسه في الخلق، بعد مروره بعدة أطوار، قادر على أن يفعل به ما يشاء من موت وبعث وحشر وحساب، ينتهي بالشواب أو العقاب.

وكأنَّ الحق سبحانه وتعالى إنما منح الإنسان في «أفضل العمر» المزيد من القوى والملكات، على العكس من «أردل العمر»، ليجعله في محك الاختبار، ويبرز كل ما في دخيلة نفسه من الطوايا والأسرار، حتى إذا ما حدد اختياره بمحض إرادته إصلاحاً أو إفساداً، وقرر مصيره بنفسه إشقاءً أو إسعاداً، وأخذت قواه وملكاته في التراجع والنقصان، وأحس بالتخلف عن الحركة،

والعجز عن مسابقة الركبان، تولى الحق سبحانه وتعالى إعدادة شيئاً فشيئاً لاستقبال الدار الآخرة، التي هي وحدها دار الخلود والإقامة، وهنالك ينال الإنسان ما هو أهل له عند ربه من المهانة أو الكرامة، ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (٣٥ : ٣٧).

ولِيُطْلَ كِتَابُ اللَّهِ إِحْدَى شُبَّهِ الْمُشْرِكِينَ الزائفة التي كان يروّجها أعداء الرسول وخصوم الرسالة في فجر الإسلام، وهي ادّعاء كون الرسول شاعراً، وكون الكتاب الذي جاء به من عند الله إنما هو من صنف الشعر المتعارف عند العرب، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، لأن رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، التي أرسله الله بها إلى الناس كافة، أجل وأعلى من أن تنزل إلى مستوى الشعر والشعراء أجمعين، فهي مخالفة للشعر شكلاً وموضوعاً، أصولاً وفروعاً، ومنذ ذلك العصر تبخرت هذه الشبهة ولم يعد لها أي رواج. ومما نبّه إليه القاضي أبو بكر (ابن العربي) في هذا المقام «أن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، لا يتضمن عيب الشعر، كما أن قوله تعالى (٢٩ : ٤٨): ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، لا يقتضي عيب الكتابة».

ثم نطق كتاب الله بالقول الفصل في شأن القرآن وشأن الرسالة، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ، لْتُذَكَّرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾، أي: من كان حي القلب حيّ الضمير، أو كل حيّ على وجه الأرض، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: لتقوم

الحجة عليهم، ومن أنذر فقد أعذر، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٧: ١٥).

وانتقل كتاب الله إلى التذكير بنعمه على الخلق، خصوصاً نعمه الظاهرة التي يتقلب فيها الإنسان كل يوم، ومن بينها (الأنعام) التي سخرها الحق سبحانه وتعالى لمصلحة الإنسان، ومنافعها المتعددة الأصناف والألوان، أكلاً وشرباً ولباساً وتأثيثاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾، أي: مما أبدعناه دون شريك ولا معين، ﴿أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾، أي: يتصرفون فيها، دون منازع ولا مانع، ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، أي: سخرناها لخدمتهم، ووضعناها تحت تصرفهم، قال جار الله الزمخشري: «ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (٤٣: ١٣)، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي: مركوبهم، كالإبل التي هي سفن الصحراء، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أي: ما يختارون لحمه للتغذية والأكل الشهي، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي: لهم فيها علاوة على ما سبق منافع أخرى من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود والشحوم، و﴿مَشَارِبُ﴾، إشارة إلى ما يتمتعون به من ألبانها السائغة للشرب، على غرار ما سبق في قوله تعالى في سورة النحل (٦٦): ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ، لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾، وقوله تعالى في نفس السورة (٨٠): ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا

تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاءَ وَّمَتْعَاءَ إِلَى حِينٍ ﴿١٠﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: أفلا يتذكرون هذه النعم الجليلة التي لا يطيب لهم العيش بدونها، ويشكرون الله عليها، بالعبادة الخالصة، والطاعة الدائمة، والتوحيد الكامل الذي لا تخالطه ذرة من الشرك، لا من الشرك الجلي ولا من الشرك الخفي.

ومن مقام التذكير بالنعم الإلهية التي أسبغها الحق سبحانه وتعالى على خلقه، عسى أن يعودوا إلى الله ويقدرّوه حق قدره يعود كتاب الله إلى وصف ما عليه المشركون الضالون، ومن سلك مسلكهم، من الجهل بعظمة الله، والشرك بربوبيته، وعدم الاعتراف بوحدانيته، وعبادة الأصنام والأوثان بدلاً من عبادته، والتصدي لمقاومة كل من يطعن في معبوداتهم ويكشف عن حقيقتها، أملاً في تلقي نصرها ومعونتها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمتهى الإيجاز: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ، وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾.

وللتخفيف من هموم الرسول ومشاغله، من أجل ما يلقاه عليه الصلاة والسلام من أذى المشركين وتعتتهم كل مطاع شمس، خاطبه ربّه قائلاً: ﴿فَلَا يُحْزِنُكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وكما ذكّر كتابُ الله الإنسان بنعمة «الانعام» التي لا يطيب له العيش بدونها ولا المقام، ها هو كتاب الله يذكر الإنسان

بنفسه التي بين جنبيه، ويتساءل بمنتهى الاستغراب كيف ينسى الإنسان أن الله هو الذي أوجده من العدم، وأنه خلقه من ماء مَهِين، ثم صوره في أحسن صورة، وجعله في أحسن تقويم، وزوده بالعقل والنطق واللسان، إلى أن أصبح فصيحاً بليغاً يحسن الجدل والقول والبيان، وبدلاً من أن يعترف بفضل الله عليه، ها هو يجادل في الحق ويكابر، ولا يتورع عن المجاهرة بأسخف سؤال يوجهه المخلوق إلى الخالق، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾، أي: يتولى مخاصمة مبدعه وخالقه، ويتشدد بتحدي ممدّه ورازقه، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، لكن لم يلبث أن جاءه الجواب المُفْجِعُ القاطع: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، قال القشيري: «وما دامت الإعادة في معنى الإبداء، فأى إشكال يبقى في جواز الإعادة في الانتهاء».

وأضاف كتاب الله إلى هذا الجواب، الذي لا يدخله الشك والارتياب، ظاهرة باهرة أخرى هي ظاهرة انقذاح النار من الشجر الأخضر، مع ما بين الماء والنار من تضاد في المَخْبَرِ والمَظْهَرِ، وهي ظاهرة معترف بها في القديم والحديث، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾.

وليَقْضِيَ كتاب الله على جحود المتنطعين وعنادهم، وعلى شك المتحذلقين واستبعادهم، ألقى عليهم الحق سبحانه وتعالى

سؤالاً ضخماً لا يمكن أن يكون جوابه إلا بالتسليم، من كل ذي عقل سليم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، الذي عم خلقه كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وختمت سورة (يَس) بخاتمة كلها تسييح وتقديس، واعتراف بحكمة الله الباهرة، وتمجيد لقدرته القاهرة، وتذكير بسطوته الباطنة والظاهرة، ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والآن وقد انتهينا بحمد الله من تفسير سورة (يَس) المكية نتقل بعون الله إلى تفسير (سورة الصفات المكية) أيضاً، قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَالصَّفَاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّلِيَّتِ ذِكْرًا﴾.

هذا قَسَم من الله تعالى بملائكته، ﴿الصَّفَاتِ﴾ بالملأ الأعلى في عبادته، ﴿وَالزَّاجِرَاتِ﴾، عباده عن معصيته، و﴿التَّلِيَّتِ﴾، كلامه المنزل على رسله لإرشاد الإنسان وهدايته، وهذه الصفة الأخيرة للملائكة جاءت هنا على غرار قوله تعالى فيما سيأتي في سورة المُرْسَلَاتِ (٥ - ٦): ﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾، وقال جار الله الزمخشري: «يجوز أن يُقسَم الله بنفوس العلماء العمال، ﴿الصَّفَاتِ﴾، أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾، بالمواعظ والنصائح، ﴿فَالتَّلِيَّتِ﴾، آيات الله، والدارسات

شرائعه، أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله، التي «تَصُفُّ» الصفوف، و«تُزَجِّر» الخيل للجهاد، و«تتلو» الذكر مع ذلك، لا تشغلها عنه الشواغل، كما يُحَكِّى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وجواب القَسَم، المُقَسَّم عليه «بالصافات والزاجرات والتاليات» هو قوله تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، وما أحسن ما علق به الإمام القشيري على هذه الآية حيث قال: (ومعنى كونه «واحدًا» تفرُّده في حقه عن القسمة، وتقْدُّسه في وجوده عن الشبيه، وتنزُّهه في ملكه عن الشريك، «واحدٌ» في جلاله، «واحدٌ» في جماله، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في كبريائه، بنعت علائه، ووصف سنائه) وُجِّمَت كلمة «المَشَارِقِ»، إما باعتبار كل ما يسبح في الفضاء من شمس وأقمار، وإما باعتبار الشروق اليومي للشمس وحدها طيلة كل نهار.

وبمناسبة ذكر السماوات ومشارقتها في فاتحة هذه السورة لفت كتاب الله الأنظار إلى السماء الدنيا وزينتها، فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧: ٥): ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ﴾، ثم عرَّفنا بأن الملائكة الأعلى الذي ينزل منه الوحي على الأنبياء والمرسلين، هو على الدوام في مأمن من تطفل الكهان والشیاطين، وأن من حاول منهم النفاذ إلى حماه، للتشويش على الوحي المنزل من عند الله، أو لهتك أستار «عالم الغيب»، كان

معرضاً للطرد والرَّجْم دون أدنى ريب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَحَفِظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، دُحُورًا﴾، أي: يطردون طرداً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧: ٥): ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، أي: موجع ومؤلم، من الوَصْب وهو المرض، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن خَطِئَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، هذا الاستثناء يرجع إلى غير الوحي، لأن الوحي لا سبيل إلى التطفل عليه، بدليل قوله تعالى هنا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾، وقوله في آية أخرى (٢٦: ٢١٢): ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، أما «عالم الشهادة» المادي فهو مفتوح الأبواب، في وجه كل إنسان، منذ قديم الزمان.

ثم أعاد كتاب الله الكرة لمجابهة منكري البعث وخصوم الرسالة، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا، أَمْ مَن خَلَقْنَا﴾، أي: من السماوات والأرض وما فيهما، وهذه الآية على غرار قوله تعالى (٤٠: ٥٧): ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مَن خَلَقَ النَّاسَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّزِيمٍ﴾، أي: طين لاصق بعبئه ببعض، ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، أي: أنت عجبت من إنكارهم للبعث، وهم يسخرون من إثباتك له، ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾، أي: من آيات الله في الأفاق والأنفس، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾، أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء، ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ. أ. ذَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ نَعَمْ. وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٢﴾، أي: مغلوبون على أمركم صاغرون.

وختم هذا الربع بوصف المفاجأة الكبرى التي تنتظرهم، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾، أي: إذا هم قيام ينظر بعضهم إلى بعض، و«الزجرة الواحدة» هنا هي الصيحة الواحدة، ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿٤٣﴾، فرد عليهم الملائكة الموكلون بهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾، والمراد «يوم الدين» يوم الجزاء، و«يوم الفصل» يوم القضاء، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿٤٥﴾ (٧ : ٤٢).

الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين
في المصحف الكريم

أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٧﴾ وَقَفَّوهُمْ وَإِنَّهُمْ
مَسْئُولُونَ ﴿٢٨﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَائِمُونَ ﴿٣٠﴾
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ الْيَمِينِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِيًّا ﴿٣٤﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُنَا إِنَّآ لَذَآئِقُونَ ﴿٣٥﴾
فَأَعْوَيْنَكُمْ وَإِنَّا لَكَاغِبُونَ ﴿٣٦﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٧﴾
إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَاهِلِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهُنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٤٠﴾
بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤١﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ
إِلَّا لَيْمٌ ﴿٤٢﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٤﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤٥﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ

النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾
 بَهْجَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾
 وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُوزٌ ﴿٤٩﴾
 فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ وَإِنِّي
 كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَأُنْكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَذَا مِتْنَا وَكُنَّا
 تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ
 فِرْعَوْنُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا
 نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَئِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
 الْأُولَى وَمَتْنَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ
 هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلُّوا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا
 جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾
 طَلْعُهَا كَأَنَّهُ وُرُوءُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا يَنُوتُونَ مِنْهَا
 الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى
 الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ وَالْقَوْمَ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ
 مُهْمَرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

الْإِعْبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ
 الْمُجِيبُوْنَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
 وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِيْنَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾
 سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾
 إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل الحديث عن المشركين بالله، والمنكرين للبعث والشَّاكِّين في الوقوف بين يديه، مسجلاً الأوامر والآهية الصادرة في شأنهم وشأن رفقاتهم، ليلقوا الجزاء المناسب عن جريمة الشرك بالله، وجريمة الشك في البعث، اللتين هما أكبر الجرائم، رافعاً الستار عما يدور بين أئمة الكفر الطغاة، وأتباعهم المخدوعين المغلوبين على أمرهم، وهم يتحاورون في جهنم ويتلاومون، لكن بعد فوات الوقت، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ (١٠: ٥٤)، وأول أمر صدر في حق هؤلاء الأئمة والأتباع سجله كتاب الله في بداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، أي: أشياعهم وأتباعهم،

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار.

وتمهيداً لحكاية الحوار الذي يدور بينهم في هذا المشهد الرهيب قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

فمن كلام الأتباع المخدوعين، وهم يخاطبون أئمة الكفر، حكى كتاب الله قولهم: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، ولفظ ﴿الْيَمِينِ﴾، هنا مستعار للقوة والقهر، كما حكى قول نفس الأتباع في التنديد والتشهير بما كان عليه أئمة الكفر من استبداد وطغيان: ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

ومن كلام أئمة الكفر الطغاة وهم يخاطبون الأتباع المخدوعين حكى كتاب الله قولهم: ﴿قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَان لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، مقلدين بهذا الأسلوب في التضليل والتلبيس إمامهم الأكبر إبليس، إذ قال في مثل هذا المجال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (١٤: ٢٢).

ثم سجل كتاب الله عليهم اعترافهم - بعد اللف والدوران - بجرمهم، واعترافهم بعدل الله في عقابهم على ظلمهم، فقال تعالى على لسانهم بالنسبة للاعتراف الأخير: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا، إِنَّا لَذَٰئِقُونَ﴾، أي: ذائقون عذاب الله لا محالة، وقال

تعالى على لسانهم بالنسبة للاعتراف الأول: ﴿فَاغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ مخاطبين أتباعهم.

وفي خلال هذا الحوار وصف كتاب الله ما آل إليه أمر المتبوعين والأتباع من تخاذل واستسلام، في هذا المقام، حيث لم ينصر أحد الفريقين الفريق الآخر، للخلاص من العذاب، ولم ينصر كلا الفريقين ما كانوا يعبدونه من دون الله، من الشياطين والأوثان والأصنام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمتهى الإيجاز: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، أي: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً الآن، ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

وسجل كتاب الله القول الفصل، والحُكْم العدل في هذه القضية وأمثالها، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، لكن لكل فريق منهم نصيبه المناسب لجُرمه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، وسبق في سورة الأحزاب موقف قريب من هذا الموقف، يكشف فيه الأتباع المخدوعون زيف القادة الذين خدعوه، ويلعنونهم لعناً كبيراً، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم (٦٧): ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾، وإنما استحقوا ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، لأنهم ضلوا وأضلوا.

وتثبيتاً للحكم الصارم الذي حكم به الحق سبحانه وتعالى في شأنهم جاء كتاب الله بحديثات الحكم وأسبابه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، أي: إذا قيل لهم

قولوا لا إله إلا الله، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ آيُنَا لَنَنَارِكُوهَا أَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، فهم يشركون بالله ولا يرضون به رباً، وهم يطعنون في الرسول ولا يرضون به نبياً، وكفى بإنكار الربوبية وإنكار النبوة مبرراً لاستحقاق العذاب، في نظر أولي الألباب، -ومنذ أبى إبليس من السجود لآدم واستكبر فدخل في عداد الكافرين أصبح الاستكبار عن عبادة الله وطاعته سنة متبعة عند أهل الكفر، وقاسماً مشتركاً بينهم في كل جيل وعصر، حتى أنه كلما ذُكر في القرآن «الكفر والكافرون»، ذُكر بجانبه في الغالب «الكبر والمستكبرون».

ورداً على مزاعم المشركين في حق الرسول، وإبطالاً لها من الأساس، قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فرسالته عليه الصلاة والسلام تجديد وتكميل لرسالات الرسل جميعاً، والذي جاء به من عند الله، هو الحق الذي لا حق سواه، وما خالفه كله باطل، ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (١٧: ٨١)، ورفعاً لكل إبهام والتباس فيما جرى على لسان أئمة الكفر، إذ قالوا فيما سبق: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾، قال تعالى موضعاً ومفصلاً: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْإِلِيمِ، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْلُمُونَ﴾.

وفتح كتاب الله صفحة جديدة في سجل عباد الله المخلصين الذين لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، لوفائهم بعهدهم مع الله، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ إِلَهُ فسنؤتيه أجراً عظيماً﴾ (٤٨: ١٠)، ووصف أنواع الإنعام والإكرام

المخصصة لهم في جنات النعيم، فقال تعالى مستثياً لهم ممن يذوقون العذاب: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، ومعنى ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾، بفتح اللام على قراءة نافع المدني وبرواية ورش المتبعة في المغرب: «الذين أخلصهم الله لطاعته، واستخلصهم لولايته» وقرئ بكسر اللام أيضاً أخذاً من «الإخلاص» بمعنى إفراد الله وحده بالعبادة، وتصفية عبادته من كل الشوائب، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ﴾، أما «الرزق المعلوم» ففي شأنه جاء قوله تعالى في آية أخرى (١٩: ٦٢): ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وأما «الفواكه» ففي شأنها جاء قوله تعالى في آية أخرى (٥٦: ٦٢): ﴿وَفَنَكِهِ كَثِيرَةً، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، ثم قال تعالى على وجه التعميم والشمول: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، والإكرام بمعناه العام لا يقتصر على ما ورد في هذا السياق وما مثله، بل يشمل ويشمل غيره، «مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر، على قلب بشر»، حسبما أخبر بذلك الصادق المضدوق عليه أزكى الصلاة وأزكى السلام، وفي طليعة ذلك كله: «رضوان الله» الذي هو غاية الغايات، عند أصفياء الله وأوليائه. قال تعالى (٩: ٧٢): ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ومضى كتاب الله يعدد جملة من نعمه الظاهرة على عباده المخلصين، فبعد أن وصف طعامهم من قبل، ها هو يصف

مجالس أنسهم، ونوع شرابهم، وحلائل أزواجهم، حيث يقول: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، أي: جالسون على سرر متقابلين، وذلك ليأنس بعضهم ببعض، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ بَيْضَاءَ، لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾، أي: بكأس لا تحدث لهم مَغَصاً في البطن، ولا صداعاً في الرأس، ولا غيبوبة في العقل، وكلمة «الغَوْل» هي التي أبدلت في اللسان الدارج غلطاً باسم «الكحول» تقليداً للنطق الأجنبي المحرف، ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطُّرْفِ عِينٌ﴾، أي: عندهم زوجات عفيفات يَغْضُضْنَ أَبْصَارَهُنَّ، وهن حسان الأعين، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، أي: مصون.

ومن المشاهد المثيرة والمؤثرة التي سجلها كتاب الله في هذا السياق مشهد أحد نزلاء الجنة وهو يحكي لرفاقه بعض ذكرياته، ومنها محاولة أحد قُرَنَاءِ السوء لإغرائه بالكفر وإغوائه، وتشكيكه في أمر البعث والحساب، والثواب والعقاب، وعندما ينتهي من قصته يُبْدي لرفاقه رغبته في البحث عن مصير هذا القرين وَمَقَرَّهُ الأخير في الدار الآخرة، فإذا به يكتشف أن قرينه الذي كان يخادعه في الدنيا يوجد بين نزلاء جهنم، ويحمد الله على أن قرين السوء الذي كان يستدرجه للكفر لم يبلغ منه ما يريد، وإلا لهلك مثله وكان له نفس المصير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَ. نُّكَ لِمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أ. ذَا مِثْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلاً إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، أي: مَجْزِيُونَ ومحاسبون بعد

الموت، ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ﴾ أي: قال لرفاقه: هل تشرفون من مكان عال، وتطلعون معي على المعذبين، لتروا بأعينكم معي هذا القرين، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، أي: رأى قرينه يرتفع في بحبوحة جهنم، فلما رآه على تلك الحال، ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتُردِّدِينَ﴾، أي: قال وكأنه يتحدث إلى ذلك القرين الشقي: إِنْ كِدْتُ لِتُهْلِكَنِي، وأكد هذا القول بالقسم، ثم استحضر العناية الإلهية، التي حمته من الوقوع في فخ ذلك القرين والسقوط في الهاوية، فقال مُعْتَرِفاً بفضل الله عليه: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾، أي: لكنت من الذين يساقون إلى جهنم سوق المجرمين.

وتعبيراً عما في ضمائر نزلاء الجنة المنعمين، وتمنيهم للحياة فيها حياة لا يذوقون بعدها الموت، نطق كتاب الله بلسان حالهم قائلاً: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وعندما أدركوا أن ما تمنوه من حياة الخلود هو بفضل الله عليهم من باب تحصيل الحاصل، تيقنوا أن ما يشغل الناس في الدنيا ويلهيهم عن الله إنما هو ظل زائل، أما نعيم الآخرة فهو وحده النعيم المقيم، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وليحضوا غيرهم على الاهتمام بهديهم واللاحاق بركبهم، قال تعالى على لسانهم: ﴿لِيَمِثِلْ هَذَا فَلَْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

وحيث أن الأشياء إنما تعرف بأضدادها بادر كتاب الله إلى تصوير حالة الأشقياء المعذبين، الذين ظلموا ربهم، فأشركوا به غيره، ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣١: ١٣)، وظلموا عباده،

فاستعبدوهم وأضلّوهم، وظلموا أنفسهم، فرفضوا دين الحق الذي لا يقبل الله سواه، وافتتح كتاب الله هذا العرض بسؤال عجيب لا يجد له الأشقياء جواباً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلاً﴾، أي: أنزل أصحاب الجنة ورزقهم خير، ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾، التي هي نزل أصحاب الجحيم، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾، أي: امتحاناً لهم واختباراً، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾، أي: ثمرها مكروه مستقبح، كما يكره الناس ويستقبحون صورة الشيطان، التي هي في خيالهم أشدّ الصور تجسماً للبشاعة والقبح. وكما اعتقد الناس في «الملك» أنه خير محض، فشبهوا به أحسن الصور وأجملها، اعتقدوا في «الشيطان» أنه شر محض، فشبهوا به أقبح الصور وأبشعها، ومن ذلك قوله تعالى على لسان صواحب يوسف في التشبيه بالملك: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (١٢: ٣١)، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا﴾، أي: من شجرة الزقوم، ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، أي: شرباً من الماء الحار، مشوباً ببعض الأخلاط الرديئة، مما يزيدهم عذاباً على عذاب، وعقاباً على عقاب، ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٥٥: ٤٤)، ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ - أِنْ﴾.

وتنبهوا إلى عدل الله في عقابه للظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم وظلموا ربهم، وتمسكوا بالتقليد الأعمى

لِلْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ فِي ضَلَالِهِمْ، وَأَصْرُوا عَلَى اتِّبَاعِ آثَارِهِمْ وَحَمَلِ
 أَوْزَارِهِمْ، قَالَ تَعَالَى تَعْقِيًّا عَلَى مَا سَبَقَ: ﴿إِنَّهُمْ أَفْوًا - آبَاءُهُمْ
 ضَالِّينَ﴾، أَي: وَجَدُوهُمْ عَلَى ضَلَالٍ فَاقْتَدُوا بِهِمْ، ﴿فَهُمْ عَلَى
 عَآثِرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾، أَي: يَسِيرُونَ عَلَيْهَا سِيرًا حَثِيئًا، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ
 قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
 عَقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾،
 اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾، عَقِبُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ
 ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾، أَوْ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَقِبَةُ
 الْمُنْذِرِينَ﴾، عَقِبُ قَوْلِهِ (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ). وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ
 الْاسْتِثْنَاءُ مِنْهُمَا مَعًا، لِأَنَّ «عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» اهْتَدَوْا فَلَمْ
 يَكُونُوا، ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾، وَسَبَقَتْ لَهُمُ الْحُسْنَى وَالْبُشْرَى فَلَمْ
 يَكُونُوا، ﴿مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

وَبَعْدَ مَا أَشَارَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى الْمُنْذِرِينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ
 لِإِنذَارِ الضَّالِّينَ وَهَدَايَتِهِمْ، وَإِلَى الْمُنْذِرِينَ الَّذِينَ أَصْرُوا عَلَى
 ضَلَالَتِهِمْ، تَصَدَّى لَذِكْرِ نَمَازِجٍ فَرِيدَةٍ فِي نَوْعِهَا مِنْ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ،
 مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ وَذِكْرٌ لِكَافَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْوِيحٌ وَتَسْلِيَةٌ لِحَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ
 وَالْمُرْسَلِينَ: وَأَوَّلُ اسْمٍ تَصَدَّرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ اسْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، فَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ، فَلَنِعْمَ
 الْمُجِيبُونَ﴾، أَي: بَعْدَ أَنْ يُشِ نُوْحٌ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ
 مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، اسْتَغَاثَ بِنَا وَاسْتَنْصَرَ، ﴿وَقَالَ نُوحُ رَبِّ لَا تَذَرْ
 عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٧١: ٢٦)، وَاسْتَجَبْنَا دَعَاةَ
 وَنَصَرْنَاهُ عَلَيْهِمْ، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أَي:

نجيناه ومن آمن معه من الطوفان الذي سلطناه على الكافرين من قومه، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، لأن الكافرين من قومه بادوا مع ذرياتهم وماتوا غرقاً، فلم يبق منهم عين ولا أثر، وإنما بقي منهم مجرد العبرة والخبر، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى (١١: ٤٨): ﴿قِيلَ يَنْوُحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وتنويهاً برسالة نوح عليه السلام، وإبرازاً لمكانته الخاصة عند الله وعند الناس، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، أي: أبقينا له ذكراً جميلاً على مر الزمان، وسخرنا للسلام عليه كل لسان، ثم قال تعالى مبيّناً استحقاق نوح ومن سار على هديه لحسن الجزاء، وكونه أهلاً لكل تنويه وثناء: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، فالإيمان والإحسان هما الطريق الموصل إلى رضا الرحمان، ورضا الرحمان هو الوسيلة إلى زرع محبة الإنسان في قلب أخيه الإنسان، أما الذين وقفوا لنوح ورسالته بالمرصاد، فقد انتقم الله منهم شر انتقام، لأنهم طغوا في البلاد، وكانوا من شر العباد: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾، قال جار الله الزمخشري: «علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التَّكْرمة السنية، من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر، بأنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، لئيريك جلالة محل الإيمان، وأنه القُصَارَى من صفات المدح والتعظيم، ولئيرغبك في تحصيله

والازدياد منه، فاللهم زدنا إيماناً وإحساناً، ولتتل مرة أخرى تلاوة مجردة قوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين
في المصحف الكريم

وَإِنْ

مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ⑧ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ⑨ إِذْ
قَالَ لِلْأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ⑩ أَفُنْكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ
تُرِيدُونَ ⑪ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑫ فَنَظَرْنَا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ⑬
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ⑭ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ⑮ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ⑯ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ⑰ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا
بِالْيَمِينِ ⑱ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ⑲ قَالَ أَعْبُدُونِ مَا تَشَاءُونَ ⑳
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ㉑ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي
الْحَيِّمِ ㉒ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ㉓
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَاهِدِينَ ㉔ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ㉕
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ㉖ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتْلُو إِنِّي
أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَأْتِي قَالَ يَأْتِي
إِفْعَلْ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ㉗

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٧٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّكِئْهُمْ ﴿١٧٤﴾
قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٥﴾ إِنَّ
هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٧٦﴾ وَقَدَيْنَاهُ بِذِي عَظِيمٍ ﴿١٧٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٠﴾ إِنَّهُ وَمَنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨١﴾ وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ
نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٨٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا
عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ ﴿١٨٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْنُؤُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٨٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا
الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١٨٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٩٠﴾
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩٣﴾
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٩٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ
أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٩٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ ﴿١٩٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٩٨﴾

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٨﴾
 إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾
 وَإِنَّ لَوْ طَا لِمَنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٥﴾ إِذْ بَخَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
 إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٣﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّا كُمْ
 لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣١﴾ وَبِالْيَلِ أَفِلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنَّ
 بُنُسَ لِمَنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذَا بَقِيَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٨﴾ فَسَاهَمَ
 فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٧﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٦﴾
 فَلَوْلَا أَنَّهُ مَكَانَ مِنَ الْمُسْتَخِينِ ﴿١٢٥﴾ لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى
 يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٤﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، إلى قوله تعالى عن يونس: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلْبَثُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

بعدما أوجز كتاب الله الحديث عن نوح عليه السلام في الآيات الثمان الأخيرة من الربع الماضي واصل الحديث في بقية هذه السورة عن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم عن موسى وهارون، ثم عن إلياس، ثم عن لوط، ثم عن يونس، عليهم سلام الله جميعاً، لكن قصة إبراهيم أخذت من هذه السورة الحظ الأوفر بالنسبة إلى قصص الأنبياء الآخرين، فقد استغرقت وحدها إحدى وثلاثين آية، أي: مجموع الثمن الأول من هذا الربع بأكمله. والحديث عن إبراهيم الخليل في كتاب الله وارد في خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، من بينها سورة إبراهيم وسورة الأنبياء، وفي سورة الأنبياء السابقة استغرقت قصته ثلاثاً وعشرين آية.

يقول الله تعالى في بداية هذا الربع، عقب الانتهاء من قصة نوح مباشرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾، أي: أن إبراهيم كان في الدعوة إلى توحيد الله وطاعته، والتفاني في نشر دينه وإعلاء كلمته، على منهاج نوح وسنته.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، معناه أن إبراهيم أقبل على ربه بكل قلبه، بحيث لا يشغله عنه شيء سواه، فقلبه خالٍ من الشرك، خالٍ من الشك، نقي جميع الآفات التي تعترى القلوب. وسبق في سورة الشعراء، في ختام مجموعة من الأدعية الإبراهيمية، التي كان يدعو بها إبراهيم ربه، دعاؤه الذي يقول فيه (٨٩): ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فتقبل الله دعاءه، وحقق في الدنيا قبل الآخرة رجاءه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَيُفَكَّا - إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، إشارة إلى ما قام به إبراهيم من دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وتوحيده، بدلاً من عبادة الأصنام التي يزعمون أنها آلهة، مع أن هذا الزعم لا يعتمد على حجة، ولا يستند إلى برهان، وإنما هو مجرد أفك وبهتان، وهذه الآية هنا على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنعام (٧٤): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا - إِلَهَةً، إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، والسؤال الوارد هنا في قوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ سؤال من إبراهيم، يتضمن الإنكار والاستنكار، لما عليه قومه من ضلال في العقائد والأفكار، وكلمة (الافك) تطلق على أسوأ أنواع

الكذب، وهو الكذب الذي لا يثبت، ويضطرب صاحبه، ولا يعني ذلك أن في الكذب ما هو أحسن أو مستحسن.

وقوله تعالى على لسان إبراهيم وهو يخاطب قومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟ يؤدي معنيين بإثنين:

- المعنى الأول تذكيرهم بأن الله «رَبُّ الْعَالَمِينَ»، هو وحده الذي يستحق العبادة من الناس أجمعين، لا هذه الأصنام التي يَسْخَرُ من عبادتها العقل والدين.

- والمعنى الثاني تحذيرهم من لقاء الله وهم به مشركون، والوقوف بين يديه وهم لغيره عابدون، إذ بأي وجه يلاقونه، وبأي لسان يخاطبونه.

وقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾، إشارة في منتهى الإيجاز إلى ما حكاه كتاب الله عن إبراهيم في سورة الأنعام بتفصيل، حيث قال تعالى (٧٥: ٧٩): ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي، هَذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فقد كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب، والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ

في معتقداتهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويُعرفهم بأن النظر الصحيح لا يقبل أن يكون شيء من تلك المعبودات إلهاً، ولا يتردد في الإيمان بأن وراء تلك الكواكب مُدبراً دَبَّرَ طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها.

وقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أَوْهَمَ به إبراهيم قومه أنه أصيب بِسَقَمٍ ومرض، ولعلمهم فهموا أن مرضه من أمراض الجسم المُعْدِيَةِ، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، أي: أدبروا عنه وتركوه وحيداً فريداً، فراراً مما تخيلوه من العدوى، لكن إبراهيم لم يكن سقيماً بالمعنى الذي فهموه، وإنما كان سقيماً بمعنى آخر، فهو يريد أن يعتزلهم ويختلي بنفسه، ليتمكن من تنفيذ مخططه في الهجوم على أصنامهم والتمثيل بها، وبذلك يزول سقمه، إذ أن الضمير الحي للمؤمن الحق لا يستريح إلا بتغيير المنكر والقضاء عليه، ولا سيما إذا كان في درجة إبراهيم ومقامه العظيم الذي بلغ القِمَّةَ، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (١٦: ١٢٠)، وإذن فقول إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لا يندرج تحت معنى «الكذب»، وإنما هو من جملة «المعاريض» التي تستعمل لتحقيق مقصد شرعي مقبول، وثبت في الحديث الشريف: «إن في المعاريض لَمَنْدُوحَةً عن الكذب»، وما ورد في بعض الأحاديث من إطلاق لفظ «الكذب» على مثل هذا القول وغيره من مقالات إبراهيم الماثورة إنما هو مجرد «تجاوز» في التعبير، وليس المراد به الكذب المنهَى عنه شرعاً، والمستهجن طبعاً، فالأنبياء والرسل - وفي طليعتهم إبراهيم خليل الله - معصومون من جميع

النقائص، والكذب من أشنع النقائص وأبغضها إلى الله والناس.

ثم قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾، هذا وصف موجز لما قام به إبراهيم في غيبة قومه، بعد أن خلا بنفسه وبقي وحده في معبدهم، فقد وجد أمام الأصنام التي يزعمون أنها آلهة طعاماً أحضروه خصيصاً للمعبد، تقرباً إلى الأصنام، وتبركاً بها، فلم يسعه إلا أن يخاطب الأصنام التي هي جماد مخاطبة العقلاء، إمعاناً منه في السخرية بها والاستهزاء، وذلك قوله مخاطباً لإصنامهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾؟ وفي هذه الخلوة الفريدة من نوعها سنحت له الفرصة التي كان ينتظرها ليتحدى ضلال قومه، ويكشف سفاهة رأيهم وسخافة معتقداتهم، فانهال يمينه على أصنامهم يضربها ويحطمها، حتى تناثرت أشلاؤها بالهدم والتدمير، ولم يترك منها - لحكمة ستظهر من بعد - إلا الصنم الكبير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، وإنما خص الضرب ﴿بِالْيَمِينِ﴾ لأنها أقوى والضرب بها أشد، وسبق قوله تعالى في سورة الأنبياء (٥٨): ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾، أي: فتاتاً، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ومعنى «راغ» مال سراً وذهب في خفية، والمصدر رَوَّغَ وَرَوَّغان كما يقال: «رَوَّغان الثعلب».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾، هذا بيان لما أصاب قوم إبراهيم من هول المفاجأة،

إذ بمجرد ما بلغتهم أصداء ذلك الحَدَث الخطير هَبُّوا مسرعين إلى معبدهم للدفاع عن أصنامهم، ولما واجهوا هذا العمل بالاستنكار واجههم إبراهيم بالحق الصراح الذي ليس عليه غبار، فأخذ يسأل ويتساءل هل من المعقول أن يعبد الإنسان الصنم الذي ينحته بيده من الحجر، ولا يعبد الله الذي خلق البشر، وخلق ما يعمل به كل من صَنَعَ وَمَهَرَ، واخترع وابتكر، إذ لولا المواهب والملكات التي وهبها الله للإنسان، والمواد الخام التي سَخَّرَهَا لَهُ، لما كان أيُّ شيء من ذلك في حيز الإمكان: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وروى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة مرفوعاً: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه».

وأجمل كتاب الله في هذه السورة ما قام به قوم إبراهيم من «تحقيق» في هذه الحادثة التي أثارت غضبهم، وهيجت تعصبهم، وما آل إليه «التحقيق» من محاكمة علنية أصدرها الحكم في إثرها بإعدام إبراهيم حرقاً، بدلاً من إعدامه شنقاً، مبالغاً في العقاب والتعذيب، لكي لا يتجرأ أحد بعده على سلوك مسلكه الشاذ والغريب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾، أي: في النار الموقدة، لكن الله تعالى لم يحقق حلمهم، ونقض حكمهم: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾، وسبق في سورة الأنبياء عرض هذا الجانب وغيره من قصة إبراهيم بتفصيل أكثر، ابتداءً من الآية الواحدة والخمسين حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ - آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ، وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿قَالُوا

حَرْقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ. قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِصِينَ ﴿٤٠﴾.

وبعد أن نصر الله خليله إبراهيم على قومه بأعظم أنواع النصر، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (٩: ٤٠)، فكر إبراهيم عليه السلام في اعتزال قومه والهجرة من ديارهم، ليأسه من صلاح حالهم، فتوكل على الله، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: ذاهب إلى مكان آمن أتمكن فيه من عبادة الله، وموطن صالح للدعوة أوصل فيه الدعوة إلى توحيد الله، ابتغاء مرضاة الله، قال القرطبي: «هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام»، ولثقة إبراهيم بهداية الله إياه، في الحلّ والترحال، وتوفيق خطواته في الحال والمآل، عقّب على ذلك بقوله: ﴿سَيَّهْدِينِ﴾، إيماناً منه بأن هداية الله له حاصلة لا محالة، واقتداء بهذه المقالة التي قالها إبراهيم عليه السلام قال موسى عليه السلام أيضاً: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٨: ٢٢)، وقال: ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَّهْدِينِ﴾ (٢٦: ٦٢).

وليطمئن إبراهيم على انتشار دعوته واستمرارها تمنى على الله أن يرزقه خلفاً صالحاً يحمل الدعوة من ذريته، فالتجأ إلى الله يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ولفظ «الهب» يستعمله القرآن في الولد والأخ، لكن يغلب استعماله في الولد، كما ورد في هذه الآية، ومن استعماله في الأخ قوله تعالى (١٩: ٥٣): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

وتعليقاً على دعاء إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾، قال فخر الدين الرازي: «أعلم أن الصلاح أفضل الصفات، بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٢٦: ٨٣)، وطلبه للولد فقال: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وطلب سليمان الصلاح بعد كمال درجته في الدين والدنيا فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧: ١٩)، وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد».

وكم كانت البشرى باستجابة دعاء إبراهيم سريعة معجزة، فضلاً من الله وكرماً، حيث قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وكلمة ﴿غُلَامٍ﴾، تفيد أن المولود المتمنى على الله سيكون ذكراً، وأنه سيتجاوز مرحلة الطفولة ويبلغ الحلم، وكلمة ﴿حَلِيمٍ﴾، تدل على أنه سيلقى من الابتلاء ما يحتاج إلى الحلم في تحمله، وبذلك يكون حليماً مثل أبيه، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾، (١١: ٧٥) والوصف «بالحلم» يشعر بأن الغلام المبشّر به في هذا المقام هو إسماعيل لا إسحاق، لأن الوصف بالحلم أنسب به أكثر من أخيه، وأيّ حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ومن الحديث عن تبشير الله لإبراهيم ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، انتقل كتاب الله فجأة إلى عرض الملحمة الكبرى التي ابتلى الله فيها هذا الغلام، ووالده «الإمام» فكانت مناسبة لامتحان مبلغ ما

عند الوالد والولد من «حِلْمٍ» عظيم، وفرصة لإبراز مالهما عند الله من مقام كريم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى؟ قَالَ يَأْتِ بِفِعْلٍ مَا تَوَمَّرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يُابْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

ذلك أن إبراهيم وابنه لما علما أن رؤيا الأنبياء من وحي الله، واستسلما لقضاء الله، الأول «إبراهيم» في قُرَّة عينه، والثاني «إسماعيل» في نفسه، وتهيئاً للعمل، ذاك بصورة الذابح، وهذا بصورة المذبوح، وكان ما كان من أمر إبراهيم امتثالاً، ومن إسماعيل انقياداً، أكرم الله إبراهيم وابنه ﴿بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾، وإنما كان «عظيماً» لأنه فداء لولد إبراهيم العظيم، وما أدراك ما إبراهيم وآل إبراهيم، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (٢: ١٢٤)، الآية، وبذلك رفع الحق سبحانه وتعالى عن إبراهيم وولده «الذبيح» مِحنةً مزدوجة تَعُمُّ الوالد والولد، ولا مِحنة أصعب منها ولا أشد، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾، ولو تمت تلك الذبيحة لكانت «سنة»، ولذبح أتباع إبراهيم أبناءهم، لكن الله سلم، فشرعت الأضحية في الإسلام، رمزاً إليها وتذكيراً بها، وشكراً لله على نعمة الحياة التي أكرمنا بها، ودعانا إلى الحفاظ عليها، وأمر الله رسوله «بيوم الأضحي»، فجعله عيداً لهذه الأمة كما ورد ذلك في حديث شريف صححه ابن حبان.

وكما ختمَ كتابُ الله قصة نوح في الربع الماضي بالتنويه به والثناء عليه إذ قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، ختم قصة إبراهيم في هذا الربع أيضاً بمثل ذلك، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقبل أن ينتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة موسى وهارون أخبرَ بالبشرى الثانية التي بشر الله بها إبراهيم وهي ولادة إسحاق الذي يصغر عن أخيه إسماعيل ببضع عشرة سنة، وأثنى عليه وعلى والده والمحسنين من ذريتهما، فقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، ومما يلاحظ في هذا الصدد أن البشارة بإسحاق التي وردت في سورة الحجر (الآية: ٥٣)، تضمنت وصفه «بِالْغُلَامِ الْعَلِيمِ»، ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، بينما البشارة هنا بأخيه إسماعيل فظلت وصفه «بِالْغُلَامِ الْحَلِيمِ»، ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وتأكيداً لحلم إسماعيل وصبره قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢١: ٨٥).

وتنويهاً بقدر إسماعيل، على غرار أخيه إسحاق، قال تعالى (١٩: ٥٤، ٥٥): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾، وفي حقه وحق أخيه قال تعالى على لسان أبيهما

إبراهيم، حمداً لله وشكراً: ﴿إِلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (١٤ : ٣٩).

وكما أجمل كتاب الله في الربع الماضي قصة نوح عليه السلام، أجمل في هذا الربع قصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس:

فعن موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أي: من الرق الذي خلّص منه قومه أولاً، ومن الغرق، الذي لحق فرعون وجنوده وحدهم أخيراً، ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾، ثم ختم كتاب الله قصتهما بنفس الأسلوب الذي ختم به قصة نوح وإبراهيم فقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ، سَلَّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعن إلياس عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، أي: أتدعون صنماً اتخذتموه رباً، وتتركون أحسن من يقال له «خالق»، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، أي: لمسوقون إلى جهنم سوقاً، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وسلك كتاب الله في ختام قصة إلياس نفس النمط الذي ختم به قصص نوح وإبراهيم وموسى

وهارون فقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قراءة أخرى سلام على إلياسين كما يقال في إسماعيل إسماعين.

وفي الآيات الأخيرة من هذا الربع ذكر كتاب الله بقصة لوط وقصة يونس:

فمن لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾، وهي امرأته التي كانت موالية لقومها ممالئة لهم على الضلال، طبقاً لقوله تعالى في آية أخرى (١٥: ٦٠): ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي: الهالكين غير الناجين، ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾، أي: بالرجم بحجارة من سجيل، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَبِالْأَيْلِ﴾، أي: تمرّون على أرضهم في أسفاركم ليلاً ونهاراً، ومع ذلك لا تعتبرون، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وعن يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذَا أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، ذلك أنه فارق قومه متستراً لينجو بنفسه دونهم، فلم يجد إلا سفينة مثقلة بالركاب والتحق بها، وسرعان ما أصبحت مهددة بالغرق، «فأقرع» الركاب فيما بينهم ليخففوا من أثقالها، وإذا به يفاجأ بأن يكون نصيبه هو أن يُلقى في البحر، تنفيذاً لنتيجة «القرعة» التي أجراها ركاب السفينة، ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي: هو داخل في الملامة، لأنه أتى بما يلام

عليه، حيث أنه فارق قومه دون إذن من مولاه، ناسياً أن رقبته ملك خالص لله، قال الترمذي الحكيم: «سماه (أبقاً ومليماً) لأنه أبق عن عبودية الله، ولم يُصب عين الصواب الذي عند الله» ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، أي: الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس، ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ﴾، أي: في بطن الحوت، عقاباً له، ﴿إِلَى يَوْمٍ يُعْعَثُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٦٥﴾ وَأَنْبَتْنَا
عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِيبٍ ﴿١٦٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
زَيْدُونَ ﴿١٦٧﴾ فَأَمَنُوا فَمِتَّغْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ
أَلَرَّبُّكَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ ﴿١٦٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا
وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٧٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَدَ اللَّهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٧٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٧٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ
مُّبِينٌ ﴿١٧٦﴾ فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٧﴾ وَجَعَلُوا
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٧٨﴾
سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٧٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٨٠﴾
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٨١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٨٢﴾ إِلَّا مَن
هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٨٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ وَمَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٨٤﴾ وَإِنَّا

لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحَقُّونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا
 لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ
 سَبَقَتْ كُلُّنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
 وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرَهُمْ
 فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا أَنزَلْ
 بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾
 وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا
 يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
 كَرَاهَلِكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ وَأَوَّلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
 أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقْنَا لِنَلْزَمَ
 مِنْهُمْ أَنْ يَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أ. نَزَلَ

عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِهِ بَلْ لَمَنَّا
 يَذُوقُوا عَذَابٌ ⑧ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
 الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا
 فِي الْأَسْبَابِ ⑩ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ⑪
 كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ⑫
 وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ⑬
 إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ⑭ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا
 صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْهَاتًا مِنْ فَوْاقٍ ⑮ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا
 قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⑯ إصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا
 دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ ⑰ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ
 يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ⑱ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ
 أَوَّابٌ ⑲ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ⑳

الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الصافات المكية: ﴿فَبَذَلَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، إلى قوله تعالى في سورة ص المكية أيضاً: ﴿وَعَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْ الْخِطَابِ﴾.

والآيات الأولى من هذا الربع هي تتميم لما سبقها في شأن يونس وقومه، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، الآيات، ذلك أن يونس عليه السلام بعد أن قضى وقتاً طويلاً في تسفيه معتقدات الشرك والوثنية بين قومه، ولم يصل معهم إلى نتيجة حاسمة، ضاق صدره، ونفذ صبره، إذ لم يكن مندرجاً بين «أولي العزم» من الرسل، الذين لا يضيق صدرهم، ولا ينفذ صبرهم، فغضب على قومه، وقرر الرحيل عنهم والفرار منهم، بعد أن أنذرهم بالعذاب الإلهي الشديد، لكنه لم يبن قراره بالرحيل عنهم على وحي إلهي صريح، وإنما بناه على مجرد اجتهد شخصي، وكان الأولى به - كما ظهر فيما بعد - أن لا يضيق صدره، ولا ينفذ

صبره، وأن ينتظر حكم الله بينه وبين قومه، وذهب يونس يضرب في الأرض، فراراً من قومه، حتى انتهى به المطاف إلى شاطئ البحر، فوجد جماعة يعبرونه، وركب معهم سفينة مشحونة بالأثقال، غير أنه ما كادت سفينتهم المشحونة تمر عباب البحر حتى هاجت عليها الأعاصير، وتلاطمت فوقها الأمواج، ولم يجدوا وسيلة للخلاص من الغرق إلا بالتخفيف من حُمولتها، فأقرعوا بين ركابها، ووقعت القرعة على يونس، ثم أعيدت القرعة عدة مرات، لكن نتيجتها كانت مثل المرة الأولى، وضمن الركاب به أن يلقوه في البحر، احتراماً لمظهره المهيّب، لكن يونس أدرك بنور إيمانه أن الله سراً وأيّ سر في «القرعة» التي خرج سهمها فيه، وفيما كتبه الله عليه، فألقى بنفسه في البحر راضياً مطمئناً، مستسلماً لإرادة الله وحكمه الحكيم، فالتقمه الحوت لطفاً من الله، حتى لا يموت غريقاً، وأخذ الحوت يتقلب به في أعماق البحر وهو في بطنه، دون أن يقطع منه لحماً، أو يكسر له عظماً، وكانت فرصة سانحة ليونس يدرك بها سر الله في البحر وقدرته الباهرة، كما أدرك سر الله وقدرته في البر، وأحس يونس أن فيما كتبه الله عليه نوعاً من التأديب الإلهي على ما أقدم عليه من مفارقة قومه، والتوقف عن مواصلة رسالته بينهم، دون إذن سماوي صريح، فما وسعه - وهو في بطن الحوت لا يستطيع أن يفلت من قبضة الله - إلا الالتجاء إلى الله بالتضرع والدعاء والندم على ظلمه لنفسه، والتعلق بوسع عفو الله وخفي لطفه، فاستجاب الله دعاءه، بعد أن نال ما قدره له من جزاء، وألقاه الحوت بأمر الله في أرض عراء، لا نبات بها ولا بناء، وأذن الله بإنبات شجرة عليه تظله بورقها،

وتطعمه من ثمرها، وما كاد يستعيد عافيته ويزول عنه السقم، حتى بادر للعودة إلى قومه مسرعاً، واستأنف الرسالة السامية التي ألقاها الله على عاتقه، وكم كان سروره عظيماً، وابتهاجه بالغاً، عندما وجد أن الله قد حقق أمنيته، وأن قومه قد شرح الله صدورهم للإيمان، وهجروا الأصنام والأوثان، بمجرد ما شاهدوا نذر العذاب الذي كان أنذرهم به، فعرفوا صدقه وآمنوا برسالته، وذلك قوله تعالى في سورة الصافات التي نواصل تفسيرها: ﴿وَإِنْ يُونُسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾، ويزيد هذه الآيات تفسيراً وتوضيحاً قوله تعالى في سورة الأنبياء (٨٧): ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة (يونس) إحدى سور القرآن المسماة باسمه (٩٨): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ - أَمِنَتْ فَتَنَقَّهَا إِيْمُنَهَا، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

ويظهر من السياق أن الحكمة المقصودة من الإتيان بقصة يونس كخاتمة لقصص الأنبياء والرسل، منذ عهد نوح عليه السلام، في هذه السورة المكية، هي ضرب المثل لخاتم الأنبياء والمرسلين، بمن سبقه من «أولى العزم» الأولين، وتحذيره من

التهاون في أداء الرسالة الملقاة على عاتقه، إذ لا يُعفيه منها شيء، ولا يبرر التخلي عنها أي أذى يلحقه من قبل المشركين، مهما كان أذاهم بالغاً، بل تجب عليه المثابرة ويلزمه الصبر، إلى أن يتحقق النصر، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (٨: ١٠) كما تتضمن هذه القصة تنبيهاً صريحاً للرسول عليه السلام، حتى لا يسلك مسلك أخيه يونس، عندما فارق قومه مغاضباً لهم، ساخطاً عليهم، فاضطرته الأقدار للعودة إليهم من جديد، إذ لا بُدَّ لَهُ من تحقيق مراد الله، وتبليغ رسالته، ولو كره المشركون.

وبهذا التوجيه الوجيه يظهر مغزى ما جاء بعد ذلك في هذا الربع نفسه من الآيات البينات، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى تثبيتاً لرسوله على الحق، والدعوة إليه دون انقطاع ولا فتور (١٧١: ١٧٢): ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وما دام الحق سبحانه وتعالى قد وعد رُسُلَه بنصره، وعلى رأسهم خاتم الرسل والأنبياء، ووعد جنده بالغلبة، فلا مناص من المثابرة والمصابرة، ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئَ﴾، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (٤٠: ٥٥)، ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (٣٠: ٦).

أما بقية الآيات من سورة الصافات في هذه الحصة فهي وصف كاشف للمعتقدات الوثنية الباطلة، التي كان عليها مشركو الجاهلية، ومن قبلهم كافة المشركين في العالم، وإتيان القرآن بها يُقصد منه إبراز ما بين الشرك والتوحيد من البون الشاسع، وما بين المشركين والموحدين من تفاوت بالغ في درجة التفكير ومستوى

العقل، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، ﴿سُبْحَنَ إِلَهِ عَمَّا يُصِفُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والآن فلنشرع على بركة الله في تفسير سورة (ص) المكية أيضاً:

لقد ركزت الآيات الأولى من هذه السورة اهتمامها، في إلقاء الأضواء على خصوم الرسالة المحمدية، وكشفت الستار عن السبب الدفين والوحيد في خصومتهم وعنادهم، فهم من جهة ألى أهل ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، وهم من جهة ثانية مقيدون بسلاسل التقليد الأعمى لا يستطيعون عنه جِولاً، وذلك قوله تعالى فيما يتصل بالنقطة الأولى: ﴿ص. وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، «والعزة» هنا بمعنى الاستكبار والحمية، و«الشقاق» بمعنى التعصب والعناد، ثم قوله تعالى فيما يتعلق بالنقطة الثانية: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، وَقَالَ الْكُفَرِيُّونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ، أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهاً وَاحِداً، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾.

على أن قادة الشرك وزعماء الوثنية لم يكتفوا بما هم عليه في ذات أنفسهم من كِبَرٍ وعناد، وتقليد للآباء والأجداد، بل راحوا ينظمون الحملات تلو الحملات، لحمل عامة المشركين على التمسك بالوثنية وتشكيكهم في دعوة التوحيد، مدعين زوراً وبهتاناً إن المِلَلَ السابقة على الإسلام لا تؤيد رسالة خاتم الأنبياء عليه السلام، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ

إَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ إِلَهِتِكُمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ، إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْلٌ. أ. نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا، ثُمَّ أَبْطَلَ كِتَابَ اللَّهِ مَا أَذْلَوْا بِهِ مِنْ شُبِّهِ وَأَبَاطِيلٍ، مَشِيراً إِلَى أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَيَهَبُ مِنْ خَزَائِنِهِ الْوَاسِعَةِ مَا يَرِيدُ لِمَنْ يَرِيدُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ، أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ، جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ، مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾.

وأخيراً تولت الآيات الكريمة الإشارة إلى ما قام به من العناد والتكذيب قبل مشركي قريش قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، أي: الغابة الملتفة - وفرعون ذو الأوتاد، إشارة إلى الأهرامات الشامخة البناء، التي نصبها الفراعنة، فكانت كالأوتاد الممدودة نحو السماء، وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ، أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ، إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾.

وانتهى هذا الربع بالحديث عن داود عليه السلام، وما آتاه الله من القوة، ومنحه من تسخير الجبال والطير، وجاء ختامه بهذا التنويه الإلهي الكريم: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

وَهَلْ آتَيْكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ ﴿٦١﴾ إِذْ دَخَلُوا
عَلَى دَاوُدَ فَقَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا
عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ
الصِّرَاطِ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ
وَحِيدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٦٣﴾ قَالَ لَقَدْ
ظَلَمْتَ سُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ
لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٦٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٦٥﴾
يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ
 النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ
 أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَيْبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
 وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ
 أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِيفَتُ الْخِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي
 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا
 عَلَيَّ فطُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا
 عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا
 لَا يَنْفِيَنَّ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَتَحْنَزَلُ الْريِّحُ
 تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾
 وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ
 أَوْ امْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّهُوَ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾
 وَإِذْ كَرَّمَ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ
 وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا
 لَهُ وَأَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾
 وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ

الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٤﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي
 الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُمْ
 عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ وَادْكُرْ إسمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ
 وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿١٩﴾ جَنَّاتٍ
 عِدْنُ مُمْغِتَةٍ لَهُمْ فِيهَا الْأَنْبُوتُ ﴿٢٠﴾ مُتَكِبِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ
 كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٢١﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم هو الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ آتَيْكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

ترتبط الآيات الأولى من هذا الربع بما سبقها في نهاية الربع الماضي، والحديث فيها جميعاً يدور حول داود عليه السلام، غير أن القسم السابق منها كان تنويهاً بما أكرم الله به حَمَلَةَ الرسالة، ومن بينهم داود عليه السلام، من تأييد وتسخير، ونفوذ روعي لا يقف عند حد، إذ يتجاوز دائرة الإنسان، ويمتد إلى الجماد والحيوان، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾، كما كان تنويهاً بما أكرم الله به رسله - وداود منهم وإليهم - من نصر مؤزر، وفتح مبین، وسلطة رحيمة وحكيمة، يستعملونها لخير الإنسانية جمعاء، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَعَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ﴾.

ومغزى هذا الجزء ومعناه الذي يدل عليه السياق هو أن العزيز الوهاب الذي أكرم نبيه داود، وأنعم عليه بالحكمة والسلطان، وتسخير الإنسان والجماد والحيوان، لن يكمل رسوله محمداً إلى نفسه، ولن يتركه عرضة لأذى المشركين وسيطرتهم، بل إنه سينصره عليهم، وسيظهر دينه على أباطيلهم، وسيجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، ودولته أكبر دولة عرفها العالم، فلا ينبغي له أن يبتس أو ييأس، وهو في غمرة الكفاح مع الشرك والمشركين، ﴿وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٧: ١٢٨).

أما القسم الأخير من نفس الآيات في نفس الموضوع، وهو ما جاء في بداية هذا الربع الذي نحن بصدد تفسيره، فهو تقرير «ضمّني» لأن الله تعالى عندما يكمل إلى رسله سلطة الحكم بين الناس، والخلافة عنه فيهم، لن يتركهم حيارى يتخبطون في مشاكل الخلق ونزاعاتهم، دون مدد ولا سند، بل إنه سبحانه يُمدُّهم برعايته وعنايته، وتوفيقه وتوجيهه، باستمرار، ولا يقرهم في أيّ شأن من الشؤون على الخطأ، إذا اجتهدوا وتعرضوا للخطأ من غير قصد، وكما أمد الحق سبحانه وتعالى داود عليه السلام برعايته وتوجيهه، عندما أولاه مقاليد الحكم، فسيُمد رسوله محمداً عليه السلام بنفس المدد، عندما يحين الوقت لذلك، وينصّر رسوله، ويظهر دينه، ويقيم دولة الإسلام الكبرى، الخالدة إلى يوم الدين.

وعلى ضوء هذا المعنى نفهم قوله تعالى مخاطباً لخاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿وَهَلْ آتَيْكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا

الْمُحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ، قَالُوا لَا تَخَفْ، خَصِمَيْنِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٠﴾، ﴿وَلَقَدْ دَاوُدَ إِنَّمَا فَتَنَّهُ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴿١١﴾﴾، وقوله تعالى في نفس السياق، مذكراً بالخطاب الإلهي الذي وجهه إلى داود: ﴿يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٢﴾﴾، وفهم القرآن على هذا النحو وشبهه من الإيحاء والتوجيه والإرشاد، وتحليل آياته في إطار الجو الذي نزلت فيه، هو ما يدعو إليه كتاب الله نفسه في هذا السياق، ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ، لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٣﴾﴾.

أما قصة الخصمين اللذين احتكما إلى داود عليه السلام، بالتفاصيل التي يذكرها بعض المفسرين، مما لم يرد في كتاب الله، فقد قال عنها الحافظ ابن كثير في تفسيره: «أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روي ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة القصة، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً».

والآن فلنقرأ ما حكاه كتاب الله بإيجاز وإجمال عن مضمون الدعوى، ولنسمع كيف عرض المدعي دعواه على داود عليه

السلام، وَلَنَسْجَلْ مَاذَا حَكَمَ بِهِ دَاوُدَ لَصَالِحِ الْمَدْعَى، إِذْ سَلِمَ لَهُ
الْمَدْعَى عَلَيْهِ وَلَمْ يَطْعَنْ فِي دَعْوَاهُ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا﴾، أَي: اجعلها
في كفالتني وملكها، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أَي: أغلظ عليّ
في القول، ﴿قَالَ﴾، أَي: داود، ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ
إِلَىٰ نَعَاجِهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾، أَي: من الأقرباء والشركاء،
﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أَي: يظلم بعضهم بعضاً، ﴿إِلَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا
فَتَنَّهُ﴾، أَي: اختبرناه وامتحناه، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾، علق عليه ابن كثير
في تفسيره فقال: «هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور، أن
يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، وأن لا
يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله» وذكر (ابن العربي) المعافري في
معنى قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، أن معنى «الخلافة» لغة هو قيام
الشيء مقام الشيء، وبين أن الله قد جعل الخلافة لخلقه على
العموم، كما في قوله عليه السلام: «إن الله مستخلفكم فيها - أي
في الدنيا - فناظر كيف تعملون»، وجعلها على الخصوص، كما
في قوله تعالى هنا: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾،
وذكر أن «الخلفاء» على أقسام: أولهم الإمام الأعظم، وآخرهم
العبد في مال سيده، واستشهد على ذلك بقوله ﷺ: «كلكم راع

وكلكم مسؤول عن رعيته، والعبد راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

وما هنا لطيفة لا ينبغي إغفالها، ألا وهي أن لفظ «المُلك» لا يناقض لفظ «الخلافة»، وأن من الممكن أن يجتمعا في محل واحد، كما هو الشأن هنا، إذ وقع إطلاقهما معاً في كتاب الله على داود عليه السلام، فهو في آن واحد «ملك» بدليل قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾، و«خليفة» بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾، والعبرة في استعمالهما وتواردهما على محل واحد: إنما هي بالتزام حدود الله، والاهتداء بهدي الوحي المنزل من عند الله، وبناءً على ذلك يكون الخليفة «ملكاً» ويكون الملك «خليفة».

ثم تناولت الآيات بالذكر شيئاً من حياة سليمان بن داود عليهما السلام وسيرته، وما آتاه الله من نفوذ وتسخير، وما تعرض له إلى جانب ذلك من الامتحان، وناله من الرضى والغفران، وذلك قوله تعالى تنوياً بسليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ، نَعَمْ أَلْعَبُدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وقوله تعالى حكاية لدعاء سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، وقوله تعالى تعريفاً بمكانة سليمان: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾.

وفي نفس السياق ذكر كتاب الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾، وإسماعيل واليسع وذو الكفل، وكلهم من ﴿الْمُضْطَفِّينَ الْأَخْيَارِ﴾، وذكر كتاب الله في هذا

المقام قصة خاصة - مواساةً لنبه حتى يصبر على أذى مشرقي قريش - قصة أيوب عليه السلام، الذي يُضرب به المثل في الصبر والرضى، ونوه به قائلاً: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا، نَعْمَ الْعَبْدُ، إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

وانتهى هذا الربع بالحديث عما أعدّه الله للمتقين من الجزاء الحسن والنعيم المقيم، ﴿هَذَا ذِكْرٌ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ، جَنَّاتٍ عَدْنٍ، مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ، مُتَكِّينَ فِيهَا، يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرِيفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٧﴾ هَذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا الرِّزْقُنَا لَهُ وَمِنْ نَفَادٍ ﴿٥٩﴾ هَذَا
وَإِنَّ لِلطَّالِعِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴿٦٠﴾ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَبْسُ إِلَيْهَا دُورٌ ﴿٦١﴾
هَذَا أَفْلِيدُ وَقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ ﴿٦٢﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٦٣﴾
هَذَا أَفْجَحٌ مُقْتَرَمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ وَإِنَّهُمْ صَالُوا النَّبَارِ ﴿٦٤﴾
قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسِّرَ الْقَرَارُ ﴿٦٥﴾
قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا
مَا لَنَا لَا نَبْرَى رِيحًا لَا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٧﴾ أَخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا
أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّبَارِ ﴿٦٩﴾
قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٧٠﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٧١﴾ قُلْ هُوَ تَبَوَّأَ عَظِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ
عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٧٣﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٤﴾

إِنَّ يُوْحَىٰ إِلَىٰ آلِهَآ أَنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٥﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ
 بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَاذْأَسْوَيْتُهُ وَوَفَّقْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجْدًا ﴿٧٧﴾
 فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ
 اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
 وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
 لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٤﴾ قَالَ
 فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٥﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٦﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
 لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٨﴾
 قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٩﴾ لَا مَلَأْتُ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَتَّبِعُ مِنْهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩٠﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٩١﴾
 إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٩٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ
 الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٢﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا
 لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣﴾
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
 وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
 فِي جَرْمٍ لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٤﴾
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ
 لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
 أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
 الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٥﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
 عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ
 وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

حديثنا في هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة (ص) المكية: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطُّرْفِ أُتْرَابٌ﴾، إلى قوله تعالى في سورة الزمر المكية أيضاً: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل وصفه «المعجز» لما أعده الله في دار البقاء، من نعيم يسعد به «المتقون»، وعذاب يشقى به «الطَّاغُوت». ومما يستلفت النظر هنا ما أبرزه الاستعمال القرآني في هذا السياق بالخصوص، من المقابلة بين ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ و﴿الطَّاغُوتِ﴾، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغُوتِ لَشَرَّ مَآبٍ﴾، إذ من شأن «المتقى» أن يكون مُلَازِماً للاحتياط والحذر، واقفاً عند حدود الله، بينما غير المتقى من شأنه أن يكون متجرباً على الله، متتهكاً حُرُمَاتِهِ، لا يقف أيُّ شيء دون انطلاق أهوائه وطغيان شهواته، فهو لا يعرف الحدود والقيود، ولا يحسب لها أدنى حساب، وبهذه المقابلة بين التقوى والطغيان، التي جاء بها

القرآن، نستطيع أن نفهم روح التقوى، ونميز ملامح المتقين.

ومن المناسب في هذا المقام عقد مقارنة ولو على وجه الإجمال بين الوصف الذي وصف به كتاب الله أهل الجنة من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، والوصف الذي وصف به أهل النار من ﴿الطَّٰغِينَ﴾، فالآيات القرآنية في ختام الربع الماضي وبداية هذا الربع لم تعرّج مطلقاً على أي حديث يمكن أن يعتبر حديثاً نائياً بين أهل الجنة فيما بينهم، لأنهم جميعاً يعيشون عيشة راضية، وقد ألفت بينهم وحدة العقيدة، ووحدة السلوك، ووحدة المصير، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (١٥: ٤٧)، بينما الآيات التي تسجل مشاعر ﴿الطَّٰغِينَ﴾، وهم في جهنم، وانطباعات بعضهم عن بعض، وردود الفعل للمحاورات والمجادلات التي يتبادلونها وهم يتلقون عذاب الله، كلها تصورهم وهم يتراشقون بالتهم والشتائم واللعنات، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا﴾ (٧: ٣٨)، فعندما يفاجأ بعضهم بقدوم فريق جديد من الطاغين عليهم، ويقال: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، يرد ذلك البعض على هذه المقالة شامتاً متشفيماً ويقول: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، لكن الفريق الذي يسمع هذه التحية المنكرة، لا يلبث أن يرد على الشامتين تحيتهم، مُلقياً عليهم مسؤولية التردّي في هوة الشقاء والعذاب، ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنْتُمْ قَدْ مُتِمُّوهُ لَنَا، فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾، ومن المفارقات في هذا المشهد المفجع أنهم يتجهون إلى الله مهطعين خاشعين، داعين على من أضلهم وأغواهم، وأمسك بمقادتهم إلى النار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ

قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرْدَهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴿١٠﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى الخيبة التي يُمنَى بها «الطاغون» عندما يستقر بهم المَطَاف في جهنم، حيث لا يَسْتَدْبِرُونَ مفاجأةً إلاَّ ليستقبلوا مفاجأةً أدهى وأمر. نعم لقد كانوا في حياتهم يَعْتَبِرُونَ ﴿الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارَ﴾، عبارةً عن منبوزين أشرار، لا يستحقون إلاَّ السخرية والاستهزاء، وها هم الآن يتساءلون عنهم في لهفة وحسرة: أين يوجد أولئك الرجال الذين كانوا يُعَدُّونهم أشراراً، هل هم يُرافقونهم في جهنم لكن لا تقع عليهم أعينهم الزائغة؟ أم أنهم ليسوا في جهنم أصلاً: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ، أَتَّخَذْنَهُمْ سُخْرِيًّا، أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ﴾. ويعقب كتاب الله على هذا الوصف الكاشف الذي يبرز خيرة الطاغين الخارجين عن طاعة الله، المكذبين. لرسله، ويكشف الستار عما هم عليه من شقاق وخلاف وتضارب في الآراء، ولو في دار الشقاء، قائلاً: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ: تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

وتنتقل الآيات فيما بعد ذلك إلى قصة خلق آدم وسجود الملائكة له، امتثالاً لأمر الله تعالى بتكريمه، وترشيحاً لما أعدته له الأقدار من الخلافة في الأرض، وحمل أمانة التكليف التي عجزت عن حملها بقية المخلوقات، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (٧٢: ٣٣)، وتنتهي القصة بالإشارة إلى أخطر سابقة في عالم الكبر والغواية، وهي سابقة إبليس اللعين: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكَافِرِينَ، قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٥﴾، ثم حكى كتاب الله تحدي إبليس اللعين: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وختمت سورة (ص) بآية كريمة هي آية في الإعجاز وتثبيت النبوة، والتنبؤ بما ستلده الأيام من أحداث واكتشافات تزيد المؤمنين إيماناً، وتبهر الشاكين والمكذبين، فلا يسعهم إلا أن يذعنوا لها إذعائاً، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾، إشارة إلى أن ما جاء به القرآن، وعلمه للإنسان، ستثبت الأيام أنه حق لا ريب فيه، وصواب لا خطأ فيه، على مر الأزمان، وما من جيل إلا وسيكتشف من لطائفه وأسراره ما لم يصل إليه غيره، فكتاب الله «لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»، كما جاء في الأثر عن عليّ كرم الله وجهه، وبمعنى هذه الآية سبق قوله تعالى في سورة الحج (٥٤): ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، وسيأتي في سورة فصلت قوله تعالى (٥٣): ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

والآن فلنشرع على بركة الله في تفسير سورة الزمر «المكية أيضاً، مستعينين بالله، وإنما سميت بهذا الاسم أخذاً من آيتين في نفس السورة وردت فيها كلمة ﴿الزُّمَرِ﴾، جمع «زُمرة» بمعنى

الفوج والجماعة، حيث قال تعالى (٧١): ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، وقال تعالى (٧٣): ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

وأول موضوع في هذه السورة يطرق الأذان هو موضوع نزول القرآن، حيث قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وثاني موضوع فيها هو إبراز دعوة التوحيد، والإلحاح على التمسك بها والإخلاص فيها، حيث قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، وثالث الموضوعات يتناول تسفيه أنواع الشرك والكفر التي يدين بها المشركون والكافرون، حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، وهذا رد على المشركين الذين نسبوا إليه أنه «اتخذ من الملائكة إنثاء» وعلى النصارى الذين نسبوا إليه أنه اتخذ من المسيح ولداً، ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، والموضوع الرابع تصدى فيه كتاب الله للرد على المعتقدات الباطلة بالبراهين القطعية، والدلائل الكونية، مما يضطر إلى التسليم به، ويتواطأ على قبوله: الحس والعقل والوجدان، وذلك قوله تعالى مذكراً بآياته الكونية في الآفاق: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقوله تعالى مذكراً بآياته الطبيعية في الأنفس:

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ
الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ
خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾، ثم عَقَّبَ كتاب الله على الآيات الباهرة
التي أبرزها في الأنفس والأفاق، مستخلصاً منها نتائجها المنطقية،
فقال تعالى: ﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاتَى
تَصَرُّفُونَ ﴾.

وبعد هذه الجولة القرآنية في عالم المُلْك والملكوت خاطب
الحق سبحانه وتعالى عباده جميعاً، مبيناً لهم أنه سبحانه إنما يريد
بهم ولهم خيراً، وأن من اهتدى منهم فلنفسه أحسن، ومن ضل
فإنما يضل عليها، وأن كل فرد مسؤول عن نيته وعمله أمام الله،
وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنْكُمْ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ، وَلَا تَزِرُ
وِازِرَةً وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ

ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ
يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لَهُ آندَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ
قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨ أَمِنْ هُوَ قَائِلُ
الْيَلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩ قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا
رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ
اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣
قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۝١٤ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ

هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ وَيُعْبَادُونَ فَاتَّقُوا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ هَبْذِهِمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْمِجُ فَتَبْرِيهِ مَصْفًى ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَإِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ

قَمَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٧﴾ أَفَنَنْتَقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٨﴾
 كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٩﴾
 فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ
 لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ
 كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤١﴾ قُرْءَانًا غَيْرَ ذِي
 عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
 مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ
 بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٤٤﴾
 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يصف كتاب الله بكل دقة، وفي إيجاز وإعجاز، نفسية ضعفاء الإيمان من بني الإنسان، ومواقفهم المتناقضة في كل زمان ومكان، ولا سيما الموقف الذي يكونون عليه في حالة الضراء، والموقف الذي ينقلبون إليه في حالة السراء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (١٠: ١٢): ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَّسِّهِ﴾، وقوله تعالى في آية ثالثة (١٧: ٦٧): ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا، فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ

أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٣٩﴾، وقوله تعالى في آية رابعة (٣٩ : ٤٩) : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وجميع هذه الآيات تسجل على ضعفاء الإيمان ما هم عليه من تناقض وتذبذب وتردد، وتكشف الستار عن خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم في حالتي اليسر والعسر، والشدة والرخاء، فهم حينما تنزل بساحتهم كارثة من الكوارث، أو داهية من الدواهي، يجزعون ويفزعون، ويحسسون من أعماق أعماقهم بما هم عليه من الضعف والعجز والهوان على الله وعلى الناس، ويدركون بغريزتهم الفطرية أنهم لا يستطيعون لما نزل بهم دفعا، وأنه لا خلاص لهم من المحنة، ولا نجاة لهم من الكرب، إلا بالالتجاء إلى الله وحده القاهر فوق عباده، ويجدون أنفسهم مدفوعين بدافع قهري وخفي إلى التمرغ في أعتاب من بيده الملك والملكوت، طارقين بابه بمتهى الخضوع والخشوع، حتى إذا ما استجاب الله دعاءهم، بواسع رحمته، وجميل لطفه، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ولم يعودوا يتذكرون المحنة التي نكست رؤوسهم، وأثقلت ظهورهم، وأقضت مضاجعهم، وزلزلت كياناتهم، بل استأنفوا من جديد كل ما كانوا عليه من التظاهر والتجاهر بالفساد والطغيان، ولجأوا في العناد والعدوان، وأقبلوا على ممارسة شهواتهم، والانغماس في لذاتهم، والجري وراء أهوائهم، والتسابق إلى الطاعة العمياء، لمن يشركونهم بالله من السادة

والكبراء، وإن كان في رضاهم سخط الله، وفي الاعتماد عليهم شرك بالله، وذلك كله من أجل متعة مؤقتة مآلها إلى زوال، وفي سبيل منفعة عاجلة نهايتها إلى وبال، وإلى هذا الموقف المزري الذي يقفه ضعفاء الإيمان في وقفتهم الخاسرة، ومقابلتهم لطف الله بالجحود بدلاً من الشكر، وبالإساءة بدلاً من الإحسان، ينظر قوله تعالى في نفس الموضوع: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلُوبَ تَمَتَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، بينما المتحررون من ربقة الشرك الظاهر والخفي، ومن كل عبودية لغير الله، جاءتهم البشرى من الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى، فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وتعالج آية أخرى من هذا الربع بالوصف والبيان، حالة الإنسان الكامل، الذي أكرمه الله بقوة الإيمان، بحيث لا تأخذه سِنَّةُ الغفلة والنسيان، فهو قانت خاشع، معلق قلبه بين الخوف والرجاء، إذا خاف فإنه لا يخاف شيئاً إلا عذاب الله، وإذا رجا فإنه لا يرجو أحداً وإنما يرجو رحمة الله، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ - أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، وأدْرَجَتِ الْآيَةُ ﴿- أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾، في هذا المقام بالخصوص وهو مقام الذكر والفكر، لأن ساعات الليل في الواقع هي أصلح الأوقات لسكون النفس، وطمأنينة القلب، وتركيز الفكر في مناجاة الرب، وهي أبرك اللحظات للتأمل في جلال الكون وجماله، وإدراك قدرة المكوّن وكماله. وكما ذُكِرَتْ ﴿- أَنَاءَ

الَّيْلِ ﴿١﴾، في هذه الآية تنويهاً بقدرها، وإشارةً إلى خفي سرها، فقد ذُكرت مرة أخرى في قوله تعالى (١١٣: ٣): ﴿لَيْسُوا سَوَاءً، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ، يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

وحيث أن أسمى غاية للعلم والمعرفة بالنسبة للإنسان هي الوصول إلى «الحقيقة الأولى» التي هي مصدر النور ومنبع الحياة، وربط الاتصال بها قلباً وقالباً، جاء كتاب الله ينوه بها، ويلفت النظر إليها، معتبراً أن كل علم لا يؤدي إليها، ولا يصل بصاحبه إلى إدراكها، إنما هو نوع من الجهل، بل هو «الجهل المركب الغليظ»، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، في أعقاب قوله تعالى: ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فمن لا يرجو الله ولا يخافه معدود بين الجهلاء، وإن كان عند نفسه وعند الناس من العلماء.

وتأتي آية خاصة في هذا الربع لتصف مآل الخاسرين، ثم تتلوها آية أخرى لتصف مآل الفائزين، غير أن الربح والخسارة في لغة القرآن لهما ميزان خاص، غير الموازين المتعارفة بين الناس، فالخاسرون في هذا الميدان هم أولئك الذين خرجوا من هذه الدار وقد ضيعوا رأس مالهم، وهو خلاص أنفسهم ونجاتها، وضيعوا الربح الذي كان على مقربة منهم، وهو خلاص أهلهم وذويهم ممن كانوا تحت ولايتهم، فلا هم اهتموا في أنفسهم، ولا هم أعانوا على الهداية من كانوا إلى نظرهم من الأزواج والأولاد

وَالْخَدَمَ، وَلَمْ يَقُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ نَارًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أما الفائزون الذين لم تلحقهم خسارة ولا إفلاس فهم على العكس من ذلك: أولئك الذين نجوا بأنفسهم فلم يخسروها، إذ صرفوا حياتهم - وهي رأس مَالهم - في الرُّشد والخير والصَّلاح، ولم يخسروا أهلهم وذويهم، بل قادوهم إلى طرق الخير والبر، فكان ربحهم مضاعفاً: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَعَدَّ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

وتمضي الآيات الباقية من هذا الربع في تعداد نِعَمِ اللَّهِ على خلقه، ووصف مظاهر لطفه بهم مادياً وروحياً، والمقارنة بين نور الإسلام وظلمة الكفر، وآثار كل منهما في النفوس، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ، قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ثم تمضي في استعراض خصائص القرآن العظيم الذي يجب أن يظل نُبْراساً للمسلمين إلى يوم الدين، ووصف ما خلَعَ الله عليه من حلل المهابة والجلال، وجعل له من السيطرة على القلوب،

والهيمنة على المشاعر، حيث قال تعالى: ﴿إِلَهُ نَزَلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقال تعالى:
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾، حسبما روي
عن سفيان بن عيينة، (أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى
واحد يشبه بعضه بعضاً، فهذا من «المتشابه»، وتارة تكون بذكر
الشيء وضده، أي في معنيين اثنين، كذكر المؤمنين ثم
الكافرين، وكوصف الجنة ثم وصف النار، وما أشبه هذا، فهذا
من «المثاني» مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (٨٢: ١٤). قال ابن كثير: «وقد كان
الصحابه رضوان الله عليهم عندما يسمعون كلام الله من تلاوة
رسوله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم
يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من
الثبات والسكون، والأدب والخشية ما لا يلحقهم فيه أحد، ولهذا
فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة، ولم ينعتهم
بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهو
من الشيطان».

ومعنى قوله تعالى هنا في وصف كتابه العزيز: ﴿قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾، إنه نزل بلسان عربي مبين لا التباس فيه
ولا انحراف، ولا تناقض ولا اختلاف، على غرار قوله تعالى في

سورة الكهف^(١): ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾، وقوله تعالى في سورة النساء (٨٢): ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وختيم هذا الربع بضرب المثل للمشارك التي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، وبأن الموت هو مصير جميع الأحياء، وأن الكفار سيُخاصِم بعضهم بعضاً في الدار الآخرة، وسيحتج عليهم الرسول بأنه بلغهم فكذبوا، ودعاهم فلم يستجيبوا، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ، وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ، هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُ الرَّأْيُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ۝ وَالَّذِينَ
جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَسْوَءَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ
إِلَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
كَشَفَتْ ضُرُّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتَهُ

قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَاقَوْمِ
 اِعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
 مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
 إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
 فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ
 إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٤٢﴾
 أَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوْ لَوْ كَانَُوا لَا
 يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾
 وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا
 هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي
 مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا وَمِثْلَهُ وَمَعَهُ لَا فَتَدَّ وَأَبَاهُ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ وَبَدَّ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٧﴾
 وَبَدَّ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَجَاتُهُ إِذَا اخْوَلْتَهُ
 نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ قَدْ قَالَمَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أُغْنِي
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
 كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
 كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾
 قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم نخصه للربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وأول ما يواجهنا في هذا الربع هو تقرير وتوبيخ يوجهه كتاب الله لخصوم الرسالة وأعداء التوحيد، أولئك الذين يفترون على الله الكذب، فينسبون إليه من الصفات والنعوت والشركاء ما هو منزّه عنه سبحانه، ثم لا يكتفون بكذبهم وافترائهم على الله، بل يضيفون إليه تكذيب كتبه ورسله دون حياء ولا خجل، وفي إصرار وعناد، فهؤلاء أجراً خلق الله على الظلم: ظلم الحق، وظلم الحقيقة، ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣١: ١٣)، وذلك قوله تعالى في صيغة سؤال على وجه التقرير: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، بمعنى أنه لا أحد أشدّ ظلماً من هذا الصنف من الخلق، لأنه جمع بين طرفي الباطل، فقد كذب على الله وكذب

رساله، وقال الباطل ورد الحق، وعلى العكس من ذلك أولئك الذين جاءوا بالصدق عن الله، فلم يصفوه سبحانه وتعالى إلا بصفات الكمال، ونعوت الجلال، والذين صدّقوهم، فأمنوا بالله وملائكته وكتبه ورساله دون شك ولا جدال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ جَزَاؤُ الْمُحْسِنِينَ﴾، فالذي ﴿جَاءَ بِالصَّدَقِ﴾، إشارة إلى الأنبياء والرسل، والذي ﴿صَدَّقَ بِهِ﴾، إشارة لأتباعهم من المؤمنين إلى يوم الدين.

وكما أعلن الحق سبحانه وتعالى في الآية السابقة جزاء الظالمين المكذبين إذ قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، أعلن في الآية التالية جزاء الصادقين والمصدقين، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ جَزَاؤُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي هذه الصيغة من دلائل الرضى والإكرام ما يؤكد أن الله سيكرمهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتعرض آيات أخر، ما حاوله المشركون ومن لف لفهم من تهديد الرسول وتخويله بأذى الأصنام وسخط الأوثان، لأنه أشهر عليها الحرب العوان، وناوأها العدوان، وفي نفس الوقت ترسم نفس الآية للرسول عليه السلام، ولكل من سار على نهجه في مقاومة الباطل وأهله، طريق الغلبة والنصر، وذلك بالاعتماد الكلي على الله، والاعتصام بحبله، والثقة بوعده، فقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرَّهُ، أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قُلْ يَنْقُومِ الْعَمَلُ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١﴾.

وينتقل السياق فجأة إلى الحديث عن كتاب الله المنزل، وعن الحكمة في نزوله، وعن الرسالة التي يؤديها إلى الناس كافة، مبيناً أن شعار هذا الكتاب الإلهي الكريم هو «الحق»، وإن دعوته هي دعوة «الحق»، وأن شريعته هي الدين «الحق»، وأن النهج الذي اختطه للسلوك في جميع مجالات الحياة وجنبااتها بالنسبة لجميع الناس هو النهج «الحق»، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، وكلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾، في هذا المقام لها أكثر من معنى، فكتاب الله لم ينزل على رسوله ليصبح تميمة من التمايم، أو يُكتفى بقراءته على الأموات في القبور، وإنما نزل ليكون حكماً بين الناس، حاكماً عليهم، ورائداً موجهاً لهم، حيثما حلوا وارتحلوا، ولا سيما بين المتممين إلى الإسلام، فإذا اتخذوا القرآن مهجوراً كانوا أحق الناس بالخزي واللام، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى هنا: ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾، في أعقاب قوله تعالى قبله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، مباشرة، دون فاصل بين الاثنين.

وذكر كتاب الله الناس أجمعين بما يتعرض له كل إنسان من «الوفاة الصغرى» عند النوم، و«الوفاة الكبرى» عند الموت: وأن بيده سبحانه أرواح الخلق، يمسك منها ما يشاء، ويرسل منها ما يشاء، فقال تعالى: ﴿إِلَهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وسبق هذا المعنى بتفصيل في سورة الأنعام (٦٠ - ٦١).

وفي هذا الربع آية عجيبة هي وحدها كافية لأن تكون إحدى المعجزات، إذ إنها وصفت بكل دقة ملامح الشاكين والمترددين، ومشاعر الملحدين الضالين، لا في عهد الجاهلية الأولى وحدها ولكن في جميع العصور، أولئك الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم، وانقبضت نفوسهم، وإذا ذكر الذين من دونه هشوا وبشوا وانطلقت أسارير وجوههم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، والسر فيما عليه هذا الفريق من التنكر للهداية، والتفتح للضلال، هو ما أصابهم من انحراف الفطرة، نتيجة لسوء التربية وفساد التوجيه، فتنكروا لجميع القيم الروحية، واستهانوا بسائر المثل العليا، وأكبرها وأجلها الإيمان بالله، والثقة بتوجيهه، وانشرح الصدر لإشراق نوره، وتلقي مدده، وحيث أن الإسلام دين الإقناع والإقناع، لا دين الإكراه والاستكراه، فقد جاء التعقيب مباشرة على الآية التي وصفت المنحرفين الضالين، بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٠﴾.

ويُخْتَم هذا الربع الأول من الحزب السابع والأربعين بأَرْجَى آية وردت في كتاب الله، إذ أنها تفتح باب التوبة والإنابة في وجه العصاة اليائسين، والمذنبين القانطين، بعدما أغواهم الشيطان، وأسرفوا في العصيان، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، قال ابن عباس: «من أَيْأَسَ عباد الله من التوبة بَعْدَ هذا، فقد جحد كتاب الله عز وجل»، وقال ابن كثير في تفسيره: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة، من الكُفْرَةِ وغيرهم، إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زَبَدِ البحر، ولا يصح حملها على غير التوبة، لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه، ولا يقنطنُ عبدٌ من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، وقال عز وجل (٤: ١١٠): ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

وَأَنذِرُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
 الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ
 إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً
 وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسِرُنِي عَلَىٰ
 مَا فَرَطْتُ فِي حَبِيبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾
 أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ
 حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
 بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ
 مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
 اللَّهِ وُجُوهَهُمْ مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾
 وَيُنَجِّ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ
 اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى
 إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
 وَلَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٧٠﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ
 مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٧١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
 وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٢﴾
 وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
 مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٧٣﴾
 وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ
 وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٤﴾
 وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾
 وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا
 فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
 يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

هَذَا أَقَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾
قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

يتناول حديث اليوم تفسير الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة الزمر المكية: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

في مطلع هذا الربع تتناول الآيات البيّنات وصف عدة أصناف من أهل الزيغ والضلال، فتُسجّل ما كانوا عليه من سوء الحال في الدنيا، وتنبأ بما سيتعلّلون به من أنفه الأسباب والعلل في الدار الآخرة، فمنهم الساخِر المستهزئ الذي كان يتهمك على الوحي والرسالة والإيمان، ويعتبر الحياة التي يقضيها مجرد مهزلة ومسخرة، بحيث لا يلزم التفكير فيما وراءها، ولا الاستعداد لما بعدها. ومنهم الفاسق الغارق في أحوال الفسق، والمتردي في مهاوي الفساد طيلة حياته، دون أن يحاول إصلاح حاله، فضلاً عن أن يفكر في مصيره، ومنهم المسيء إلى نفسه وإلى الناس، المتجني على شخصه وعلى المجتمع، دون أن يفكر في اكتساب

حسنة أو إسداء إحسان، حتى إذا فارقوا الدنيا وأتاهم اليقين أخذوا يَعْضُونَ بَنانَ الندم، ويحاولون أن يبرِّروا أمام أنفسهم وأمام الله مواقفهم الشاذة، وأعمالهم المنكرة.

فالساحر المتهكم يدرك حينئذ أن الأمر أمر جد لا هزل، وَيَتَيَقَّنُ أنه قد فرط في حق الله، فتذهب نفسه حسرات، ويقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿يَحْسُرَتُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾، لكن ماذا تنفعه الحسرة، وماذا يجديه الاعتراف بعد فوات الإبان؟.

والفاسق الذي أحاطت به سيئاته من كل جانب يحاول أن يَجِدَ له تَكَاةً يتكىء عليها في عقيدة «الجبرية والقدرية» فيقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، وهذه تَعَلَّةُ كافة الفساق والمنحرفين، في جميع العصور والأزمان، كأن الله لم يبعث الرسل، وكأنه لم يمنح للناس جميعاً ملكة العقل والتمييز، - وهي الميزان الذي يزنون به حقائق الأشياء -، ووحى الوجدان والضمير، ليختاروا طريق الهدى، ويتجنبوا طريق الضلال «وهديناه النجدين».

والمسيء الذي لم يعرف في حياته طريق الحسنة والعمل الصالح، ولم يتمتع أبداً بلذة الإحسان والبر، يتمنى العودة إلى الدنيا ليدارك ما فات، وهيئات هيئات، فيقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأمنية العودة إلى الدنيا بعد الإقامة في دار العذاب هي

أمنية جميع المسيئين، الذين يظنون طيلة حياتهم سكارى بعبادة أنفسهم وشهواتهم، حتى إذا ما حلوا بدار الجزاء ندموا على ما ضيعوا من الفرص في دار العمل، فالواجب على كل إنسان عاقل أن يبادر لاستثمار وقته - ما دام في الحياة الدنيا - استثماراً جدياً، يضمن له الأمن والنعيم، عندما ينتقل إلى الدار الآخرة، وذلك باتباع النهج القويم، الذي رسمه الله لسلوك الصالحين من عباده، وبالتنازل عن مرضاة النفس الأمارة بالسوء، في سبيل مرضاة الله ورسوله، وإلى هذه المعاني وما يتصل بها يشير قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحْزَرْتُ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ورداً على أولئك المترددين الضالين، المتعللين بالعلل الفارغة، والمتمنين للأمان الكاذبة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ، قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، وهذا خطاب لمن كان يسخر من دين الله، ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾، وهذا خطاب لمن كان ينتهك حرمة الله ويتعدى حدوده، ﴿وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وهذا خطاب لمن لم يشكر نعمة الله عليه، فاستعملها في السيئات دون الحسنات، وفي الإساءة دون الإحسان.

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى وصف الحالة التي يكون

عليها أهل النار، والحالة التي يكون عليها أهل الجنة، فالذين كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وكَفَرُوا بِهِ وافْتَرَوْا عَلَيْهِ بما خَيَّلَتْ لَهُمْ أَوْهَامُهُم الفاسدة، وعقولهم الضالة، سينالهم من عذاب الله وعقابه، ما يجعلهم عبرة لمن اعتبر، وسينالهم من التقرع والتوبيخ في دار العذاب، والاستجواب والحساب، ما يُنْكَسُ رؤوسهم، ويُخْجَلُ كبرياءهم.

أما أهل النار فقد جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا. قَالُوا: بَلَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَيَسَّ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

ومما تجب ملاحظته في هذا المقام ما ورد فيه من التأكيد في وصف أهل النار بصفة «التكبر»، فقد وُصِفُوا بِهِ في هذا الربع مرتين متتاليتين، المرة الأولى في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، والمرة الثانية في قوله تعالى: ﴿فَيَسَّ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. والسر في ذلك أن خصلة «الكبر» وممارسة «التكبر» - مما يعتاده ضعفاء النفوس وسخفاء العقول - هي أكبر سبب في ضلال الضالين، وسخرية الساخرين، وأكبر حافز للكافرين والفاسقين على تحدي الحق المبين، ومن لم تصبه عاهة «الكبر» كان أسرع إلى قبول النصيحة فَوَزَّ سماعها، وإلى اتباع الهداية بمجرد إشراق نورها.

وأما أهل الجنة الفائزون فقد جاء في وصفهم قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ، لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ، ثم يصف كتاب الله كيف تكون ارتسامات أهل الجنة وانطباعاتهم ، لأول حلولهم بدار النعيم ، فيقول حاكياً على لسانهم : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

وقوله تعالى في هذا السياق : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ ، أي : طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم وجزاؤكم ، كما في تفسير ابن كثير .

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة عند حلولهم بها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، ينظر إلى قوله تعالى في آية أخرى حاكياً الدعاء الذي كان يجري على ألسنتهم في الدنيا : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ ﴾ ، المراد بالأرض هنا أرض الجنة نفسها ، كما فسر ذلك أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدِّي وابن زيد ، بدليل قول أهل الجنة مباشرة بعد ذلك فيما تحكيه الآية عنهم : ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ ،

أي: حيث شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا، وبمثل هذا المعنى فسر ابن كثير قوله تعالى في الآية الأخرى (٢: ١٠٥): ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فالأرض التي يرثها الصالحون من عباده إراثاً خالداً مؤبداً هي أرض الجنة، لا هذه الأرض التي يعيش الإنسان على ظهرها إلى الوقت المعلوم، والتي يشير إليها قوله تعالى (٣٠: ٢٥): ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وقوله تعالى بعد فصل القضاء في مصير الكافرين والمتقين: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، تصويرٌ للحالة التي يكون عليها الملائكة وهم محدقون بالعرش، من الطمأنينة والارتياح، عندما يرون كل فريق قد نال جزاءه العادل، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٤٢: ٧)، فتنتلق ألسنتهم بحمد الله وتقديسه وتنزيهه، إذ هو الحكم العدل الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، الضمير هنا إما أن يعود على أقرب مذكور، وهو لفظ ﴿الْمَلَائِكَةِ﴾، بمعنى أن الملائكة يتفاضلون أيضاً في الثواب، نظراً لتفاضل مراتبهم وتفاضل أعمالهم، وذلك هو القضاء بينهم بالحق، وإما أن يعود الضمير على العباد كلهم والخلائق بأجمعهم، ويكون القضاء بينهم بالحق هو إدخال بعضهم النار، وإدخال بعضهم الجنة.

وختم هذا الربع بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

إِلْعَلِّمِينَ ﴿١﴾، وقد فسر ابن كثير على وجه طريف يُعَدُّ من لطائف التفسير فقال: «أَي نَطَقَ الْكَوْنُ أَجْمَعَهُ، نَاطِقَهُ وَبَهِيمُهُ، بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يُسَيِّدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ، بَلْ أَطْلَقَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لِلَّهِ بِالْحَمْدِ، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾».

الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 جِمْ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
 التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣
 مَا يُجَادِلُ فِيءَ آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي
 الْبِلَادِ ٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ
 كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالبَطْلِ لِيُذْخِرُوا بِهِ الْحَقَّ
 فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
 الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ وَأَصْحَابُ النَّارِ ٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ
 حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ
 لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧
 رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ

مِنْ - أَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ⑧ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
 فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
 إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑪ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا
 اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى
 خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ⑫ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ
 كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا قَالِ الْحُكَمَاءُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ
 الْكَبِيرِ ⑬ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ
 السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ⑭ فَادْعُوا اللَّهَ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑮ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ
 ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ⑯ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ
 مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑰
 الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ⑱ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى

أَخْتَا جِرَ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
 يُطَاعُ ❷ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ❸ وَاللَّهُ
 يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنْ
 اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ❹

الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم نخصصه لتفسير الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين، في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة غافر المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ، وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ، ذِي الطُّوْلِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، إِنْ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

من الآيات التي تستلقت النظر بوجه خاص في مطلع هذه السورة قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَا يَغْزُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتَهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، ففي هذه الآيات وصف مُوجَز للصراع القائم المستمر بين الحق والباطل، والضلال والهدى، ووصف للمعركة الفاصلة بين الاثنين، وتعريف بأن مآل هذه المعركة دائماً إلى غلبة الحق

وانهزام الباطل، وبأن العقاب الإلهي يتدخل في نهاية الأمر،
ليضع حداً لكذب المكذبين، وجدل المبطلين.

وها هنا يكشف الحق سبحانه وتعالى النقاب عن حقيقة
كبرى قلما يلتفت إليها كثير من الناس، ألا وهي أن جميع ما
خلقه الله من العوالم والأكوان، بما فيها من جماد ونبات وحيوان،
يدين كله بالطاعة لله، ويسبح بحمده، ولا يجادل في آية من
آياته، ما عدا شرذمة كافرة مستهترة من بني الإنسان، هي التي
تجادل في آياته، وتقف موقف التحدي لتوجيهاته، وتبرم بطاعته،
وتتصدي لمعصيته، ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾، لكن الله تعالى يُطْمِئِنُّ رسوله والمؤمنين في نفس الوقت
على أن مصير هذه الشرذمة من الكافرين، الذين يتظاهرون بالكبر
والجبروت والاستعلاء، سيكون مصيراً مُفْجِعاً ومُفْزِعاً، وأن الثمرة
الوحيدة التي سيجنونها من جدالهم في آيات الله، وتصديهم للكفر
به، عناداً واستكباراً، لن تكون إلا الخيبة والوار، والهزيمة المرة،
في الدنيا أولاً، والآخرة ثانياً، ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾،
ولقد صدق الله نبيه وعده، عندما انهزم الشرك والمشركون في
جزيرة العرب أولاً، ثم في غيرها من بقية أطراف العالم ثانياً،
وظهر الإسلام على غيره من المعتقدات الباطلة، في كثير من بقاع
المعمور، وها هو لا يزال يشق طريقه المرسوم، إلى أن يتم له
النصر والظهور. وكما مرت في الربيع الماضي آية خاصة في خاتمة
سورة الزمر، تصف وضع الملائكة وهم حول العرش يسبحون الله
ويحمدونه (٧٥): ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿١﴾، جاءت في هذا الربع أيضاً آية كريمة أخرى تهز أعطاف المؤمنين الصادقين، إذ في هذه الآية تحدث كتاب الله عن حَمَلَةِ العرش من الملائكة، وأنهم - علاوة على كونهم يسبحون بحمده سبحانه - يتطوعون بالاستغفار للذين آمنوا من أهل الأرض، وفيها حكى كتاب الله نفس الأدعية التي يدعون بها ربهم وهم في الملأ الأعلى لخير المؤمنين، مما يُعْطِي الدليل القوي على متانة «رابطة الإيمان» التي تجمع بين ملائكة السماء والمؤمنين في الأرض، ويوضح إلى أي حد بلغت درجة التعاطف والتجاوب بين هاذين الفريقين من المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فها هنا يبين كتاب الله لكافة المؤمنين في الأرض أنهم ليسوا غرباء في هذا الكون ولا مجهولين، بل إن لهم إخواناً في الله يفكرون فيهم وفي مصيرهم، من عالم الملائكة والملأ الأعلى، ولا سيما بين حَمَلَةِ العرش المقربين إلى الله، فها هم الملائكة، إخوان المؤمنين، يتوجهون إلى الله في أدب وخشوع، طالبين من الله لإخوانهم في الأرض، توبةً من «واسع الرحمة» ومغفرةً من «واسع العلم»، مَهْدِينَ للدعاء، بهذا النداء: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾، ثم يدعون لإخوانهم المؤمنين التائبين، الملتزمين للضوابط المستقيم، بغفران الذنوب، والنجاة من الكروب، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، ولا يكتفون بهذا الدعاء وحده، بل يضيفون إليه دعاء ثانياً يتضمن التماس الوفاء من الله بوعده الصادق، وإدخال المؤمنين إلى جنات عدن، وها

هنا لا يَقْصُرُونَ الدعاء على المؤمنين وحدهم، بل يُدْرِجُونَ في دُعَائِهِمْ ويدمجون فيه كل من صَلَحَ من آباء المؤمنين، وأزواج المؤمنين، وذريات المؤمنين، سائلين لهم من الله جميعاً الرضى والرضوان، والإلتحاق بهم في جنات عَدْنٍ، تَتِمِّمُا للنعمة عليهم، بجمع الشمل في دار البقاء، بعد انتشاره في دار الفناء: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾، إخراج لمن لم يكن من الصالحين من آباء المؤمنين أو أزواجهم أو ذرياتهم، فهؤلاء لا يلحقون بهذا الركب في الآخرة، بعدما فارقه عقيدة وسلوكاً، طيلة حياتهم وهم في الدنيا، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (١١: ٤٦)، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٣: ١٠١).

ويختتم حَمَلَةُ العرش من الملائكة دعاءهم المستجاب في الملأ الأعلى لخير المؤمنين، بالتضرع إلى الله أن يحول بين هؤلاء وبين ارتكاب السيئات، وأن يحميهم من العِثَارِ في مزالقها والسقوط في مهاوئها، مبينين أن وقاية الله للمؤمن من ارتكاب السيئات تُعَدُّ أَجَلَ رحمة وأعظم فوز، إذ أن السيئة تدعو إلى مثلها حتى تجر صاحبها إلى الهلاك والبوار، ويكون من أهل النار: ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ

فَقَدْ رَجِمَتْهُ ﴿﴾، يدل على أن المعنى الأصلي المراد من استعمال كلمة «التقوى» هو أن يجعل المؤمن بينه وبين ارتكاب السيئات وممارستها حائلاً قوياً، وحاجزاً حصيناً، وأن يتخذ للوقاية منها جميع التدابير.

وَيَمْضِي الحديث في هذا الربع من كتاب الله، في وصف ما أعدّه الله من العقاب والعذاب لمن دعاهم الرسول إلى الإيمان، فأصروا على الكفر والضلال، ووصف ما ينالهم يوم القيامة من مَقَتِ الله وخزيه البالغ، علاوة على المقت الذي يشعرون به آنذاك من أنفسهم نحو أنفسهم، من أعماق الأعماق، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ، قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ، وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ، فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿﴾، لكن لا سبيل لهم إلى الخروج ولا رجاء، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذْ إِلْقَى الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿﴾.

ولا بد من وقفة خاصة عندما حكاه كتاب الله على لسان الكافرين الذين كانوا يكذبون بالبعث والدار الآخرة، ثم لما استقروا في دار الجحيم، ﴿قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ، وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿﴾، فما معنى الموت مرتين، وما معنى الحياة مرتين، وما هو ترتيب الموتين والحياتين؟.

والجواب المأثور في هذا الصدد عن عبد الله بن مسعود

وابن عباس وجملة من مفسري السلف هو أن أحسن تفسير لهذه الآية يؤخذ من نص الآية الثانية والعشرين، الواردة في سورة البقرة، حيث قال تعالى مخاطباً للكافرين محتجاً عليهم (٢٨): ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ، وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا، فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فمعنى ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، في هذه الآية: كنتم عدماً قبل أن يمن الله عليكم بنعمة الإيجاد، على حد قوله تعالى في آية أخرى (٧٦: ١): ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، ومعنى ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾: أخرجكم من العدم ونفخ فيكم روح الحياة، ومعنى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: يقبض أرواحكم عند حلول الأجل ومفارقة الدنيا، ومعنى ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يبعثكم من مرقدكم يوم القيامة للحساب في دار الجزاء، وبذلك يتضح معنى المَوْتَيْنِ ومعنى الحياتين، وهكذا يكون الموت الأول - على سبيل المجاز - هو العدم السابق قبل الخلق، والموت الثاني بالنسبة إليه هو قبض الروح عند مفارقة الدنيا، وهذا هو أول «موت حقيقي» بعد ممارسة الحياة، وقد نفى كتاب الله الابتلاء به في دار النعيم بعد الابتلاء به في الدنيا، فقال تعالى في سورة الدخان (٥٦): ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ، إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَى﴾، أما الحياة الأولى فهي الخلق والإيجاد بعد العدم، أو الحياة الثانية فهي الإحياء للبعث يوم القيامة، وهذا القول في تفسير الآية هو الذي اختاره ابن عطية، وصححه ابن كثير، ترجيحاً لتفسير القرآن بالقرآن. ويسجل كتاب الله ما يتميز به الموقف في يوم القيامة من الهول والجلال والسلطان الإلهي المطلق، والعدل الإلهي الكامل،

إذ يقول: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ويقول: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ويقول في النهاية: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ وَ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
إِنَّهُ وَقِيءٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى
بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ
فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا
قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ

مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
 لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
 يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
 جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ
 وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ الْمَلَكُ
 الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ
 جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا
 سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقُومُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
 وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ
 إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِثْلَ مَا لَكُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ عَصِمْ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
 وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي
 شَكٍّ ثُمَّ جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
 مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

مُرْتَابٌ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
 أَتَيْهِمْ كَبُرَ مُقْتَاتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
 يَهَامُنُ ابْنِي فِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٨﴾ أَسْبَابَ
 السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ وَكَذِبًا
 وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنُ سَوَاءُ عَمَلِهِ وَصَدَقَ عَنِ السَّبِيلِ
 وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 يَقَوْمِ إِنَّا نَعُوبُ أَلَمْ يَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٠﴾
 يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ
 هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣١﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا
 مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنبِئْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٢﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم نعالج فيها الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَبَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

في بداية هذا الربع يعرض القرآن الكريم على أنظار المشركين الذين لا يزالون متمسكين بمعتقدات الجاهلية الأولى ومن مائلهم نبذة من أحوال الأمم الغابرة، مبيناً بعض ما جرى لها من مجريات، ونزل بها من أحداث، وخاصة ما دار في ديارها من صراع عنيف بين دعوة الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لهدايتها، ودعاية المتكبرين، والجبابرة الضالين، الذين أضلّوها وأصروا على التحكم في مصيرها.

وفي نفس الوقت يحضّر كتاب الله كل باحث عن الحق، متطعاً إلى معرفة الحقيقة في أمر النبوات والرسالات، على أن يسير في أرض الله باحثاً منقّباً لاستكشاف آثار الأمم الغابرة،

ومشاهدة البقية الباقية من حضارتها الذاهبة، ففي ذلك العبرة البالغة، والدليل القاطع، على المصير المظلم الذي ينتظر الضالين، والنهاية المحزنة التي تصيب الكافرين، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَاراً فِي الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ففي هذه الآية وما ماثلها يبين الحق سبحانه وتعالى ما أصاب الأمم الغابرة، والحضارات القديمة، من التلاشي والزوال، وما نزل بساحتها من الدمار والاضمحلال، ويؤكد كتاب الله أن أكبر سبب للدمار الذي أصابها، والاضمحلال الذي نزل بها، هو أنها سلكت طريقاً مضاداً من كل الوجوه، للتوجيه الإلهي الرشيد، الذي جاء به الأنبياء والرسل، ولم تتبع سنة الله التي رسمها لصالح الخلق ورشادهم في هذه الدنيا، فانقلبت قوتها القاهرة، إلى ضعف وفناء، وأصبحت آثارها الباهرة، عبارة عن أطلال وأشلاء، رغم كل ما بذلته في سبيلها من المال والجهد والعناء، ﴿وَكَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَاراً فِي الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وتتولى الآيات التالية فيما بعد عرض نموذج حي من الحضارات الزائلة والأمم الغابرة، وذلك بالحديث عن قصة موسى الكليم وفرعون مصر، حديثاً يكشف الستار، عما جرى من الصراع بين الحق والباطل في تلك الديار، فهي هو موسى

يرسله الله إلى فرعون وهامان وقارون، اللذين هما أقرب المقربين إليه، وها هو فرعون يحاول أن يقتل موسى للتخلص منه، وها هو موسى يتحصن بالله ويعتصم به، فيعصمه من عدوان فرعون، وها هو فرعون ورجاله يضعون خطة للقضاء على دعوة موسى، بقتل أبناء الذين آمنوا به، حتى لا يبقى لدعوته أي أثر في الجيل الصاعد، وها هو فرعون يُدلس على قومه، مصرّاً على تضليلهم، محاولاً إقناعهم بوجوب التمسك بما هم عليه من المعتقدات الباطلة، والتقاليد الزائفة، مدعياً أمامهم أنه يخاف عليهم من أن يبدل موسى دين أجدادهم، وأن يظهر الفساد في ديارهم، مشيراً بذلك حميتهم، وموقداً نار التعصب في نفوسهم، بل ها هو فرعون يتحدى قدرة الله ساخراً مستهزئاً، فيطلب إلى هامان أن يبني له صرحاً شامخاً، وبرجاً مرتفعاً في عنان السماء، عسى أن يطرق بيده أبواب السماوات، و«يُطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى» على حد تعبيره الذي حكاه عنه كتاب الله، إذ أن فرعون في ذلك الوقت لم يكن يعترف بإله موسى إلهاً له وللعالمين، فضلاً عن أن يعترف بصدق موسى وكونه من المرسلين، وإلى هذه المواقف تشير الآيات التالية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ، فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ، وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَانُنِ ابْنِ

لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ، فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴿١٠﴾.

وجاء تعقيب الآيات على قصة فرعون، وخطته الماكرة للقضاء على موسى والتخلص من دعوته، بما يؤكد فشل خطة فرعون ورجاله بدءاً وختاماً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، وقوله تعالى من قبل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

ويبرز كتاب الله في وسط هذه المعركة القائمة بين الحق والباطل، ما تركته دعوة موسى - رغماً عن مقاومة فرعون ورجاله - من الأثر العميق والحميد بين آل فرعون أنفسهم وبعض قرابته الأقربين، فالبذرة الصالحة متى وجدت تربة طيبة أسرشت إلى النمو فوراً، ذلك أن رجلاً من آل فرعون قد شرح الله صدره للإيمان بما جاء به موسى من عند الله، لكنه كتم إيمانه عن فرعون فترة من الزمن، ولم يعلنه لأحد من الناس، وبدافع من إيمانه الخفي المكتوم أخذ على عاتقه الدفاع عن موسى حتى لا يناله أذى فرعون، ويسبب تدخله لم يُقدِّم فرعون على تنفيذ حكم الأعدام في موسى، بل إن هذا المؤمن من آل فرعون مضى في سبيل الدفاع عن عقيدته الإيمانية الجديدة خطوة أبعد، فأخذ يمهد السبيل ويهيء الجو، حتى يتمكن موسى من أن ينشر دعوته بين الناس وهو آمن على نفسه وعلى دعوته، دون مضايقة ولا متابعة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكْ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴿١٠﴾.

وينص كتاب الله على أن مؤمن آل فرعون - وإن كان لم يعلن إيمانه بموسى في الحين - فقد تولى بنفسه نشر جزء مهم من دعوة موسى بين أعضاء الحاشية التابعة لفرعون، بصفة أنه مجرد «ناصح لقومه أمين» لا بصفة كونه تابعاً من أتباع موسى وصحبه، وذلك ما تحكيه الآيات الكريمة على لسان «مؤمن آل فرعون» نفسه إذ يقول: ﴿يَنْقُومَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ، وَيَنْقُومَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَصَمٍ﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومَ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يَنْقُومَ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَّعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

ومؤمن آل فرعون باختياره لهذا التعبير بالخصوص وهو: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، كان يقصد، من بعيد، إبطال ما ادعاه فرعون أمام قومه عندما قال لهم مضللاً مزوراً: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وذلك لنقض ادعائه الباطل، وهكذا أيد الله موسى وهو يصارع فرعون ويقارعه، فلم تذهب دعوته سُدىً، ورزقته العناية الإلهية من بين آل فرعون أنفسهم سنداً ومُدداً.

ومما يحسن التنبيه إليه من مفردات هذا الربع كلمة «سُلْطَن»، وكلمة «الْأَحْزَاب»، وكلمة «التَّنَاد»، فقد وردت كلمة «سُلْطَن»، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتِيهِمْ﴾، والمراد بها في كلتا الآيتين: الحجة والبرهان، التي تفرض نفسها على الخصم، ولا يسعه عند سماعها إلا الاقتناع والإذعان، ووردت كلمة «الْأَحْزَاب»، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، وكما استعملها كتاب الله في «سورة الأحزاب» للتعبير عن المجتمعين الذين تحالفوا على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، استعملت في هذا الربع وغيره من بقية السور، للتعبير عن جميع من تحزَّبوا على أنبياء الله ورسله، وتصدَّوا لهم بالمعارضة والمقاومة في مختلف الأجيال والعصور، فكان لكل «حزب» منهم يومه الموعود، ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٨: ١١)، ووردت كلمة «التَّنَاد»، في قوله تعالى على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾، وهي مصدر: «تَنَادَى الْقَوْمُ، أَي نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا. قال ابن عباس وغيره: «التناد» خفيفة الدال، هي التنادي، والمراد «بيوم التناد» يوم القيامة، وسمي بذلك لما يقع فيه من نداء الناس بعضهم بعضاً عند قيام الساعة والتوجه إلى المحشر، وما يقع فيه من مناداة كل قوم بأعمالهم عند الحساب،

ومناداة أهل النار لأهل الجنة: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧: ٥٠)، ومناداة أهل الجنة لأهل النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، قَالُوا نَعَمْ﴾ (٧: ٤٤)، ومناداة: «أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ»، للوافدين عليهم لتمييز أهل الجنة من أهل النار، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ (٧: ٤٨)، قال ابن كثير: (واختار البغوي أن يوم القيامة سمي «يوم التناد» لمجموع هذه المعاني، وهو قول حسن جيد، والله أعلم).

الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين
في المصحف الكريم

وَيَقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ①
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ
عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ② لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ وَأَصْحَابُ
النَّارِ ③ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِضُ أَمْرِي
إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ④ فَوَقِيلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ⑤
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ⑥ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ
فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ⑦

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ
 حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخَزَنَةٌ
 جَهَنَّمَ أَذْعَوْا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ ﴿٤٩﴾
 قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ
 قَالُوا فَأَدْعُوا ۖ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ ﴿٥٠﴾
 إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۖ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ
 وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ
 الْهُدَىٰ وَأَوْثَرْنَا بَيْنَهُ إِسْرَاءَ يَلِ الْكِتَابِ ۖ ﴿٥٣﴾ هُدًى
 وَذِكْرَىٰ لِأُولَىٰ إِلَّا لَيْبٍ ۖ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
 حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ
 وَالْإِبْكَرِ ۖ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ
 بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَبْتِهَامُهُ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ
 مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ۖ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
 مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْمُرُونَ ۖ ﴿٥٧﴾

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
 إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ذِكْرًا
 إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّبِعْ تَوْفِيقَهُ ﴿٦٢﴾
 كَذَلِكَ يُوفِّكَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابِعُونَ اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾
 هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا اليوم هو الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَيَقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لا تزال الآيات البيّنات تحكي في هذا الربع ذبول قصة موسى وفرعون، وتصف الدور الإيماني الكبير الذي اضطلع به «مؤمن آل فرعون» بعدما كان يكتنم إيمانه بموسى ورسالته، فانتقل تدريجياً من مرحلة الكتمان، إلى مرحلة الجهر بالإيمان، وأخذ يوجه النقد اللاذع لما عليه فرعون وقومه من معتقدات باطلة، لا علاقة لها بالحق والصدق، لا من قريب ولا من بعيد، مبيناً لهم أن ما يَدْعُونَهُ ويعبدونه من دون الله لا يضر ولا ينفع، وأن التعلق بغير الله محض ضلال وخبال، وذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون بعد ما جَهَرَ بإيمانه: ﴿وَيَقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ، تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَاشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ، لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي

إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ،
وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ،
وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى العناية الإلهية التي عصمت «مؤمن آل فرعون» من أذى فرعون ومكره، كما عصمت موسى من قبله، فلم تمتد إليه يد فرعون بالقتل والتعذيب، بينما تعرّض فرعون ورجاله لعقاب الله وعذابه، فكانوا مضرب الأمثال لمن بعدهم من أهل الكبر والجبروت، وذلك قوله تعالى عن مؤمن فرعون أولاً: ﴿فَوَقَّيْهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾، وعن آل فرعون ثانياً: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، يستفاد منه أمران:

الأمر الأول: أن فرعون وآله ممن كذبوا موسى ولم يؤمنوا برسالته يعذبون باستمرار، عقاباً لهم من الله، فأرواحهم تعرّض على النار صباحاً ومساءً منذ عوقبوا بالغرق إلى قيام الساعة.

الأمر الثاني: أنه إذا قامت القيامة ووقع النشر والحشر والحساب فإن الحق سبحانه وتعالى يأمر خزنة جهنم بأن يدخلوا فرعون وآله أشد العذاب ألماً، وأعظمه نكالاً، جزاءً وفاقاً. قال ابن كثير في تفسيره: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا»، ثم بين ابن كثير: أن هذه الآية إنما دلت على عرض الأرواح على النار غدوًّا وعشيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم تدل عليه إلا السنة، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك، حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة»، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر.

ويعقب كتاب الله على ما يتعرض له الأنبياء والرسل ومن آمن بهم من المحن والمتاعب، مبيناً ما ينالهم في النهاية، بعد الثبات والصبر، من الفوز المبين، والنصر المكين، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى في صيغة من التأكيد لا تأكيد فوقها: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

ويصف كتاب الله - بمناسبة ذكره لقصة موسى وفرعون - ما يكون عليه يوم القيامة حال الأقوياء الضالين المضلين، وحال الضعفاء من أتباعهم المستضعفين، حيث يحتج الأتباع على المتبوعين والمرءوسون على الرؤساء، طالبين منهم أن يتحملوا عنهم بعض أنقالتهم، وأن يقوموا مقامهم في أخذ نصيبهم من العقاب والعذاب، إذ أنهم إنما ذهبوا ضحية تضليلهم، وفريسة أغوائهم،

لكن كُبرَاءهم الذين استكبروا عن قبول دعوة الحق يجيئونهم صاغرين محزونين، معتردين لهم بأنهم هم أيضاً لهم نصيبهم من النار، بل إن نصيبهم من العذاب أكبر وأشد، على قدر ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، إذ كانوا قدوة سيئة «فالمراء في ميزانه أتباعه»، ومن سنَّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» كما قال عليه الصلاة والسلام، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُلٌّ فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

ثم تنتقل الآيات الكريمة للحديث عن بعض المفارقات التي تبرز بين المعذبين في النار، فها هم أولئك الذين كانوا طيلة حياتهم يسخرون من الإيمان والمؤمنين، ويستهزئون بالرسالة والرسول، ويكفرون بالله أو يشركون به غيره، يعودون في دار العذاب إلى صوابهم، ويدركون ما هم عليه من الضعف والهوان، لكن بعد فوات الأوان، ويمدّون يد الضراعة إلى «خزنة جهنم» أنفسهم، طالبين منهم صالح الدعاء، عسى أن يخفف الله عنهم العذاب ولو يوماً واحداً، إلا أن «خزنة جهنم» يوجهون إليهم سؤال استفسار واستنكار في وقت واحد، إذ يسألونهم عن الرسل هل جاؤهم بالبينات؟ هل بلغوهم الرسالة أم لا؟ فلا يسع ضيوف جهنم أي إنكار أو استنكار، بل يعترفون بأن الرسل قد بلغوا رسالاتهم عن الله كاملة غير منقوصة، وحينئذ يأمر خزانة جهنم أولئك المعذبين أن يتولوا الدعاء لأنفسهم بأنفسهم، ويرفضون

الدعاء لهم، إذ لا يستطيعون التدخل في شأنهم، ولا الشفاعة فيهم لتخفيف العذاب، وهم يعرفون مُسَبِّقاً أن دعاء الكافرين الذين لم يتوبوا من كفرهم - وهم في حياتهم - لا يقبل ولا يستجاب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، قَالُوا: أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ. قَالُوا: بَلَى: قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

وتناولت آيات هذا الربع بالإشارة ذكر موسى عليه السلام، وذكر بني إسرائيل قبل أن ينحرفوا ويُحَرِّفُوا، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ، هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. ثم اتجهت الآيات الكريمة إلى مجابهة منكري البعث الذي يُصِرُّون على إنكاره دون حجة ولا برهان، كِبَرًا منهم عن الانقياد للحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتِيهِمْ، إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، وتعبيراً عما تُمنى به مخططاتهم من خيبة وفشل، قال تعالى في نفس السياق: ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾، وأتبعه بقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. إشارة إلى أن خلق السماوات والأرض أكبر مما يستغربون منه ويتعجبون من أمره، وهو بعث الناس وخلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا رميمًا، على أن هذه الآية تتضمن في نفس الوقت حقيقة كونية كبرى هي تحديد «مركز الإنسان» بالنسبة إلى بقية الأكوان، حتى لا يداخله الزهو والغرور، ولا يضع مقادته بيد الشيطان «الغرور».

وقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، معناه أستجب لكم إن شئت، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ (٦: ٤١)، والاستجابة تكون إما بنفس الشيء، وإما بما هو خير منه، وتكون عاجلة كما تكون آجلة، ومفتاح الدعاء: الحاجة والاضطرار، وشرطه: الأكل من الحلال، وقد تكون الاستجابة بصرف السوء عن الداعي، قال عليه السلام: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» رواه الترمذي والحاكم.

ومضى كتاب الله يعرض على الإنسان جملة من آياته الكونية، وبراهينه الفطرية، متحدثاً عن تعاقب الليل والنهار، الذي جعله الله موافقاً لنظام حياة الإنسان كل الموافقة، وعن تكوين السماء والأرض، المطابق لتكوين الإنسان والمستجيب لاحتياجاته كل المطابقة، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

ونظراً لما يتعرض له الإنسان، ويسيطر عليه من الغفلة والنسيان، ذكره كتاب الله بما أسبغ عليه من النعم، وما منحه من واسع الكرم، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، وفي هذا الخطاب الموجه بالخصوص إلى الناس، من «رب الناس ملك

الناس» غاية الإكرام والتكريم، لمن جعله الله خليفة في الأرض وأنزل عليه الذكر الحكيم، وقال في حقه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وجاء مسك الختام مُطابقاً لما يوحى به المقام، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَرَّكُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الْحَيُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثامن والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ
أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ
مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا
شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ هُوَ الَّذِي يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَدْرِ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ أَنْبَى يُصْرَفُونَ ﴿٧٠﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
إِذِ الْأَغْلَالُ فِيهِمْ أَغْنَتْهُمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٢﴾ فِي
الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ وَأَنْتُمْ مَا

كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا بَل لَّئِمَّا
 نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٣﴾
 ذَالِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَمْتَرُونَ ﴿٧٤﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيسَ مَثْوًى
 الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٥﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ
 بِعُضِّ الذِّمِّ نَعِدُ هُمْ وَأَوْ نَنْوِقِيكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
 يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ
 وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
 الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
 مَنَافِعُ وَلِنَبْلُغُوهَا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ
 تُحْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨٠﴾
 أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي
 الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾

فَلَمَّا جَاءَ تَهُمُّ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ
 الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْا
 بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾
 فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُلَّتِ اللَّهُ
 إِلَيْهِ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جِمْ ﴿١﴾ نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ - آيَاتُهُ وَقُرْءَانُهُ غَرِيبًا
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾
 وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيهِ أَكْتَرُ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيءَا إِذَا إِنَّا وَقُرْ وَمِنْ
 بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
 يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنْمَأ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ وَحِيدٌ فَاسْتَفِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ
 وَوَهْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾



الربع الثاني من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الثاني من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة غافر المكية: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة فصلت المكية أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

في هذا الربع يتجدد الحديث عن جملة من الحقائق الإيمانية، تثبيتاً لها في النفوس، وتركيزاً لها في العقول:

من جملتها قصة حياة الإنسان، ووصف نشأته الأولى وتطوره في مختلف الأطوار.

ومن جملتها وصف حالة الأنبياء والرسل، وما يعترض طريقهم من العقبات، وما يلزمهم في سبيل إبلاغ الرسالة الإلهية من العزم والثبات والصبر، وما يؤول إليه أمرهم من الفوز والغلبة والنصر.

ومن جملتها ما يحلّ بساحة المعاندين الذين يجادلون في آيات الله ويتحدون رسله، من الهلاك والدمار في دار الدنيا، وما

يحاولونه في آخر ساعة من تدارك للإيمان، بعد فوات الأوان، ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا، سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيْهِ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ومن جملتها ما ينتظر المكذبين بالله وكتبه ورسله من الوعيد الشديد في الدار الآخرة، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وأول آية من هذا الربع هي خطاب من الله تعالى لنبیه يُلقن فيها رسوله كيف ينبغي له أن يرد على المشركين، مسفهاً سعيهم لحمله على مهادة الشرك وعدم التعرض لعبادة الأصنام والأوثان، وقاطعاً لهم كل أمل في الإبقاء على المعتقدات الزائفة التي يدينون بها، والتقاليد الزائفة التي يقدسونها، وهذه الآية تتضمن في نفس الوقت بيان السبب الرئيسي الذي من أجله أشهر الرسول عليه الصلاة والسلام حرباً شعواء على الشرك والمشركين، فقد أنزل الله عليه من البيانات الصارخة، والحجج القارعة، منذ اختاره رسولاً إلى العالمين، ما يهدم صروح الشرك، ويدك قلاع المشركين، وقد أمره الله أن يحرر البشرية كلها من أغلال الشرك بالله، وأن يعيدها إلى فطرتها الأولى، وهي الإسلام والاستسلام لله، ﴿ فِطَرَتَ اللَّهُ إِلَيْهِ قَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (٣٠ : ٣٠)، وذلك قوله تعالى مخاطباً لنبیه وملقناً: ﴿ قُلْ : إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتأتي آية أخرى تذكر الغافلين من بني الإنسان - وما

أكثرهم - بما لله من أسرار وآثار في نشأتهم الأولى ونشأتهم الآخرة، وما يتقلبون فيه من حالات وأطوار، قبل خروجهم من بطون أمهاتهم وحلولهم بهذه الدار، إذ أنهم على الرغم من مشاهدتهم لقصة الحياة والموت على مر الأيام، وعلى الرغم من عجزهم البالغ أمام هذه القصة السُّرمدية، المتكررة في كل لحظة وثانية، وعلى الرغم من جهلهم الفاضح بأسرارها وأطوارها، وبدايتها ونهايتها، لا يتذكرون ولا يعتبرون، وفي آيات الله البارزة، وحججه البالغة، لا يزالون يجادلون، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾.

وقوله تعالى في نفس هذه الآية: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى﴾ وقبل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فيه إشارة صريحة إلى أن الإنسان متى فكر في مراحل نشأته وحياته وموته بعقل يَقْظ، وبصيرة نافذة، عرف الله حق المعرفة، وآمن به حق الإيمان، وأحس من أعماق قلبه أنه عاجز أمام القوة الإلهية لا يستطيع لتصرفها رداً ولا دفعاً، وأنه مدين لها بكل مَلَكَاته وجوارحه، وبجميع النعم التي يتقلب فيها، وأن الله قد أحسن إليه وفيه صنعاً.

وفي هذا الربع آية كريمة لا بدّ من الوقوف عندها وقفة

خاصة، ذلك أن طائفة كبيرة من الناس بلغ بها الكبر والأنانية إلى حد أن تستغرق حياتها في المتع واللذات، وتستنفد طاقتها في الجري وراء الشهوات، فهي لا تفكر في الليل أو النهار، إلا في قضاء ما لذ لها وطاب من مختلف الأوطار، ناسية ما وراء ذلك من الواجبات والتبعات، والحقوق التي عليها نحو الله ونحو الناس، حتى إذا ما حان حينها، ووافاها الأجل، أدركت أنها لم تتزود بأي زاد، ووجدت رصيدها في حالة يرثى لها من الخسران والإفلاس، وإلى هذه الطائفة التي بلغت الغاية في الغفلة والتغفل، ومن شابهها من الأنانيين والمتكبرين، يشير قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ، أَدْخُلُوا أَبْوََابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَيَسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وأما آية أخرى تعتبر أكبر عُدَّة لدعاة الحق، الصابرين المصابرين من الأنبياء والرسل وأتباعهم الصادقين، ومضمونها الدعوة إلى الثبات على الحق، وإلى التفاني في نشره ونصره، والدفاع عنه مهما كلف من التضحيات والمتاعب، وهي في آن واحد تجديد لعهد الله القاطع، بنصر من نصره، وتأكيد لوعده الصادق، بغلبة أهل الحق وهزيمة أهل الباطل، وهي في نفس الوقت بشارة من الله لجنده، بأنهم سيجنون بعض ثمرات جهدهم وهم على قيد الحياة، وأنهم سيرون انتصار الحق وزهوق الباطل رأي العين، وذلك قوله تعالى في خطابه لنبيه، ولكل من سار على نهجه القويم في حمل الأمانة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَإِمَّا

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿١﴾، وكما حقق الله وعده، ونصر جنده فيما مضى، فدان بدينه العرب والعجم، ودخلت فيه عدة شعوب وأمم، فسيحقق وعده فيما يستقبل من الأيام، وسيظهر الله دينه الحق في مشارق الأرض ومغاربها، وسيحفظ «ذكره الحكيم» إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

أما «سورة فصلت المكية» التي تقع بدايتها في آخر هذا الربع، فقد تحدثت آياتها الأولى أولاً عن كتاب الله العزيز ونزوله باللسان العربي المبين، والحكمة في نزوله على رسوله الصادق الأمين، وثانياً عن أول موقف وقفه المشركون من كتاب الله، عندما كانت حُجُبُ الشرك الغليظة لا تزال تحول بينهم وبين الاهتداء بنوره، وثالثاً عن الجواب «الحليم الحكيم» الذي أجابهم به رسول الله وهو يدعوهم إلى الحق، ويتفاني في سبيل هدايتهم وهداية بقية الخلق، ورابعاً عرضت نموذجاً من «الندارة» التي وجهها القرآن الكريم إلى المشركين ومن سار على نهجهم، ونموذجاً من «البشارة» التي وجهها إلى المؤمنين الأولين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ففيما يخص النقطة الأولى جاء قوله تعالى: ﴿حَمَّ. تَنْزِيلُ مَنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كَتَبَ فُصِّلَتْ - آيَتُهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وَيُرْزُ «تفصيل آياته» البيّنات فيما ورد منها في وصف ذات الله وصفاته وعجائب خلقه في الأنفس والأفاق، وفيما ورد منها في التكاليف المتعلقة بالقلوب

والجوارح، وحقوق الله وحقوق العباد، وفيما ورد منها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودركات أهل النار، وفيما ورد منها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس والنصائح والمواعظ، وفيما ورد منها في قصص الأولين وتواريخ الماضين، إلى غير ذلك من الموضوعات والمباحث، قال فخر الدين الرازي: «وبالجملة، فمن أنصف عَلم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتنوعة مثل ما في القرآن».

وفيما يخص النقطة الثانية جاء قوله تعالى: ﴿فَاعْرَضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وصَوَّرَ كتاب الله أروع تصوير رفض المشركين لقبول الحق واعتناقه، وتقززهم من سماعه، والهوة السحيقة التي تفصل بينهم وبين عقيدة التوحيد التي جاء بها الرسول، فقال حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، مثل قولهم في آية أخرى (٢: ٨٨) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، و«الأكنة» جمع «كنان» وهو الغطاء، و«الغلف» جمع «غلاف» وهو الغشاء، ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أي: صمم ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾.

وفيما يخص النقطة الثالثة حكى كتاب الله جواب رسوله لهم متلطفاً ومتعطفاً، طبقاً لمقتضى الحكمة والموعظة الحسنة، ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.

وفيما يخص النقطة الرابعة قال تعالى في كتابه بصفته

«نذيراً»: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، وقال تعالى في كتابه بصفته «بشيراً»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ إِنِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُ وَأُنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ① وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ
فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً
لِلنَّاسِ يَلِينٌ ② ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ اإِيتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ③
فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأُوحِيَ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ
أَمْرًا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبُحٍ وَحِفْظٍ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ④ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ⑤ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَأَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّمَا أُرْسِلَتْكُمْ بِهِ كُفْرُوكُمْ ⑥ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾
 فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَجْزَى وَهُمْ
 لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعِجَى عَلَى الْهُدَى
 فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
 وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ
 اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ
 عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
 وَقَالُوا لِمُجْلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
 وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَمُ
 ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ وَأَرَادَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾
 فَإِنْ يَصِيرُوا قَالِ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ وَإِنْ يَسْتَعِينُوا فَهُمْ مِنَ الْمُغْنَيْنِ ﴿٢٤﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم هو الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبرُوا فَالْنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

يتحدث هذ الربع لأول ما يبدأ، مخاطباً الكافرين المصريين، على كفرهم عناداً واستكباراً، مستغرباً موقفهم الشاذ الذي ليس مفهوماً بالمرة، ذلك أنهم علاوة على ما يجهلون من أسرار أنفسهم وما لله فيها من آيات قائمة - وهي أقرب شيء إليهم - يجهلون أو يتجاهلون كل ما حولهم من العوالم والأكوان، فهم في غفلة عنها معرضون، فلا عيون متفتحة، ولا عقول متبصرة، ولا قلوب مستيقظة، وهذه الأرض بكل من عليها، وتلك السماء بكل ما فيها، لا تثير في نفوسهم أية رغبة في الاستطلاع، ولا تُنير في ضمائرهم شعلة الإيمان، رغماً عما فيهما من دلائل القدرة ومظاهر الإبداع، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ

الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَرَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ، ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ: ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَيْهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا. وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ، وَحِفْظًا. ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٧﴾. وها هنا يحسن بنا أن نلفت النظر إلى أن «أيام الله» التي تشير إليها هذه الآيات، بالنسبة لخلق الأرض والسموات، لا تُقدَّر بقدر أيامنا التي نعرفها في كوكبنا الأرضي الخاص، بل هي من نوع آخر يعلمه خالق الزمان والمكان، على حد قوله تعالى في سورة الحج (٤٧): ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقوله تعالى في سورة السجدة (٥): ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

ومفاد هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها اليوم: أن الله قد خلق الأرض بما عليها في أربعة أيام من «أيام الله» فخلَقُ أصل الأرض تَمَّ بأمر الله في يومين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، وخلَقُ ما عليها تَمَّ بأمر الله في يومين آخرين، وبهما كمل خلق الأرض أصلاً وفرعاً، وتم عدد الأيام المحددة لخلقها أربعة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾، إشارة إلى الجبال التي تُرسِي الأرض حتى لا تميد، ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ

أَيَّامٍ ﴿١﴾، أما خلق السماوات فقد تم بأمر الله في يومين اثنين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿فَقَضَيْهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿٢﴾، ويرى بعض المفسرين من القدماء والمحدثين أن عدد «السبع» الوارد في كتاب الله عند ذكر السماوات لا يُراد منه حصرها في نفس ذلك العدد ونفي ما سواه، حسبما يقتضيه المفهوم، وإنما هو وارد على حد قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣﴾، فالسبع في تلك الآية كالسبعين في هذه الآية، ومن يدري فقد تكشف الأيام من أسرار الكون ما يوضح معنى «السبع» الوارد في غير ما آية في كتاب الله، ومن بينها قوله تعالى في سورة الطلاق: (١٢) ﴿إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، فالكون لا يزال لغزاً كبيراً، ولا يُشكّل على تفسير الآيات التي هي موضوع هذا الحديث قوله تعالى في سورة النازعات (٢٧ - ٣٣): ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ. بَنِيهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَيْهَا، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا: أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيهَا وَالْجِبَالَ أَرْسِيهَا. مَتْنَعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾، لأن المعنى المقصود من هذه الآية كما أجاب به ابن عباس وذكره البخاري في صحيحه عند تفسيره لها: هو أن دُخِيَ الأرض وحده هو الذي كان بعد خلق السماء. وقد تولت الآية الكريمة نفسها تفسير معنى الدُّخُو حيث قالت: ﴿دَحِيهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسِيهَا، مَتْنَعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾، وليس المقصود منها أن خلق أصل الأرض كان متأخراً، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

أما قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قَالَتَا أَتَيْنَا خَاشِعِينَ﴾، فمن المفسرين من حمّله على أنه حوار حقيقي صحبته الحياة والإدراك والنطق الفعلي من الأرض والسماء، على غرار قوله تعالى في نفس السورة (٢١): ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ومنهم من حمّله على أنه مجرد مجاز، من باب ضرب المثل، أي لا يتعسر عليه سبحانه شيء مما خلقه، فله من خلقه ما أَرَادَهُ، والمقصود إنما هو تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، دون أن يكون هناك خطاب ولا جواب.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، إشارة إلى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وبسط مائدة رزقه لكافة خلقه، دون تمييز بين طبقة وأخرى، ولا بين أمة وأخرى، فالبساط الإلهي ممدود لجميع السائلين على السواء، على حد قوله تعالى في آية أخرى (١٤: ٣٤): ﴿وَعَاتِيَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، إشارة إلى أن أقوات الخلق مقدرة في الأرض بتقدير إلهي حكيم. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحجر (٢١): ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقوله هنا: ﴿وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ينظر إلى قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، فكما أن الله تعالى هو

الذي أبدع الأكوان، وخلق العوالم على غير مثال سبق، وجعلها بجميع ما قَدَّرَ احتياجها إليه من النواميس والقُوى والطاقات، تكفل هو سبحانه كذلك بإمدادها بعد إيجادها، وتعهد جلّ علاه بتدبيرها وصيانتها وحفظها من كل خلل، دون أن يؤثر ذلك كله على قدرته القاهرة، وحكمته الباهرة، في قليل ولا كثير.

ويتحدث كتاب الله مرة أخرى عن إعراض المشركين عن الحق، ويذكرهم بما آل إليه أمر عاد وثمود، وما تعرضوا له من عذاب الله، جزاء إعراضهم عن الإيمان به وبرسله، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ، إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ﴾، ويصف استكبار عاد عن قبول دعوة الحق، كما يصف استهتار ثمود، وتنكرها لهديّة الله: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۖ﴾، ﴿وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۖ﴾، رُوي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ لينتقد عليه مخالفته لقومه، فلما تكلم عتبة قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حَمِّ ۖ﴾، ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ۖ﴾، فأرعد عتبة بن ربيعة، ووقف شَعْرُهُ، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرجم أن يمسك، وقال حين فارقه: «والله لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي».

وتصف الآيات الكريمة حال أعداء الله وحال أوليائه في الدار

الآخرة: ﴿وَنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، وَيَوْمَ نَحْشُرُ
أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

ويوضح الحق سبحانه وتعالى في ذلك المشهد الرهيب،
أمام الملا، أعداءه وأعداء رسله، فضيحة كبرى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا
جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَمَا كُنْتُمْ
تَسْتَبْرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا قُلُوبُكُمْ.
وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكَمُ ظَنُّكُمْ
الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وفي مثل
هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة يس (٦٥): ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين
في المصحف الكريم

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا
الْقُرْآنِ إِنَّا نَغْوَاهُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ
فِيهَا دَارُ الْمُخْلَدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ نجعلهم ما تحت أقدامنا ليكونوا من الأسفلين ﴿١٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ
 وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾
 وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ
 بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُبْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُبْقِيهَا
 إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا تَنزَغُنَا مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
 اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
 وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
 إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ
 رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾
 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا نَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
 الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَيْمَانِنَا لَا يَخْفَوْنَ
 عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِيهِ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَإِنَّهُ لَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْبٌ غَزِيزٌ ⑪ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ
 يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ⑫ مَا يَقَالُ لَكَ
 إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
 أَلِيمٍ ⑬ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ وَءَا عَجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى
 وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيءَا أَذَانُ نَجَسٍ وَقُرْءَانٌ عَلَيْهِمْ
 عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ⑭ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
 الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ
 بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ⑮ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ
 وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ⑯

الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَقِيَّضْنَا لَهُمْ قُرَآءَۃً فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، إلى قوله تعالى جَلَّ عِلَّاهُ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

في بداية هذا الربع يتولى كتاب الله وصف دعاة الباطل وقرنائهم، ودعاة الحق وأوليائهم، بما يوضح سماتهم للناس جميعاً في جميع العصور:

أما دعاة الباطل فمن شأنهم إغواء الخلق، وإغراؤهم على مقاومة الحق، وهم معتزون بالباطل الذي هم عليه، مصرّون على التمسك به، لا يحاولون أن يعيدوا فيه النظر، ولا أن يستبدلوا به غيره أبداً، وبحكم الغواية التي اختاروا طريقها لا يجدون لهم أي أنس أو متعة في الحياة، إلا في معاشرة قرناء السوء ومتابعتهم، والثقة بوساوسهم في جميع الشؤون.

والشأن في «قرناء السوء» تشجيع قرينهم على الاندفاع في

طريق الباطل، وإعانتته على إعداد مشاريع السوء بالنسبة للحاضر والمستقبل، وتزيين جميع ما قام به في الماضي من الأعمال والمساعي المنكرة، واستحسانها ولو بلغت أقصى غاية في الانحراف والشذوذ، فهم لا يُقدِّمون لقريتهم أي نصح، ولا ينيرون له أي طريق من طرق الخير، وإنما يزيّدونه خبالاً في الفكر، وعماء في البصيرة، إلى أن يسقط في مهاوي الهلاك، وتحق عليه كلمة العذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ، مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (١١٢: ٦): ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وفي نفس هذا السياق جاء كتاب الله بنموذج حي يوضح طريقة دعاة الباطل وقرناء السوء الملازمين لهم، ونوع الدعوات الضالة التي يقومون بها، وينشرونها بين الناس، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، فهذا هم أولاء يَدْعُونَ الناس لأن يقفلوا آذانهم عن سماع القرآن، أي يدعونهم لمقابلته بالإعراض والإهمال، والعناد وعدم الانقياد، إذ من شأن الإنسان متى أصغى إلى الحق، واستمع إليه بانتباه وروية، أن يتمعن ويتدبر ويتأثر، فإذا لم يستمع إليه كان بِنَجْوَةٍ من تأثير الدعوة، وفي مَأْمَنٍ من مفعولها المنتظر، في أغلب الأحيان.

ثم ها هم أولاء يَدْعُونَ الناس إذا اخترق القرآن أسماعهم
ونفذ إليها بالرغم عنهم، أن يَلْعُؤُوا فيه، ومعنى «اللغو» فيه: افتعال
الضجيج والصفير والمكاء والتخليط، ومواجهته بالتعيب،
والتشكيك، ومقابلته بالجحود والإنكار.

ولقد كانت هذه الطريقة، التي كشف كتاب الله عنها الستار،
ولا تزال هي الطريقة التقليدية التي يتبعها دعاة الباطل وقرناؤهم
لمحاربة أهل الحق، ومقاومة دعوتهم في كل زمان ومكان، فهم
يأمرون أتباعهم المضللين بالابتعاد عن دعاة الحق، ويتفادي
الاحتكاك بهم، وعدم غشيان مجالسهم، فإذا أخذت دعوة أهل
الحق في الانتشار، رغماً عنهم، تصدّوا لها بالنقض والتشكيك
والمهاترات، وعملوا بكل الوسائل على خنقها وإغراقها في بحر
لُجِّيٍّ من أمواج الباطل المتراكمة، لعلهم يغلبون الحق عن طريق
الباطل، لكن الحق سبحانه وتعالى يتولى دعاة الباطل وقرناءهم،
من الكفار فَمَنْ دونهم، بما هم أهل له من الخذلان والعقاب
والعذاب، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي:
أنه تعالى سيجزيهم بشر أفعالهم، وسيء أعمالهم. وبعدها يصفهم
كتاب الله بأنهم «أعداء الله» يواصل الحديث عن الجزاء الذي
ينتظرهم، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ،
جَزَاءً ۚ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى الحيرة والحسرة التي يكون عليها
دعاة الباطل، من الكفر فما دونه، في دار العذاب، إذ يتساءلون

في جهنم عن قرنائهم الذين أعانوهم على الضلال، ضارعين إلى الله أن يُريهم مكانهم في جهنم، متمنين على الله أن يكون أولئك القرناء أشدّ منهم عذاباً، بل تحت أقدامهم في الدرك الأسفل من النار، لأنهم زينوا لهم أعمالهم، وأضلّوهم ولم ينصحوهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا، لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾. ونقل ابن كثير في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معنى ﴿الَّذِينَ أَضَلَّنَا﴾، الوارد في هذه الآية بصيغة المثنى: إبليس من جهة، وابن آدم الذي قتل أخاه من جهة أخرى، واسمه قابيل، فإبليس يدعو بدعوته كل صاحب شرك، وابن آدم القاتل لأخيه يدعو بدعوته كل مرتكب كبيرة، وثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وأما دعاة الحق فمن شأنهم الإيمان بالله، والاستقامة على هداية، والثبات على شرائط الإيمان بجُمليتها، دون الإخلال بأي شيء منها، وضرب المثل الصالح لغيرهم، بممارسة الأعمال الصالحة، والدعوة إلى الله دون انقطاع، وهم لا يعترضون بغير الإسلام، ولا ينتمون إلى ما سواه من المذاهب والأقوام، ولا يلتزمون نحو غيره بأي التزام، وفي سبيل الدعوة التي يقومون بها ويمارسونها يتحملون الأذى بصدر رحب، فلا يقابلون الإساءة بمثلها، وإنما يَدْفَعُونَ الإساءة بالإحسان، وإن كانوا أبعد الناس عن وصف

الضعف والهوان، وبذلك يؤثرون على النفوس الجامحة، فتُسَلِّس لهم قيادها، وتعود إلى رشدها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم»، وقال عمر بن الخطاب: «ما عاقبت من عصى الله فيك، بمثل أن تُطِيعَ الله فيه» ومعنى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، فإذا أساء إليك أحد كانت «الحسنة» أن تعفو عنه ولا تعامله بالمثل، «والتي هي أحسن»: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، ومعنى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: أنك إذا فعلت ذلك صافاك عدوي واقترب منك، وأشبه الولي الحميم، وهذا لا يستلزم أن يصير ولياً مخلصاً بالمرة، ومعنى قوله: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ما يُلْقَى هذه الخصلة ويقوم بحققها، أو ما يمثل هذه الوصية ويعمل بها - وهي مقابلة الإساءة بالإحسان - إلا من تعود على الصبر في معاناة الخلق، على غرار قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٢: ٤٣) ومعنى ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: ما يلقاها إلا ذو نصيب وافر من الخير والتوفيق.

وكما تحدث كتاب الله فيما سبق عن قرناء السوء الذين يُزَيِّنون لدعاة الباطل أعمالهم، والذين يوحون إليهم بمحاربة الحق وأهله، ويَبَيِّن موقف بعضهم من بعض في الدنيا والآخرة، تحدث كتاب الله أيضاً عن «أولياء» أهل الحق، الذين يَثْبُتون قلوبهم، ويسددون خطواتهم، ويعينونهم على التزام الحق، والدعوة إليه، وتحمل الأذى في سبيله، حتى لا يحزنوا ولا يخافوا، ويَبَيِّن كتاب الله أن هؤلاء الأولياء الذين يتولون دعاة الحق في الدنيا والآخرة هم من الملائكة المقربين، وأنهم يَنْزِلون عليهم، ويكونون بجانبهم في مختلف المواقف، ولا سيما في المواقف الحرجة التي قد تَزَلُّ فيها الأقدام، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾، أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، أي: ضيافةً وعطاءً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم، قال زيد بن أسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أنهم يُبَشِّرُونَ الداعي إلى الله عند موته، وفي قبره، وحين يُبعث. قال ابن كثير: «وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً».

الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين
في المصحف الكريم

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْجُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَبِیَوْمٍ يُنَادِيهِمْ
أَبْنَىٰ شُرَكَاءِهِمْ قَالُوا أَاِذَا نَكَّ مَاتَنَا مِنْ شَرِيْدٍ ﴿١٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ حِصْحٍ ﴿١٨﴾ لَا يَسْمَعُ
الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلْ عَنْ قَنُوطٍ ﴿١٩﴾
وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا
لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ
لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْبَانِ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ
أَعْرَضَ وَنَبَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٢١﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ
مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢٢﴾ سَنُرِيهِمْ

ءَايَلَتَنَا فِي إِلَافَاقٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ وَأَنَّهُ
الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ
فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ وَأَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ٥٤ ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جِمْ ٥١ عَسَى ٥٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ٥٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٥٤
يَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ٥٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ٥٦ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لِّنَذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبَبٍ فِيهِ فَرِيقٌ
فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٥٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِن يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ٥٨ أِمَّا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُخَيِّرُ
الْمُوتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٩ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٦٠ ۝

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ
 الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
 لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ في سورة فصلت المكية، إلى قوله جلّ علاه: ﴿فِي سُورَةِ الشُّورَى الْمَكِّيَةِ أَيْضاً: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾﴾.

والثمن الأول من هذا الربع، وهو خاتمة سورة فصلت المكية، يتناول بالذكر موضوعات أربعة.

الموضوع الأول: ما ينفرد بعلمه علام الغيوب دون خلقه، من المغيبات.

الموضوع الثاني: ما يكون عليه الإنسان من أحوال مختلفة، ومشاعر متباينة، في ظروف الشدة والرخاء.

الموضوع الثالث: ما يكون عليه حال الذين كفروا بكتاب الله العزيز، من الحيرة والتردد.

الموضوع الرابع: ما وعد به الحق سبحانه وتعالى عند نزول

القرآن، من الحقائق الكونية والنفسية المؤيدة للإيمان، التي سيكشف عنها لبني الإنسان في مستقبل الأزمان.

ففي الموضوع الأول ورد ذكر القرآن للساعة وموعد قيامها، وللثمرات المستورة في أكمامها، وأحمال النساء المستقرة في أرحامها، فالساعة التي يضع الله فيها حداً للحياة على سطح هذا الكوكب الأرضي موكول علمها إلى الله وحده، لا يعلمها أحد سواه، وفي شأن السؤال عنها أجاب رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام قائلاً: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» والشيء الوحيد الذي تناقلته السنة في موضوع الساعة هو التنصيص على بعض «أشراطها»، ووصف بعض العلامات التي تسبقها، مثل ما رواه البخاري في صحيحه في «باب يَقْلُ الرجالُ ويكثر النساء» عن أنس رضي الله عنه قال: «لَأَحَدُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَحْدُثُكُمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزَّنا، وَيَكْثُرَ شَرْبُ الْخَمْرِ، وَيَقْلُ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لْخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقِيَمُ الْوَاحِدُ» قال البخاري: «وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: وَتَرَى الرَّجُلَ الْوَاحِدَ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً، يَلْذُنْ بِهِ مِنْ قَلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ».

وكما أن عِلْمَ الساعة موكول إلى الله دون سواه، فكذلك الثمرات التي هي في باطن النبات قبل أن تخرج وتبرز تُعَدُّ سِرّاً مكتوماً في عالم الغيب لا يستطيع أمهر الزراعيين معرفته على وجه التحقيق قبل أن يُبرزه الله.

ومثل ذلك الحمل قبل ظهوره، لا يستطيع أن يعرفه الرجل ولا المرأة، فالله سبحانه هو المنفرد بعلم مآل النطفة، هل يترتب عليها إخصاب وإنجاب، أم لا يترتب عليها شيء مطلقاً، ومثل ذلك الحمل قبل وضعه، هل سيوضع حياً أو ميتاً، ذكراً أم أنثى، هل سيوضع ليلاً أم نهاراً؟ هل سيوضع اليوم أو غداً؟ لا يعلم أمره على وجه القطع إلا الله وحده، وذلك قوله تعالى في شأن الأمور الثلاثة: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ، إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، وبمثل هذا المعنى ورد قوله تعالى في سورة الأعراف (١٨٧): ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقوله تعالى في سورة الأنعام (٥٩): ﴿وَمَا تَسْقُطُ يَابِسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقوله تعالى في سورة الرعد (٨): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

وفي الموضوع الثاني ورد وصف القرآن لأنانية الإنسان، وما هو عليه من شدة الإلحاح والمبالغة في طلب الخير لنفسه، فهو لا يسأم ولا يمل من دعاء ربه لطلب «الخير»، والمراد «بالخير» هنا المال والصحة وما ناسبهما من المطالب العديدة المؤدية إلى السعادة حسبما يتخيلها الإنسان، كما ورد وصفه باليأس والقنوط عندما يمسه أدنى شر أو أذى، بحيث ينقلب في الحين متذمراً ساخطاً، قلق الفكر، حرج الصدر، ويكثر من الدعاء والابتهاال إلى أقصى حد، حتى إذا كشف الله عنه الضر وأذاقه رحمة من عنده أخذ حينئذ يتبجح ويتكبر، مستعلياً بنفسه، معترساً بمكانته،

مدعيًا أن ما ناله من الخير بعد الشر إنما ناله عن جدارة واستحقاق، وأنه إنما وصل إليه بمقدرته الفائقة، وعبقريته النادرة المثال، وكأنَّ لسان حاله ينفي أن يكون عليه فيما ناله أيُّ فضل لله أو منَّة منه سبحانه، بل إنه ليلجأ به البَلَّة والبطر والغرور إلى حد أن ينسى نعمة الله عليه ويُعرض عنه بالمرة، ويتصرف تصرف من لا يومن بقيام الساعة ولا ينتظرها مطلقاً، وإذا مرَّ بخاطره أن الساعة آتية - على سبيل الفرض عنده والتقدير - فإنه يعلن بكل تبجح وصفاقة وجه أنه حتى في هذه الحالة لن يكون إلَّا منعماً مكرماً، وأنه لن يجد عند ربه إلَّا الحسنَى، لأنه عند نفسه وفي نظره القاصر يتمتع بامتيازات وحصانات خاصة من لدن الله، وهو في تقديره الخاص فوق القانون السماوي والعدل الإلهي، اللذين يسري مفعولهما على بقية الناس، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتُمُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِسْ قَنُوطٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾، ويؤكدده قوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

وفي الموضوع الثالث ورد استفسار القرآن الكريم للكافرين به، ماذا يكون عليه موقفهم عندما يتأكد لهم أنه من عند الله، ويجدون أنفسهم قد ضيعوا فرصة لن تعود، إذ كفروا به وأعرضوا عنه، ويدركون أنهم أخسر الناس صفقة، إذ كانوا أشد الناس

ضلالاً وخبالاً، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِم بَعِيدٍ﴾.

وفي الموضوع الرابع وعد كتاب الله المؤمنين خاصة وبني الإنسان عامة، بأن الحق الذي قامت على أساسه السماوات والأرضون، وقامت على أساسه عقيدة القرآن وشريعته وأخلاقه، سيزداد جلاءً وظهوراً بمرور الأيام، وأن الله تعالى سيرفع الحجاب عن الفكر الإنساني، وسيلهمه أن يكتشف من خفايا الطبيعة وخبايا النفس ما يكون سندهً لذلك الحق، ودعامة للإيمان بخالق الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وقد أنجز الله وعده لبني الإنسان، بمقتضى ما وعد به عند نزول القرآن، فكشف لهم خلال الأربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، ما لم تعرفه البشرية من قبل في عشرات القرون وآلاف السنين، ولا يزال باب الكشف مفتوحاً بإذن الله، وفي كل كشف آية جديدة تدل على صدق كتاب الله. والآن فلنوجز موضوعات الثمن الثاني من هذا الربع، وهو فاتحة «سورة الشورى» المكية:

إن الحديث في فاتحة هذه السورة يتناول بالذكر إثبات الوحي من الله إلى رسوله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ويتناول استغفار الملائكة للمؤمنين في الأرض: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، ويتناول بيان الحكمة في نزول القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾،

ويتناول ضرورة التحاكم إلى الله، عند ظهور الاختلاف بين الناس: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

وفيما بين هذه الموضوعات يزيد كتاب الله معتقدات الشرك تسفيهاً وتفنيداً، كما يزيد عقائد التوحيد بياناً وتأيداً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين
في المصحف الكريم

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ

الَّذِينَ مَا وَصَّي بِهِمْ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا
بِهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا
فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ وَإِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيهِ
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ - اٰمَنْتُ بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ كِتٰبٍ وَاُمِرْتُ لِاَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللّٰهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا اَعْمَلْنَا وَلَكُمْ اَعْمَلْكُمْ لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ لِحُجَّتِهِمْ

دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
 اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكُ
 لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
 أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
 اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾
 مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ
 كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
 مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
 وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا
 يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾
 ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ

حَسَنَةً تَزِدُّ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَتَنَمَّحُ
 اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾
 وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ
 وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتاب الله قاعدة أساسية من القواعد التي قام عليها الإسلام، ألا وهي أن الدين الذي بعث الله به الأنبياء والرسل جيلاً بعد جيل إنما هو في جوهره دين واحد، متّسم بطابع الوحدة والتسلسل عبر القرون، وذلك لأن منبع الدين ومصدر الوحي واحد أزلاً وأبداً، وهو الله تعالى الذي خلق الكون وسنّ لتسييره السنن والنواميس الطبيعية المناسبة، وخلق الإنسان وسنّ لسلوكه السنن والنواميس الأخلاقية الملائمة، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (٧: ٥٤)، وهذه القاعدة الأساسية من قواعد الإسلام هي التي تفسر ما فرضه الله على المسلم من الإيمان بالله وبجميع رسله وجميع كتبه دون تمييز ولا استثناء، حتى أن كفر برسول

واحد أرسله الله، أو كتاب مُنزل من عند الله، يعتبر في دين الإسلام كافراً غير مؤمن، فالمسلم يحترم النبوات والرسالات جميعاً، والمسلم يؤمن بالكتب المنزلة كلها ما دامت محتفظة بنصها الأصلي، لا يستثنى من ذلك شيئاً إلا ما أُدخل على نصوصه «تحريف» أو «تأويل سيء»، مما قام به الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وبفضل هذه العقيدة الأساسية في الإسلام لا يحس المسلم بأي حقد أو ضغينة أو عقدة نفسية نحو بقية الأنبياء والرسل، فضلاً عن أن ينظر بعين النقص إلى مقامهم الرفيع عند الله، جملة أو تفصيلاً.

وكما أكد كتاب الله في هذا السياق معنى الوحدة الاعتقادية والدينية، القائمة بين جميع الأنبياء والرسل، تبعاً لوحدة الواحد الأحد، واهب النبوات والرسالات، الذي نبأهم وأرسلهم إلى خلقه، فإنه حَضَّ المؤمنين جميعاً على حفظ تلك الوحدة الدينية التي تمسك بها الأنبياء والرسل، وأمرهم بصيانتها من عوامل الفرقة والاختلاف.

وهذا التوجيه القرآني - وإن كان موجهاً بالأصالة إلى المسلمين - فإنه يمكن أن يمتد أثره حتى إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل إلى نفس المشركين العرب، ما داموا يدعون أنهم من بقايا ملة إبراهيم، فهؤلاء جميعاً إذا أنصفوا وراجعوا أنفسهم، وعادوا إلى المنبع الأول والصافي للدين الحق، يلتقون جميعاً في نقطة واحدة، ويجتمعون على كلمة سواء، وهي كلمة الإسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ

نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿٤٧﴾

قال ابن كثير في تفسيره: (يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أُولِي الْعِزْمِ، وهم إبراهيم وموسى وعيسى، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى (٣٣: ٧): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد»، أي: أن القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جل جلاله (٤٨: ٥): ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، انتهى ما قاله ابن كثير.

وذكر أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ نبذة مهمة تلقى كثيراً من الأضواء على هذا الموضوع إذ قال: «إن آدم كان أول نبي بغير إشكال، غير أنه لم يكن معه إلا بنوه، ولم تُفرض له الفرائض، ولا شُرِعت له المحارم، وإنما كان

ما عنده تنبيهاً على بعض الأمور، واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء»، ثم قال ابن العربي: «واستقرَّ المَدَى إلى نوح، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسول، ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم، واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملتناً، على لسان أكرم الرسل، نبينا ﷺ، فكان المعنى - أي معنى الآية - أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي: التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والتزلف إليه بما يردُّ القلب والجراحة إليه، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنا، وتحريم الإذية للخلق كيفما كانت، وتحريم الاعتداء على الحيوان كيفما كان، وتحريم اقتحام الدناءات، وما يعود بخرم المُرُوءات، فهذا كله شُرِعَ ديناً واحداً، وملة متحدة، لم يختلف على السنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، أي: اجعلوه قائماً، يريد: دائماً مستمراً، محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه، ولا اضطراب عليه، فمن الخلق مَنْ وَفَّى بذلك، ومنهم مَنْ نَكَثَ به، «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» (٤٨: ١٠)، وَخَتَمَ «ابن العربي» تحليله لهذا الموضوع قائلاً: «واختلفت الشرائع وراء هذا في معان، حسبما أَرَادَهُ اللهُ، مما

اقتضته المصلحة، وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم، والله أعلم.

ثم مضى كتابُ الله يبين السر في موقف العناد الذي يقفه المشركون من الرسول عليه السلام، وأنهم فوجئوا بما اختاره الله له من الرسالة دونهم جميعاً: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

وَبَيَّنَت الآيات الكريمة أن الفرقة التي آل إليها أمر أهل الملل والأديان إنما جاءت بعد العلم بالدين الواحد والملة المتحدة، وأن سبب الفرقة بين الملل ليس نابعاً من أصل الدين الصحيح، وإنما هو ناشئ عن تأثير الأغراض والشهوات، التي سيطرت على أتباع الديانات، فالفرقة من صنع الناس لا من وحي الدين، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، كما بينت الآيات الكريمة أن الشك الذي يوجد عند «أهل الكتاب» ممن عاصروا عهد الرسالة المحمدية، والخيرة التي تتجلى في مواقفهم المتناقضة من الإسلام، يعود الأمر فيهما إلى ما ورثوه عن أسلافهم في الدين، من خلافات واختلافات، أدت بهم إلى الشك في نفس الكتب التي أنزلت عليهم، نظراً لما أصابها من التحريف والتأويل والتدليس، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ﴾.

ويخاطب الحق سبحانه وتعالى رسوله، مُحَصِّناً له من أهواء المشركين، وأهل الكتاب المختلفين المتفرقين، داعياً إياه إلى

التمسك بالدعوة، والقيام بحقها، والاستقامة عليها، مذكراً بجوهر الدعوة وأساسها المتين، ألا وهو الإيمان بالله وبكتبه، وإقامة العدل بين خلقه، ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ. اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ﴾، وهذا الخطاب موجه إلى كل مؤمن ومؤمنة، ولا سيما ولاية المسلمين وعلماءهم، وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ معناه أننا برآء من كل ما خالف دعوة الإسلام، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (١٠: ٤١): ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن الساعة وموقف الذين يؤمنون بها، والذين يمارون فيها، ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، ووصفت ما ينتظر الظالمين من عذاب مقيم، وما ينتظر الصالحين من عباده من فضل كبير، وأكدت أن الرسول عليه السلام لا يقبلُ على أداء رسالته أي أجر، وإنما يريد أن تترك له حرية الدعوة إلى الله، حتى لا تتأزم العلاقات بينه وبين ذوي قُرباه، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

روى البخاري في صحيحه وانفرد به، بسنده إلى عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال سعيد بن جبّير: «قُرْبَى آل محمد»، فقال ابن عباس: «عجلت». إن النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا

كان له فيهم قرابة، فقال: «إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»، ونَبَّه الحافظ ابن كثير في تفسيره إلى أن هذه الآية مَكِيَّة لا مدنية، وأن فاطمة الزهراء رضي الله عنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنه إلا بعد غزوة بدر، من السنة الثانية من الهجرة، فهذه الآية نزلت قبل زواجها وولادتها، ثم تابع ابن كثير كلامه قائلاً بالحرف الواحد: «والحق تفسير هذه الآية بما فسر بها به خبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه كما رواه عنه البخاري، وختم ابن كثير كلامه قائلاً: «ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجد على وجه الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية، الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعليّ وأهل بيته وذريته، رضي الله عنه أجمعين».

الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين
في المصحف الكريم

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ
بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ وَبِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ
الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٧٨﴾
وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ
بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨١﴾
وَمَنْ أَيْدِيهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٨٢﴾ إِنْ يَشَاءْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٨٣﴾ أَوْ
يُوقِفُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٨٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ
فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍّ ﴿٨٥﴾ فَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ
الْدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٨٦﴾

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَسْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا مِنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ ابْتَدَعَ ظُلْمًا عَلَى ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلِ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَبَرِيَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفٍ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّجْلَلٍ

يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ تُكْيِيرٍ ﴿٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَدْ أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِتَارِخَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ مِمَّا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا، وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا، وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِمًا، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

في بداية هذا الربع يقرر كتاب الله حقيقة كونية طالما غفلت عنها الأنظار، ألا وهي أن الحق سبحانه وتعالى منذ اقتضت مشيئته أن يتكفل برزق الإنسان اقتضت حكمته أن لا يرزقه إلا بحساب، وبقدر محدود، وأن لا يمنحه كل ما يطمع فيه، إذ أن أنانية الإنسان الجامحة، وميله إلى التبذير والإسراف، لا يحدهما شيء، فالإنسان كائن ضعيف تستهويه الملذات، وتغريه المغريات، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٤: ٢٨)، وقلما يعرف التوازن والاعتدال في سلوكه ومطالبه، بل إنه متى استغنى طغى وبغى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٩٦: ٦)، وفقد توازنه،

ونسي ربه، واستغل عطاء الله الواسع في المزيد من المعاصي والسيئات، لا في المزيد من الحسنات والطاعات، والله تعالى حين يَقْدِرُ رزق الإنسان ولا يبسطه له إلى أقصى الحدود إنما يتصرف في ملكه عن خبرة تامة بهذا الإنسان الذي خلقه من العدم، وعن علم محيط بخلجات نفسه، وهواجس جسده، ولأجل أن لا ينقلب الإنسان طاعياً باغياً مطلق العنان في هذا الكون بالمرة جعل الحق سبحانه وتعالى مقاليد رزق الإنسان بيده، واضطر الإنسان لأن يبقى معلقاً بين الخوف والرجاء دائماً، ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يُشَاءُ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة لا يَسْتَعْرِبُ أحد أن يسمع صِيْحَاتِ الخطر والإنذار، التي تطلقها المنظمات الدولية المختلفة، بقرب مجاعة عالمية قد تكتسح العالم، وتكون كارثة كبرى على البشرية، فالشعور بهذا الخطر قائم لا محالة بشكل أو آخر، ومن مقتضيات الحكمة الإلهية أن يكون شَبَحُ هذا الخطر ماثلاً للأنظار، حتى يتذكر الإنسان - تحت تأثيره - رسالته الحقيقية في هذا الكون، ويعود إلى حظيرة الاعتدال والتوازن في مطالبه وشهواته قدر الإمكان، وكما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يُشَاءُ﴾، قال في آية سابقة عند الكلام على خلق الأرض: ﴿وَبَرَكْ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، ثم عَقَّبَ على ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤١: ١٢).

وبعد تقرير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكونية أتبعها

كتاب الله بالتعقيب عليها، مبيِّناً أن لطف الله بالإنسان، ورحمته إياه، لن يُمسكَّهُما عن خلقه كلما احتاجوا إليهما، وتوقفوا عليهما، إذ أن رحمته وسعت كل شيء، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وفي سياق هذه الآية جاءت كلمة «الغَيْث» بالخصوص، بدلاً من كلمة «المطر» التي هي أكثر استعمالاً وشيوعاً، إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى متكفل بأن يغيث عباده ويرحمهم بعد اليأس والقنوط، فيُنجدهم بإنزال المطر كلما بسطوا أكف الضراعة إليه، سائلين الغوث والنجدة من خالقهم ورازقهم على الدوام، على غرار قوله تعالى في سورة الروم: (٤٨ - ٤٩) ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ، فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف لخلقه إلا بما ينفعهم دنيا وأخرى، فهو «وليهم» الحق، الذي يتولاهم بفضله وإحسانه، والذي يجب أن يتولَّوه بالسعي إلى مرضاته، والانقياد لأوامره، وهو سبحانه «الحميد» أي المحمود العاقبة في جميع ما يُقدِّره ويفعله، لتوجيه خلقه ومصلحتهم.

ومضى كتاب الله يتحدث عن آيات الله الباهرة في كونه الفسيح، وفي الطليعة: خلق السماوات والأرض وما بثه سبحانه في العالم العلوي والعالم السفلي من كائنات وأحياء لا يحصيها عد، وقد مضى على الإنسان منذ ظهوره على سطح الأرض مئات

الآلاف من السنين، وهو لا يزال عاجزاً عن فهم هذا النظام العجيب، مشدوهاً أمام أسرارهِ وعجائبهِ.

ويُبينُ كتابُ الله أن الخالق الذي خلق هذه الكائنات والأحياء، وبثها ووزعها في السماوات والأرض قادر على أن يجمعها جميعاً في صعيد واحد متى شاء، وفي ذلك مظهر آخر من مظاهر قدرته المبسوطة على كل شيء، ومظاهر علمه المحيط بكل شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، ولفظ «دابة» في هذه الآية حملة ابن كثير على ما يشمل الملائكة والجن والإنس وباقي الحيوانات، بخلاف لفظ «دابة» الوارد في قوله تعالى (٣٥: ٤٥): ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، فإنَّ معناه قاصرٌ على ما يدبُّ من الكائنات الحية فوق ظهر الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، يشير إلى ما يأمر به الحق سبحانه وتعالى عند قيام الساعة من «جمع المخلوقات» كلها عند النشر والحشر والحساب في عرصات القيامة، وفقاً لقوله تعالى فيما سبق من هذه السورة (٧): ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، ولقوله تعالى في سورة التغابن (٩): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، ولقوله تعالى في سورة الكهف (٩٩): ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ولقوله تعالى في سورة آل عمران (٩): ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، إِنَّ اللَّهَ

لَا يُخْلِفُ الْبِعَادَ ﴿٥٠﴾، ولقوله تعالى في سورة الواقعة (٥٠): ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ولا يصح حمل هذه الآية على «رواد الفضاء» كما ارتأه بعضهم، فإن ذلك تكلف لا تطاوعه هذه الآية ولا الآيات الأخرى التي تفسر معناها أوضح تفسير.

وتناولت آيات هذا الربع الحديث عن قدرة الله القاهرة في تحريك الرياح وتسكينها، وما لها من تأثير بالغ على نشاط الإنسان في عالم الملاحة البحرية، والحديث عن «الذين يجادلون في آيات الله»، والحديث عن «الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»، والحديث عن «الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق»، والحديث عن الخاسرين «الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة». كما تناولت الآيات ذكر «الشورى» بين المسلمين، ومن أجل ذلك أطلق على هذه السورة اسم «سورة الشورى» تنوياً بها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، ففي هذه الآية الكريمة وصف الله المؤمنين حقاً بالأوصاف الكاشفة عن حقيقتهم، وبالنوع المنبثقة عن عقيدتهم، فهم قبل كل شيء مجتنبون للآثام والفواحش، بحيث لا يقربونها، ملتزمون للاعتدال والرضى في علاقاتهم، مالم يكون لأنفسهم عند الغضب، سالمون من الحقد على غيرهم، وهم لا يتخلفون عن الاستجابة لأوامر الله والعمل

بتوجيهاته في مختلف الشؤون، وهم قوامون بالصلاة التي هي عماد الدين، يؤدونها ويؤدون لها حقها، فتعكس آثارها الظاهرة والباطنة في حياتهم اليومية، وهم كرماء الأيدي لا يخلون بالإحسان والإنفاق مما رزقهم الله، في وجوه الخير وسبيل المعروف، وهم أعزاء النفوس، لا يتحملون من خصوم الحق أي ضيم أو هوان، بل يتتصفون منهم، ويتتصرون للحق وبالحق عليهم، وهم إلى جانب هذا كله، وفي هذا الجو الأخلاقي السليم، والروحي الطاهر، يتشاورون فيما بينهم في شؤونهم العامة، بنفوس طاهرة، وقلوب صافية، ولا غرض لهم من الشورى إلا تحقيق أهداف الإسلام السامية، ولأمر ما أدمجت الآية الكريمة صفة «التشاور بين المسلمين» ضمن مجموعة متناسقة من الصفات الضرورية، التي لا غنى للإسلام عنها، والتي لا يتحقق مدلوله بدونها، ولم تأت بصفة «الشورى» وحدها مجردة عن بقية الصفات، ولا منفصلة عن بقية الشروط، لأن الشورى في نظر الإسلام لا توتي أكلها، ولا تؤدي الغرض منها، إلا إذا كانت تحيطها كافة الضمانات الدينية والأخلاقية والنفسية المطلوبة في أهل الشورى، فهذه الآية الكريمة تعطي للمسلمين التوجيه الكافي، وتضع أيديهم على الصفات الضرورية، والمؤهلات البارزة، المطلوبة فيمن يختارونه ليكون من أهل الشورى، ومما تجب ملاحظته في هذا المقام - ونحن في سورة الشورى المكية - أن الشورى في الإسلام كانت من عقائده الأساسية التي برز بها وهو لا يزال في نفس مكة، والإسلام إذ ذاك لم يتمكن بعد من إقامة دولته الأولى بالمدينة المنورة، فعقيدة

الشورى وعقيدة التوحيد برزتاً في الإسلام في وقت واحد، وهما من خصائص المجتمع الإسلامي ومميزات الدولة الإسلامية منذ نشأتها الأولى. قال القاضي أبو بكر «ابن العربي» المعافري عند تفسيره لهذه الآية: «الشورى ألفة للجماعة، ومُسَبَّر للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هتوا. ونقل عن بعض العقلاء أنه قال: ما أخطأت قط: إذا خزبني أمر شاورت قومي، ففعلت الذي يرون، فإن أصبت فهم المصليون، وإن أخطأت فهم المخطئون».

وفي ختام هذا الربع تناولت الآيات الكريمة موضوعاً قوي الحساسية بالنسبة للنسل والذرية، وذلك قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا. إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، وبديهي أن موضوع «الذرية» له علاقة وثيقة بموضوع «الرزق» الذي أشارت إليه أول آية في هذا الربع: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، فكما أن الله يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ من الرزق، كذلك يَهَبُ من يشاء من الذرية أو لا يهب. قال ابن كثير في تفسيره تعليقاً على مضمون هذه الآية: «فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعهم هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾، أي على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك»، ثم مضى ابن كثير يقول: «وهذا المقام شبيه بمقام آخر،

حيث خلق الله الخلق على أربعة أقسام، فآدم عليه السلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وعيسى عليه السلام مخلوق من أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام مخلوقون من ذكر وأنثى، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين
في المصحف الكريم

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ وَعَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ
عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ الْأَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جَمٌ ﴿٥٤﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٥٥﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٥٧﴾
أَفَضْرِبْ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥٨﴾
وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْبًى مَثَلُ

الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
 خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
 مِهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝
 وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ
 تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
 الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ
 تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
 الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا
 لَمُنْقَلِبُونَ ۝ وَجَعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ
 مُّبِينٌ ۝ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفِيَكُمْ بِالْبَنِينَ ۝
 وَإِذَا ابْشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ
 مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوْ مَنْ يَنْشِؤُنَا فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ
 فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ
 هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ
 شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
 مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ أَمْ اتَّيْنَاهُمْ

كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
 آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثِرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
 وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
 إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثِرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ويدأبته قوله تعالى في سورة الشورى المكية: ﴿وَمَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، ونهايته قوله تعالى في سورة الزخرف المكية أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

يتحدث كتاب الله في مطلع هذا الربع عن مقامات الوحي الذي يتلقاه الأنبياء والرسل عن الله عز وجل، وقد ثبت في كتب السنة النبوية عن رسول الله ﷺ أنه تلقى الوحي عن ربه من أربعة طرق:

الطريق الأول: أن يُلقِي المَلَكُ في رُوعِهِ وقلبه ما يوحى إليه، من غير أن يرى الملك، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

الطريق الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صَلَصلة الجرس، وكان هذا النوع هو أشد أنواع الوحي عليه، حتى أن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرقاً في اليوم الشديد البرد.

الطريق الثالث: أن يتمثل له المَلَكُ رَجُلًا فيخاطبه حتى يَعيَ عنه ما يقول.

الطريق الرابع: أن يرى المَلَكُ في صورته التي خُلِقَ عليها، فيوحي إليه ما يشاء اللّهُ أن يوحيه. قال ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»: (وقد وقع هذا له مرتين، وورد ذكره في سورة النجم).

وهذا الموضوع موضوع الوحي من الله إلى أنبيائه ورسله هو ما تضمنه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾،

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ يندرج تحته الطريق الأول والطريق الثاني للوحي، كما عرفهما رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، يندرج تحته ما أوحاه الله إلى موسى الكليم، بعد تكليمه وحجبه عن الرؤية، رغماً عن سؤاله لها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يندرج تحته الطريق الثالث والطريق الرابع للوحي، كما وصفهما الرسول عليه السلام، وكما وقع لكثير من الأنبياء والرسل، حيث

نزل عليهم بالوحي جبريل وغيره من الملائكة المقربين، بإذن الله العلي الحكيم.

وانتقل كتاب الله للحديث عن الوحي بالقرآن إلى الرسول عليه السلام، وعن مبلغ النعمة التي أنعم الله بها على نبيه، عندما اختاره لختم الرسالة من بين خلقه، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، ففي هذه الآية وصف للقرآن بأنه «روح» من عند الله، أنزله لإحياء نفوس الأشباح من البشر، الذين فقدوا مقومات الحياة، وفي هذه الآية وصف للقرآن بأنه «نور» من عند الله، أنزله لهداية الضالين الحيارى من مختلف الأمم والملل.

وكم كان هذا الوصف صادقاً، وكم كانت هذه الحقيقة أمراً واقعياً، بالنسبة للبشرية جمعاء، فمنذ نزل القرآن ودخلت البشرية تحت رايته، عرفت من ألوان التقدم والازدهار والحضارة ما لم يسبق له مثيل في آلاف السنين التي سبقت نزول القرآن، ولا يزال موكب العلم والكشف عن حقائق الكون يواصل طريقه بإذن من الله، منذ فتح له القرآن السبيل، ومهد له الطريق.

وأكد كتاب الله مرة أخرى ما في اتباع رسالة خاتم الرسل من ضمانات حقيقية لصلاح الخلق ورشادهم، حيث أن هذا الرسول إنما يهدي الناس إلى النهج القويم الذي رسمه لهم، وارتضاه لسلوكهم، خالقهم وخالق الكون كله، وإذا كان الكون كله مطواعاً

وفي قبضة الله، لَا يَتَخَلَّفُ عن إرادته ورضاه، فيتَّبَع النواميس والسنن التي رسمها له دون تردد ولا اعتراض، فَأُخْرِجَ بِالْإِنْسَانِ الذي كرمه الله بالعقل، وبالاخلاق عنه في الأرض، وبحمل الأمانة التي أشفقت منها بقية المخلوقات، أن يكون أكثر طواعية لل노واميس الخلقية، وأشد التزاماً للتعاليم الإلهية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

وهنا تُؤدِّعُنا «سورة الشورى» المكية، لِنَتَقَلَّ منها إلى «سورة الزخرف» المكية أيضاً، وإنما سميت «سورة الزخرف» أخذاً من قوله تعالى في آيتها الخامسة والثلاثين: ﴿وَسُوراً عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ وَزُخْرُفًا، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ومعنى «الزخرف»: الزينة من كل شيء، وقد اتجهت الآيات الأولى من هذه السورة إلى مواصلة الحديث عن كتاب الله، وعن تعدد مزاياه، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمْدٌ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾، وها هنا بَيَّنَّ الحق سبحانه وتعالى منزلة كتابه في الملأ الأعلى، ليقدره ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، أسوة بالملائكة المقربين. والمراد «بأَمِّ الكتاب» اللوح المحفوظ، كما فسره ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما، ويقولون «لَعَلِيَّ» أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ويقولون «حكيم» أي مُحَكَّم بريء من اللبس والزيغ والتناقض.

وفي معنى التنويه بكتاب الله وبيان عظيم مكانته جاء أيضاً

قوله تعالى (٨٠: ١١): ﴿كَأَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، وجاء قوله تعالى (٥٦: ٧٧ - ٨٠): ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن كثير: «ومن هاتين الآيتين استنبط العلماء أن المُحَدِّث لا يمس المصحف، وإذا كان الملائكة يعظمون القرآن في الملاء الأعلى، فأهل الأرض أولى بذلك وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم».

ثم اتجه كتاب الله إلى خطاب المنحرفين عن الحق من المشركين والكافرين، مستفسراً لهم: هل من الخير أن يتركهم الحق سبحانه وتعالى هملاً، فلا يبعث إليهم الرسل، ولا يُنزل عليهم الكتب: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٧٥: ٣٦)، وهل من مصلحة الإنسانية ونفعها أن تقف الدعوة وهي في حالة جَزْر لا في حالة مَدٍّ، وأن تتعطل حكمة الله البالغة في توالي النبوات والرسالات على الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، وكأن الله تعالى يقول: «إِنَّ رُبُّوبِيَّتِي لَكُمْ تَقْتَضِي أَنْ أُمِدَّكُمْ بِرَحْمَتِي وَإِحْسَنِي، وَلَوْ كُنْتُمْ مُّسْرِفِينَ ظَالِمِينَ مُّنْحَرِفِينَ»، وهذا هو السر في مواصلة الأنبياء والرسل للدعوة الإلهية، حتى يتحقق الهدف منها وهو إرشاد الخلق وإصلاحهم جميعاً، أو رَشَاد فريق منهم وصلاحه على الأقل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٤: ١٦٥). فمن لطف الله ورحمته بخلقه أن لا يترك دعاءهم

إلى الخير، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر رسله بذلك، ليهتدي من يريد الهدى، ولتقوم الحجة على من يريد الضلال. قال قتادة: «والله لو أن هذا القرآن رُفِعَ حين رُدَّتْهُ أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، فكرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك».

واهتمت الآيات الباقية من هذا الربع بالحديث عن موقف أعداء الرسالات عبر القرون والأجيال، فقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍِّّ فِي الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وبالحديث عن حقائق الإيمان وعقائد التوحيد التي يدعو إليها كتاب الله، مؤيدةً بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا، وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا، وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في هذا السياق. كما اهتمت نفس الآيات بوصف معتقدات الوثنية وخرافات الجاهلية، وصفاً مصحوباً بتسفيه دُعائها وأتباعها، وهدم الدعائم المنهارة التي قامت على أساسها، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، - ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ، أ. شَهِدُوا خَلْقَهُمْ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، - ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي على دين مشترك ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

قُلْ أُولَئِكَ حُتِّبُوا بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا عَمَّا
أُرْسِلْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٢١﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ
عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي
بِرَأْيٍ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا إِلَٰهِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٤﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ مَتَّعْتُ
هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ
الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ
هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٨﴾ أَهَمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْلَا

أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
 لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٢﴾
 وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ ﴿٢٣﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ
 كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
 لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ
 شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
 وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيُحْسِنُ الْقَوْلَ ﴿٢٧﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ
 الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٨﴾ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ
 الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ فَمَا نَنْذَرُكَ
 بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٣٠﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِينَ وَعَدْنَا لَهُمْ فَإِنَّا
 عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٣١﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
 عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّهُ وَلِذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ
 وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
 أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٧﴾
 وَمَنْزِلِهِمْ مِنْ آيَةِ الْإِلَهِ أَكْبَرُ مِنْ خَشْيَتِهِمْ وَآخِذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّعِجُ لَتَأْرَبَّنَّ بِمَا
 عِندَ عِنْدِكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ
 إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٢٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُ
 الْإِنْسَ فِي مُلْكٍ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَّ
 أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
 وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٢٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ
 أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ وَ
 فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا أَتَيْنَاهَا
 أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ وَأَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا
 وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا
 قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ خَيْرًا لَّمْ كُنَّا
 هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
 عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٩﴾
 وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٣٠﴾

وَأَنَّهُ وَلِعِلَّكُمْ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٢﴾

الربع الأول من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع الحديث في هذا اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ أُولُوْ جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

بعدما أشارت الآيات الكريمة في نهاية الربع الماضي إلى ما اعتاده خصوم الرسالات الإلهية من التكذيب بها، والتصدي لمحاربتها بالجهل الفاضح والتقليد الأعمى، منذ فجر الحياة، وبعدما أشارت إلى وقوف مشركي العرب، من خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، موقفاً مماثلاً لموقف من سبقهم إزاء بقية الرسل، اتجه خطاب الله في بداية هذا الربع إلى نبيه ﷺ، ملقناً إياه سؤالاً وجيهاً، موجهاً إلى مشركي قريش، المعتمسين بالتقاليد البالية، والمتسترين وراء تقديس ما كان عليه الآباء والأجداد، وهكذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُولُوْ جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾، أي هل من المنطق والعقل ن تتبعوا التقاليد الفاسدة،

والمعتقدات الباطلة، لمجرد أن آباءكم اتبعوها وآمنوا بها، ولو كان الذي جئتكم به هو أفضل وأرشد، وأحق وأصدق، مما وجدتم عليه آباءكم؟ أليس من الحكمة والتبصر في العواقب أن تتأملوا فيما أعرضه عليكم، وأن تقارنوا بينه وبين ما وجدتم عليه آباءكم، لتهدوا بعد الضلال، وتؤمنوا بعد الكفر.

ثم تشير الآيات الكريمة مرة أخرى إلى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع أبيه وقومه، وما كان له من صراع عنيف معهم، من أجل إحقاق التوحيد الحق، وإبطال الشرك الباطل، وفي ذلك رد صريح على ما يدعيه مشركو العرب لأنفسهم، من كونهم على ملة أبيهم إبراهيم، إذ ملته الحقيقية هي ملة التوحيد لا ملة الشرك، وعقيدة التوحيد هي التي أوصى بها إبراهيم بنيه، وهي التي حملها من أبنائه وعقبه: موسى، وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى في هذا السياق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن عهد «الفترة» التي مرت بجزيرة العرب، دون أن يُبْعَث فيها نبي أو رسول، وأن الله لم يؤاخذ المشركين خلال تلك الفترة بما ارتكبوه من ذنوب، وبما اعتقدوه من ضلالات، بل إنه - تفضلاً منه وكرماً - قد أمهلهم، و«مَتَّعَهُمْ وَآبَاءَهُمْ»، في انتظار حلول الوقت الذي تقتضي الحكمة الإلهية أن تبرز فيه الرسالة المحمدية، وها هي تلك الرسالة قد حان

موعدها لإخراج المشركين من الظلمات إلى النور، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

غير أن مشركي العرب، إمعاناً منهم في الشقاق والعناد، واسوة بمن سبقهم من خصوم الرسالات المكذبين بالرسول، بدلاً من أن يُقبلوا على اعتناق الحق، ويعتزلوا الباطل، وبدلاً من أن ينتقلوا إلى دين التوحيد الخالص، ويتبنوا معتقدات الشرك، أخذوا يواجهون خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام بمثل ما واجه به فرعون وقومه موسى الكليم، وكما وصف فرعون موسى بأنه «ساحر» وادعى أن دعوته إنما هي مجرد «سحر» ها هم مشركو قريش يرددون نفس الاتهام، ويكررون نفس النغمة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾، على غرار ما حكاه كتاب الله عن فرعون وقومه في نفس هذا الربع وهم يخاطبون موسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ (٤٩).

ثم يُبرز كتاب الله ما انطوى عليه تكذيب مشركي قريش للرسول عليه السلام من اعتبارات وأسباب سياسية ومادية، فهم بالرغم من كونهم لا ينكرون شرف مَحْتَدِ الرسول، وكونه «خياراً من خيار»، نسباً وحسباً، إلا أنهم يرون أنه لا يتمتع بزعامة قبلية، ولا برياسة زمنية، وإذن فليس هناك ما يؤهله في نظرهم لحمل الرسالة، وهم يرون أنه إذا كان ولا بد من إرسال رسول إليهم، فالأولى أن يكون هذا الرسول أعظم رجل في مكة أو في الطائف

عصبية ونفوذاً، طبقاً «لاعتبارات الجاهلية» الخاصة، وذلك ما يحكيه عنهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وكأنَّ مشركي قريش كانوا بهذه الاعتبارات ينظرون إلى الموقف الذي وقفه قبلهم فرعون من موسى، عندما أخذ يحطُّ من مقامه، مدعياً أنه غير أهل للرسالة، لأنه لا سلطان له ولا مال، ولا يلبس مثله أسورة من ذهب، وذلك ما حكاه كتاب الله عن فرعون في هذا الريع نفسه، إذ قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَهَٰذِهِ الْإِنهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي، أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ، وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٥٣).

لكنَّ كتاب الله رد على المشركين ادعاءهم، مبيناً أن اعتباراتهم الواهية ما بين مادية وسياسية، لا عبرة بها عند الله، بالنسبة إلى النبوة والرسالة، وأن الله تعالى هو الذي يتولى اختيار الأنبياء والرسل، بمحض مشيئته، وأنه يختارهم لحكمة سامية هو المنفرد بعلمها قبل ظهورها للناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟﴾، إشارة إلى أن النبوة والرسالة مظهر من مظاهر رحمة الله، وأنه يختصُّ برحمته من يشاء كما يشاء، وأنه هو الذي «يعلم حيث يجعل رسالاته» دون بقية الخلق، فالرسالة عطية إلهية مجردة، واختيار إلهي صرف، بحيث لا ينفع فيها التمني، ولا تنال بالسعي والاكْتِسَاب، ولا بالاقتراح والترشيح من الأحاب والأصحاب.

وفي هذا السياق، رفع كتاب الله الستار عن حقيقة اجتماعية واقعية لها تأثير في نظام المجتمع البشري، وما يلزم أن يكون عليه من تعايش وتعاون وتكامل، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: قسمنا لكل إنسان حظه في العيش، من المطعم والمشرب والسكن وما يتوقف عليه من المنافع، وأذننا له في تناوله، على أن يسلك في تناوله الطرق المشروعة، حتى تكون قسمته حلالاً طيباً، ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، أي: أن الله تعالى فاوت بين خلقه، فيما وهبهم من العقول والفهوم والقوى الظاهرة والباطنة، والاستعدادات المختلفة، والميول المتعددة، فسلك بعضهم طريقاً، وسلك بعضهم طريقاً آخر، إذ لم يكونوا في درجة واحدة من تلك الهبات، وبذلك تنوعت أعمالهم ومكاسبهم، واحتاج بعضهم إلى ما عند البعض الآخر، وأصبح كل فريق منهم متوقفاً على خبرة الآخر ومعونته، مسخراً لخدمته، وذلك لخير المجتمع كله، وخدمة الصالح العام، وهذه هي الحكمة الإلهية من وراء التفاوت الذي جعله الله بين خلقه ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا﴾، كما قال تعالى، وليس المراد أن فريقاً يعتبر «أعلى» وفريقاً يعتبر «أدنى»، فلا طبّقة في الإسلام، وكلمة «سُخْرِيًّا» الواردة في هذه الآية من «التسخير» بالمعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣١: ٢٠)، لا من «السُّخْرِيَّة» بمعنى الاستهزاء، الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ (١١: ٣٨)، قال الإمام القشيري: «لو كانت المقادير متساوية

لتعطلت المعاش، ولبقي كلُّ عند حاله».

وليرِيحَ كتابُ الله ضمير الرسول من كل قلق يساوره، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ولم يستجب له في الحين «الصُّمُّ» الذين لا يسمعون، و«العُمي» الذين لا يهتدون، خاطبه ربه قائلاً: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾، وكأنه يذكره بخطابه الآخر: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (١٣: ٤٠)، وبين كتابُ الله أن الحق سبحانه وتعالى قادر على الانتقام من خصوم الرسالة، حتى لو انقطعت عنهم الرسالة، بحلول أجل الرسول، وأن تملصهم من الاستجابة لها لا يغنيهم شيئاً، كما أنه سبحانه قادر على أن يطيل حياة رسوله حتى يرى رأي العين ما يصيبهم من هزيمة وخذلان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾.

وفي هذه الغمرة من غمرات الكفاح ضد الشرك والمشركين يتوجه كتاب الله إلى الرسول عليه السلام مخاطباً إياه، وموصياً له بالثبات على ما جاء به من عند الله، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، وهذه دعوة إلى المزيد من الثبات والصمود، وعدم التبرم والضجر، والتصلب في الحق والدفاع عنه إلى آخر رفق. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، تأكيداً لما عليه الرسول من ثبات في الفؤاد، ورسوخ في الاعتقاد، فكتاب الله هو المُفْضِي إلى صراط الله المستقيم، والموصِّل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وهذا

الخطاب موجه أيضاً بالتَّبَع إلى كل مسلم ومسلمة في القديم والحديث.

وإِمْعَاناً في تكريم الرسول والرسالة، وإِنْعَاماً عليه بأعلى درجات التوقير والجلالة، خاطبه ربه قائلاً: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وكلمة «الذِّكْر» هنا تحتمل معنيين لا تعارض بينهما، فكتاب الله يتضمن تذكير الرسول وتذكير عشيرته الأقربين، كما يتضمن تذكير الناس أجمعين، مصداقاً لقوله تعالى (٢١: ١٠): ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكتاب الله في نفس الوقت هو شرف للرسول الذي اصطفاه الله لرسالته، وشرف لقومه ولغته، وشرف لمجموع أمته، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٩٤: ٤)، ولما كان السابقون الأولون أفهم الناس لكتاب الله كانوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، أي: سوف تُسألون عن هذا القرآن: هل قمتم بحقه، وشكرتم الله على أن خصكم به؟ ومن هنا كان فهم اللسان العربي المبين، أكبر عون على فهم الدين، والتمسك به عن بينة ويقين، فهذه الآية الكريمة عند نزولها تنبأت بما سيؤول إليه أمر رسالة الإسلام التي حملها إلى الخلق رسول الهدى والحق، وأن هذه الرسالة سيكون لها وله بفضلها، ذكر خالد في العالمين، وسيستمر هذا الذكر العاطر إلى يوم الدين: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٣
إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ١٤
فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ ١٥ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ
تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٦ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ١٧ يَعْبَادِي لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ١٨ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ١٩ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ٢٠ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ٢١ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾
 إِنَّ الْجَحِيمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ
 وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ
 الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ
 مَكِيدُونَ ﴿٨١﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٨٢﴾
 أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٨٣﴾ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ
 وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٤﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ
 وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨٥﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ
 الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٦﴾ فَذَرَهُمْ يَحْزُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
 يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٧﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي
 الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَبَرَّكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ
 إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
 لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٢﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
جَمَّةٌ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④
أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ⑦ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨ فَارْتَقِبْ يَوْمَ
تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪
رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫ أَلَيْسَ لَهُمُ الذِّكْرَى
وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا
مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
عَائِدُونَ ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ⑯
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ⑰
أَنِ ادُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ⑱ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى
اللَّهِ إِنِّي أَنَا إِلَهُكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⑲ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ وَ
أَن تَرْجُمُونِي ⑳ وَإِن لَّمْ تَوْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِي ㉑ فَدَارَبَهُمْ أَن

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٣٢﴾ فَاسْرِ عِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٣٣﴾ وَاتْرَكِ
الْبَحْرَ هَؤُلَاءِ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٤﴾

الربع الثاني من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في «سورة الزخرف» المكية: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، ونهايته قوله تعالى في «سورة الدخان» المكية أيضاً: ﴿وَاتْرِكْ الْبَئْرَ رَهْوًا، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

في الآيات الأخيرة من الربع الماضي جرى الحديث عن عيسى بن مريم عليهما السلام، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾، وذلك في سياق الرد على المشركين الذين أرادوا أن يساوا بينه وبين معبوداتهم من الأوثان والأصنام، نظراً لأن النصارى يتوجهون إليه بالعبادة كما يتوجهون هم بها إلى معبوداتهم، وفي بداية هذا الربع جاءت تنمة الرد عليهم، وإبطال قياسهم الفاسد، فقد نقلت كتب السيرة أن مشركي قريش هالهم ما تلاه رسول الله ﷺ أمامهم من قوله تعالى في خطابه لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿ (٢١ : ٩٨) ، إذ إن مضمون هذه الآية يقتضي أن المشركين وجميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله سيكونون في جهنم، فأورد المشركون على رسول الله ﷺ «إشكالاً» بما يقوم به النصارى من عبادة لعيسى بن مريم، وسأله هل سيكون عيسى بن مريم أيضاً في جهنم كما تكون فيها أصنام المشركين وأوثانهم التي يعبدونها من دون الله، هذا وهم يعلمون مُسَبِّقاً أن عيسى بن مريم كان رسولاً ولم يكن صنماً، لكنهم أرادوا أن يتقلدوا من هذا القياس الفاسد - لأنه قياس مع وجود الفارق - إلى أن آلهتهم ومعبوداتهم لن تكون في النار، ما دام عيسى بن مريم لا يدخل النار، وهو في نظرهم ليس خيراً من آلهتهم، ﴿ وَقَالُوا ءَأَلَتْنَا خَيْرًا أَمْ هُوَ ﴾، فغرضهم في الحقيقة هو الجدل والمشاكسة، لا الوصول إلى جوهر الحق في الموضوع: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾، وقد كانوا ينتظرون من رسول الله أن يقول لهم: إن آلهتكم خير «فيكون ذلك إقراراً لهم على عبادتها» أو يقول: «إن عيسى خير من آلهتكم» فيكون إقراراً منه بأن عيسى أهل للعبادة، أو أن ينفي «الخيرية» عنهم جميعاً، وذلك طعن في عيسى، فكان فحوى جواب النبي ﷺ: «إن عيسى خير من آلهتكم، ولكنه لا يستحق أن «يعبد». وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾.

وهكذا تولي كتاب الله إبطال قياسهم لعيسى بن مريم على آلهتهم، وبين أن الدعوة التي دعا إليها عيسى النصارى كانت

قاصرة على إفراد الله بالعبادة، والاعتراف له بالعبودية، والتعريف بالوحيته ووحدانيته المطلقة دون سواه، فهو لم يدع أحداً من أتباعه لا إلى عبادته ولا إلى تأليهه، ولا إلى اعتباره ابناً للإله، كما ادعاه النصارى المبطلون، وذلك قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَالْأَبْيَنِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ على غرار ما جاء في آية أخرى حكاية عن عيسى ابن مريم (٥: ١١٧): ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم عَقَبَ كتاب الله على هذا الرد المفحم الذي أبطل شبهة المشركين، موضحاً مصدر العقائد الباطلة التي انتشرت عن المسيح بين فرق النصارى المختلفة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ إشارة إلى الشيع والمذاهب والفرق التي انقسمت إليها النصرانية بعد عيسى عليه السلام، والتي اخترعت بمحض خيالها عقيدة «المسيح الإله»، أو «المسيح ابن الله»، وما شابههما من المعتقدات الزائفة، التي هي «ظلم في حق الله» - إذ يصدق على معتقديها أنهم ما قَدَرُوا الله حق قدره - «وظلم في حق المسيح»، لأنه لم يكن سوى عبدٍ لِلَّهِ، فغالى فيه أتباعه ورفعوه إلى مرتبة الإله، وهذا الظلم الصارخ هو الذي يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿فَوَيْلٌ

لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ عقب الإشارة لاختلاف
الفرق والمذاهب النصرانية، التي تضمنها قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾.

وأشار كتاب الله في هذا السياق إلى ما يقوم بين أهل
الأنواء والضلالات من صداقة مدخولة، وخلة مشبوهة، أساسها
التضامن ضد الحق وأهله، والتعاون على الإثم والعدوان، مُبَيَّنًا
أن هذه الصداقة مهما طالتم فمآلها إلى عداوة صريحة، وكرهية
بالغة، بحيث تنفصم عُراها لأول احتكاك يقع بينهم من أجل
المغانم أو المغارم، فلا يلبث بعضهم أن يتبرأ من بعض، وتتجلى
هذه القطيعة بينهم على أشدها يوم القيامة، حيث لا ينفع أحد
منهم الآخر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، على غرار قوله تعالى حكاية عن إبراهيم
الخليل وهو يُخَاطَبُ قَوْمَهُ الضالين (٢٩: ٢٥): ﴿وَقَالَ إِنَّمَا
اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾. أما الصُّحبة
في الله من أجل التعاون على البر والتقوى، والتزام الحق والصدق
دون مُدَاراة ولا مُدَاهَنَة، فهي نافعة في الدنيا، وأثرها ممتد إلى
الآخرة بفضل الله وكرمه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بصيغة
الاستثناء: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، وبشّر كتاب الله المتأخين في الله،
الذين قامت أخوتهم على تقوى من الله ورضوان، بأنهم سيُدْعَوْنَ
يوم القيامة بأفضل نداء يُدْعَى به المقربون عند الله، فقال تعالى:
﴿يَعْبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، ثم بين السر

فيما أعد الله لهم من نعيم مقيم، إذ قال تعالى في وصفهم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، فقد آمنوا بآيات الله حقاً وصدقاً، وقد أسلموا وجوههم لله رِقاً وَعِتْقاً.

وعرَّج كتاب الله بعد ذلك على العقيدة الباطلة التي يعتقدونها المشركون وبعض اليهود والنصارى، حيث يدَّعون أن الله ولدًا، وهذه العقيدة هي التي أشار إليها كتاب الله في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾، وفي الآية الثلاثين من سورة التوبة حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، واتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول ﷺ في هذا الربع ملقناً إياه ماذا يقوله لمن يعتقد هذه العقيدة الباطلة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾، أي: فأنا أول من يعظم ذلك الولد، لكن الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ومن هنا انتقلت الآيات الكريمة إلى تنزيه الله عن كل صفة من صفات النقص، وإلى تمجيده بكل صفة من صفات الكمال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبُّ الْعَرْشِ، عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦: ٣) ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا إله سواه، لا في الأرض ولا في السماء، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، وَتَبَرَّكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

واتجه الخطاب إلى الرسول عليه السلام مرة أخرى يدعوه إلى انتظار وعد الله بشأن مصير المشركين، فقال تعالى: ﴿فَذَرُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

والآن وقد انتهينا من سورة «الزخرف» المكية نتقل بعون الله إلى «سورة الدخان» المكية أيضاً، وقد أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى، فيها: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، وبمجرد الشروع فيها نجد أنفسنا أمام آيات كريمة تنوه بكتاب الله، وتصف «الليلة المباركة» التي أنزله الله فيها على قلب رسوله الصادق الأمين، وتلفت نظر الإنسانية جمعاء إلى أن كتاب الله إنما هو رحمة مرسله من عند الله، أنزله لهداية البشر، والأخذ بيدهم لسلوك مسالك الرشاد والسداد، وذلك قوله تعالى: ﴿حَمِّمْ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾. ويتصل بنفس الموضوع قوله تعالى (٢: ١٨٥): ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، وقوله تعالى: (٩٧: ١): ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فبمقتضى هذه الآيات الكريمة يتبين أن كتاب الله ابتداء نزوله في شهر رمضان المبارك، الذي شرع صيامه ذكرى

لنزول القرآن، وأن أول ليلة وقع بدأ نزوله فيها هي إحدى ليالي رمضان، وهي بالذات «ليلة القدر» التي هي عند الله خير من ألف شهر، وهذه الليلة هي التي نوه بها كتاب الله في فاتحة هذه السورة التي نحن بصدد تفسيرها، حيث وصفها بأنها «ليلة مباركة»، لأن القرآن الذي ابتدأ نزوله فيها كان أكبر بركة أنعم الله بها على بني آدم، بما فتح لهم من آفاق جديدة في العلم والمعرفة، وما هداهم إليه من وجوه الإصلاح الروحي والمادي لمختلف مرافق الحياة، وما أتاح لهم من الوسائل الفعالة، لترميم صرح الحضارة المتداعي، وبعث الإنسانية من مرقدها الطويل.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ إشارة إلى ما تولى كتاب الله الكريم بيانه من معالم الدين، وما شرعه من الأوامر والنواهي التي جعلها شرعة خالدة للمسلمين، ومنهاجاً دائماً للمؤمنين، فما من أمر أو نهي في كتاب الله إلا وهو يتضمن من الحكمة والرشاد، ما يضمن صلاح العباد ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (٩٥: ٨).

وقوله تعالى في وصف كتابه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ تعريف لعباده المؤمنين بأبرز خاصّة من خواص كتابه الكريم، فلا يُعرف في تاريخ البشرية أن كتاباً غير القرآن ماثله - فضلاً عن أن يفوقه - في الأخذ بيد الإنسان، وتحريره من سيطرة الأوهام وريق الأوثان، ودفع عَجَلَة تقدمه ونهضته إلى أقصى حدود الإمكان، ويكفي لتقدير فضله الواسع، ومعرفة تأثيره العميق، إلقاء نظرة ولو بسيطة

على تاريخ الأمم التي دخلت، بفضلها، في عداد الأمم
المتحضرة، والتي أصبح لها في ظله كيان وسلطان، والتي في
إمكانها إذا عادت إلى حظيرته بعزيمة وإخلاص أن تستعيد مجدها
وتفرض وجودها إلى آخر الزمان.

الربع الثالث من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ①
 وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ② وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ③ كَذَلِكَ وَأَوْثَقْنَاهَا
 قَوْمًا آخَرِينَ ④ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ⑤
 وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيهِ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ⑥ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 كَانَ عَالِيًا مِّنَ السُّرَفِينَ ⑦ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ⑧
 وَمَا أَنَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ⑨ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ⑩ إِنَّ
 هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ⑪ فَاتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ⑫ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلُكُنْهُمْ إِنَّهُمْ
 كَانُوا مَجْرُومِينَ ⑬ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ⑭
 مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑮ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ
 أَجْمَعِينَ ⑯ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ⑰
 إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑱ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ⑲

طَعَامُ الْأَشْيَمِ ٥٣ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٥٤ كَغَلِي الْحَمِيمِ ٥٥
 خَذُوهُ فَاَعْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَمِيمِ ٥٦ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ
 عَذَابِ الْحَمِيمِ ٥٧ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٥٨ إِنَّ هَذَا مَا
 كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٥٩ إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٦٠ فِي جَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ ٦١ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ٦٢ كَذَلِكَ
 وَرَوَّجْنَاهُمْ بِمُحَوَّرِينَ ٦٣ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ - آمِنِينَ ٦٤
 لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقِيلَهُمْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٦٥
 فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
 بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٦٧ فَارْتَفَبِ إِنَّهُمْ مُّرتَفَبُونَ ٦٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ - آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤
 وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَخْبَا
 بِهِنَّ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ
 آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦
 وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُبْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا

كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا
 اتَّخَذَهَا هُزُؤًا أَوَّلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑩ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ
 وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑫ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ⑬ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَى
 الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑭
 وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑮

الربيع الثالث من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربيع الثالث من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في «سورة الدخان» المكية: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ﴾، إلى قوله جل علاه في «سورة الجاثية» المكية أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾.

في بداية هذا الربيع يضرب الله الأمثال لمُشركي قريش بما وقع للأمم السابقة من قبلهم، فيتحدث كتاب الله عن الكارثة التي نزلت بفرعون وقومه، جزاء تحديه للرسالة الإلهية التي برزت على يد موسى الكليم، ومُحَارَبَتِهِ لَهَا مع المَلَأ من قومه بجميع وسائل التمويه والتهريج والتعذيب، ومُجَارَاة عامة قومه له ضد الحق المبين، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٤٣: ٥٤). وقد نعى كتاب الله ما خَلَفُوهُ وراءهم من بساتين ناضرة، وزروع مشمرة، ومياه جارية، وقصور عالية: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا

فَكَيْهِنَّ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَهَا قَوْمًا - آخَرِينَ ﴿٤﴾.

وبين كتاب الله هَوَانُ فرعون وقومه على الله وعلى الناس أجمعين، حتى أنه لم يَأْبَهُ أحد لنكبتهم، ولم تبك عين على ما أصابهم فجأة من العقاب والعذاب، إذ لم يتركوا وراءهم أي عمل صالح، أو ذكرى طيبة يذكرهم بها أهل الأرض أو أهل السماء: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾، قال قتادة: «كانوا أهونَ على الله عزَّ وجلَّ من أن تبكي عليهم السماء والأرض»، وقد سئل أحد أئمة التفسير الأولين: «أتبكي الأرض والسماء؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يَعمُرُها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دويٌّ كدوي النحل؟».

وأشارت نفس الآيات الكريمة إلى بعض الأسباب التي أوجبت غضب الله على فرعون وقومه، فهذا عذاب مُهين كان يُعَذَّبُ به الذين آمنوا بموسى من بني إسرائيل، ظلماً وعدواناً، وهذا إسراف بالغ كان لا يفتُرُ عنه في اللذات والشهوات، وهذا استعلاء وكبرياء كان يتحدى بهما قدرة الله المطلقة، وسطوته البالغة، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨ : ٤).

وتناولت الآيات في هذا السياق ما يدخره الحق سبحانه وتعالى للمعذَّبين في الأرض المغلوبين على أمرهم، من النجاة والفوز والنصر، في نهاية الأمر، وفي هذا تثبيت للمسلمين الأول،

الذين كانوا يتحملون من مشركي مكة أنواع الأذى وصنوف الإساءات، فتحدث كتاب الله ضارباً لهم المثل بنجاة بني إسرائيل من عذاب فرعون، وخروجهم من قبضته، واختيارهم على غيرهم من أهل زمانهم لحمل الأمانة، بقيادة موسى الكليم عليه السلام، إذ أنهم كانوا وقتئذ أفضل معاصريهم وأولاهم بحمل الأمانة، رغماً عما يعلمه الحق سبحانه وتعالى فيهم من وجوه النقص المتعددة، التي كان يعالجها بالتهذيب والتشذيب موسى وأخوه هارون ومن جاء بعدهما، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ - عَلَى عِلْمٍ - عَلَى الْعَالَمِينَ، وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَدٌ مُّبِينٌ﴾، أي: آتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار ظاهر، وامتحان جلي، لمن اهتدى به وكان من المهتدين.

وبعد ما تحدث كتاب الله عن إنكار مشركي قريش لعقيدة «البعث» الأساسية في الدين، وعن ادعائهم أنه لا نشر ولا بعث بعد الموت، وعن مطالبتهم للرسول عليه السلام ببعث آبائهم من القبور فوراً، وإرجاعهم إلى الحياة الدنيا، حتى يُدْعَنُوا ويؤمنوا بالبعث المنتظر يوم القيامة، تساءل كتاب الله هل مشركو قريش خير عند الله من قوم «تَّبِعَ» الذين أهلكهم وأهلك من قبلهم بشركهم وإجرامهم، وكأنه يقول: إن المصير الذي انتهى إليه قوم تَّبِعَ، ومَن ماثلهم من الأقوام المنحرفة عن الحق، سيكون هو نفس المصير الذي يؤول إليه أمر مشركي قريش، وذلك قوله تعالى مشيراً إليهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا

الْأُولَى، وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ، فَاتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٤٩﴾.

وفي تفسير ابن كثير: «إِنْ قَوْمُ تُبَّعٍ هُمْ «سَبَأُ» أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ فخر ببلادهم، وشردهم، ومزقهم كل ممزق، وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء المشركين عرب من عدنان، وقد كانت جُمَيْر - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سَمُوهُ «تُبَّعاً» كما كان يقال «كسرى» لمن ملك الفرس، و«قَيْصَر» لمن ملك الروم، و«فرعون» لمن ملك مصر، و«النجاشي» لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس»، قال قتادة: «ذَكَرَ لَنَا أَنَّ كَعْباً كَانَ يَقُولُ فِي تُبَّعٍ: إِنَّهُ نَعْتُ نَعْتِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى قَوْمَهُ، وَلَمْ يَذُمَّهُ، قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ: «لَا تَسْبُوا تُبَّعاً فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا»، ثُمَّ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَحَجَّ تُبَّعُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِي زَمَنِ الْجُرْهُمِيِّينَ، وَكَسَاهُ الْمَلَأَ وَالْوَصَائِلَ مِنَ الْحَرِيرِ وَالْحَبِيرِ، وَنَحَرَ عِنْدَهُ سِتَّةَ آلَافٍ بَدَنَةً، وَعَظَّمَهُ وَأَكْرَمَهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْيَمَنِ، وَقَدْ سَاقَ قِصَّتَهُ بِطُولِهَا الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ».

وانتقل كتاب الله إلى تأكيد حقيقة إسلامية طالما قررها وأكدها لترسخ في الأذهان، ألا وهي أن الله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثاً ولا لعباً، وإنما خلقه لحكمة سامية اقتضت خلقه، ولأمر عظيم أَرَادَهُ مِنْ وَرَاءِ إِبْدَاعِهِ، وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ وَهَذَا الْأَمْرُ الْعَظِيمُ يَنْبَغِي أَنْ يَحَاوِلَ الْإِنْسَانُ فَهْمَهُمَا، وَالْإِلْمَامُ بِهِمَا، إِذْ

عن طريق هذا الفهم وهذا الإيمان يدرك الإنسان ما لخالق الكون من جلال وجمال بارزين في خلقه، ويدرك السر الذي اقتضى خلق الإنسان، وترشيحه للخلافة عن الله في هذا الكون، فمن لم يعرف الغاية من خلق الكون عموماً لم يدرك الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، الذي هو جزء لا يتجزأ من هذا الكون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، على غرار قوله تعالى (٣٨: ٢٧): ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا. ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، وقوله تعالى (٢٣: ١١٥): ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

ومضى كتاب الله يصف أهوال الجحيم، التي تنتظر أعداء الحق من المشركين والكافرين، كما يصف مسرات دار النعيم، التي تنتظر أهل الحق من المؤمنين المتقين، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ، إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَىٰ، وَوَقَيْهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وها هنا تنتهي من «سورة الدخان» المكية لنتقل إلى سورة «الجاثية» المكية أيضاً، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَٰثِيَةً﴾، وفي مطلعها نجد أنفسنا أمام حديث مستأنف عن القرآن الكريم، والتنويه بمقامه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ

مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾، ثم تشرع السورة في تعداد آيات الله الماثلة في آفاق الكون الواسعة، وتعداد آيات الله الناطقة في كل إنسان إنسان وحيوان وحيوان، وآيات الله البارزة في الظواهر الكونية، التي تتعاقب وتتوالى دون انقطاع وفي كل وقت، مما يَحْمِلُ على الإذعان لقدرة الله وحكمته، ويقوّي اليقين بعدله ورحمته، ويدفع إلى التطوع بعبادته وطاعته، نتيجة لاهتداء العقل إلى معرفته، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ءَايَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقد أحسن جار الله الزمخشري في تفسير هذه الآيات حيث قال: (المعنى أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فأمنوا بالله وأقروا، ﴿ءَايَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال، وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً، وقبلاً ودُبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾) وحلل ابن كثير قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾، فقال: أي جنوباً وشمالاً، ودُبوراً وصَباً، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو

للمطر، ومنها ما هو للّقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا يُنتج، وسُمّي المطرُ في هذه الآية «رزقاً»، لأن به يحصل الرزق، ونبه إلى السر في قوله تعالى أولاً: ﴿لَأَيِّتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله ثانياً: ﴿لَّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وقوله ثالثاً: ﴿لَّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وأن ذلك ترقّي من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وقال القشيري: «جعل الله العلوم الدينية كسبيّة مصحّحة بالدلائل، محقّقة بالشواهد، فمن لم يستبصر بها زلّت قدمه عن الصراط المستقيم».

وهذه الآيات الكريمة شبيهة بآية سورة البقرة (١٦٤): وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، مِنْ مَّاءٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيِّتٍ لَّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وختم هذا الربع بآية جامعة مانعة في هذا المجال، هي نقطة الانطلاق ومحور التفكير في الحال والمآل، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيِّتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ
لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نِيْلَ إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾
وَعَآدِئْتَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَإِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا
بَصَائِرُ النَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٧﴾
 أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْيَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ
 عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَفَلَهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ
 مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ
 إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا اسْتَبَلَىٰ عَلَيْهِمْ وَاءِ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
 مَّا كَانَ مُجْتَهِمُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا تَوَابِعٌ بَابِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾
 قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٣٢﴾ وَتَبَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ
 بِجَائِثَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾
 هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ
 هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَةً تُبَلَىٰ عَلَيْكُمْ
 فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْزَوْنَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ
 لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ

بِمُسْتَقِينٍ ③٢ وَبَدَّاهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ ③٣ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
 وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ③٤ ذَالِكُمْ بِأَنكُم بِآيَاتِنَا تُمْرُونَ
 وَاللَّهُ مُهْزِئٌ وَاعِزٌّ ③٥ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْتَبُونَ ③٦ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ③٧
 وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③٨

الربع الأخير من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ونهايته قوله تعالى في ختام «سورة الجاثية»: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

يتوجه الخطاب الإلهي في مطلع هذا الربع إلى الرسول عليه السلام ليرشد السابقين من المؤمنين، الذين يتحملون معه بمكة صنوف الإذابات، وضروب الإساءات من طرف المشركين، إلى ضرورة الصبر على أذاهم، والاعضاء عن إساءتهم، ذلك أن هؤلاء المشركين الضالين جديرون في هذه المرحلة التمهيدية بالإهمال والرثاء، أكثر مما هم جديرون بالمؤاخذه والجزاء، فهم لا يزالون غمى البصائر، ضعفاء العقول، فاقدين لقوة التمييز بين الحق والباطل، محرومين من نور الإيمان، شاكين في «أيام الله»، التي لا ريب فيها ولا شك، فالأولى عدم الرد على أذاهم بمثله، وعدم التسابق معهم في مجال الإساءات

والمضايقات. وفي الموقف الذي يقفه المؤمنون من أذى المشركين، مساعدة لهؤلاء الحيارى على إدراك التأثير الروحي العميق، الذي أحدثه الإسلام في معتنقيه، وعلى مقارنة التهذيب الإسلامي والأخلاق الإسلامية السمحة، بما هم عليه من أخلاق «الجاهلية الأولى» وتقاليدها الصيبانية والعدوانية.

يضاف إلى ذلك أن صبر المسلمين على أذى مشركي مكة يُحَسَّبُ لهم عند الله من الأعمال الصالحة، التي يُجْزَوْنَ عليها الجزاء الحسن، كما أن أذى المشركين للمؤمنين سَيُضَاعَفُ لهم - إن لم يؤمنوا ويتوبوا - الجزاء السيء عندما يحُلْ موعد الجزاء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة فوراً للتذكير بمبدأ إسلامي أصيل، وعقيدة جوهرية من عقائده الأولى، ألا وهي أن كل فرد مسؤول عن نفسه، وأن كل فرد مَجْزِيٌّ على عمله، وما دام الأمر هكذا فلا موجب لمُغْلَاة المؤمن في حمل المخالف له على اعتقاد ما يعتقد هو، بوسائل الضغط والإكراه، بمعنى أن المؤمن، عندما يدعو المخالف له إلى الإيمان، ويبلغه رسالة ربه بالتي هي أحسن، يكون قد أدى واجبه كاملاً غير منقوص، وليس مطالباً بأن يحمل غير المؤمن على عقيدة الإيمان كرهاً، فهؤلاء المشركون الذين لا يزال المسلمون يعاشونهم في مكة، قبل أن يؤذَنَ لهم بالهجرة إلى المدينة، قد استمعوا إلى كتاب الله، ودعاهم الرسول والمؤمنون

معه إلى الحق المبين، وبذلك أصبحوا مسؤولين عن أنفسهم،
موكولين إلى اختيارهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا
الربيع: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية
(٥٢: ٢١)، ﴿كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

وأعاد كتاب الله الحديث عن قصة بني إسرائيل ليضرب بهم
المثل للمؤمنين، حتى لا يسلكوا مسلكهم ولا يتعرَّضوا للعزل عن
خلافة الله في الأرض، التي أراد أن يُعَدِّهم لها بخاتم كتبه، على
يد خاتم أنبيائه ورسله، فقد مرَّ بنو إسرائيل بفترة اختارهم الله فيها
من بين جميع معاصريهم لحمل الرسالة الإلهية التي جاء بها
موسى عليه السلام، وفي ذلك الطور آتاهم الله الكتاب والحكم،
والنبوة والعلم، ثم تبع هذا الطور طور آخر من الخلاف
والانحراف، والعناد والفساد، والطغيان والعدوان، فبعث الله
عيسى بن مريم، إذ «أنعم عليه وجعله مثلاً لبني إسرائيل»، وذلك
ليبين لهم بعض الذي اختلفوا فيه، ويردهم إلى حظيرة الاستقامة،
وطريق السلامة، وبدلاً من أن يستجيبوا لدعوته، كانوا حرباً عليه
وعليها، فترع الله عن بني إسرائيل أهلية الخلافة وشرف النبوة،
واقترضت الحكمة الإلهية تكليف فرع آخر من عقب إبراهيم
الخليل وابنه إسماعيل الذبيح، عليهما السلام، بحمل الرسالة،
وأداء الأمانة، وتجديد الدين الحق، بين الخلق، والخلافة عن الله في
الأرض، على أساس ملة إبراهيم، وكان ذلك على يد سيدنا
محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا السياق

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: فضلناهم على معاصريهم وأهل زمانهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، أي: حُجَجاً بَيِّنَةً وبراهين قاطعة، من الشريعة التي جاء بها موسى، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أي: أنهم من بعد قيام الحجج الثابتة بالوحي اختلفوا فيما بينهم، وحرفوا الكلم عن مواضعه، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، أي: حسداً من بعضهم لبعض، وبغياً من بعضهم على بعض، اتِّباعاً للأهواء والأغراض والشهوات.

وعقَّب كتاب الله على الخلافات التي قامت بين بني إسرائيل ففرقت جمعهم، وأدت إلى نزاع صَوْلَجَانِ الخلافة عن الله من بين أيديهم، وإخراج النبوة نهائياً من سلالتهم، فخاطَبَ الرسول عليه السلام قائلًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كَأَنَّ الحق سبحانه وتعالى يشير إلى أن الخلافات التي نشأت بين بني إسرائيل فيما بينهم، وبين بقية الملل والأديان، أصبحت خلافات مُزْمِنَةٌ لا سبيل إلى علاجها، بل إنها سترافقهم على مر الزمان إلى اليوم الموعود، وهذه الحقيقة ماثلة للعيان، منذ نزل القرآن، إلى الآن وحتى الآن.

غير أن كتاب الله - وهذا هو الغرض المقصود من الحديث عن بني إسرائيل، ووصف ما تعرضوا له في حالتي الرضى والغضب من جانب الله - وَجَّهَ الخطاب إلى خاتم الأنبياء والرسل،

وعن طريقه وجه الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعياً له ولهم إلى وجوب التمسك بشريعة الإسلام التي حلت محل الشرائع السابقة، وإلى ضرورة اتباعها وعدم الخروج عنها، والحذر من الوقوع في شبكات الأهواء المفرقة، والاختلافات الممزقة، إذ أن أصحاب الأهواء ودعاة الفرقة الذين يدعون لأهوائهم، ويستدرجون إليها أهل الحق، لا يستطيعون أن يردوا غضب الله، عمن حاد عن شريعة الله، وتعدى حدود الله، وهم أعجز من أن يبقوا على عرش الخلافة عن الله، من خان الأمانة وأشهر الحرب على الله، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، ويؤكد كتاب الله هذا المعنى لافتاً نظر الرسول عليه السلام إلى حال أهل الكتاب، الذين اتبعوا أهواءهم من بعدما جاءهم من العلم، وما هم عليه من تناقض وتخاذل وحيرة وارتباك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومما ينبغي الانتباه إليه في هذا المقام كلمة «الامر»، التي تكررت في هذا الموضوع، ولأمر ما كان هذا التكرار والربط في نفس السياق، ففي الحديث عن بني إسرائيل سبق قوله تعالى هنا: ﴿وَعَاتَيْنَهُم بُيُوتًا مِّنَ الْأَمْرِ﴾، وفي الخطاب للرسول عليه السلام ورد قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، وكلاهما ينظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف (٥٤):

﴿الْأَلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، تَبَرَّكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، مما يوضح أن الله تعالى كما انفرد بخلق الإنسان وجميع الأكوان، فهو وحده الذي له حق «الحاكمية» على الإنسان، إذ هو سبحانه المنفرد بعلم حقيقته ووجوه نقصه في كل زمان ومكان، وإلى كتاب الله ومزاياه يشير قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ومضى كتاب الله في المقارنة بين الصالحين والفاسقين، وما هنالك من فوارق أساسية وجوهرية بين الفريقين في الحياة وبعد الممات، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءٌ مَّحْيَاهُمُ وَمَمَاتُهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ويصف كتاب الله عقيدة «الدَّهْرِيِّينَ» الباطلة ومن لف لفهم فيقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، ويطل كتاب الله عقيدتهم بحجج الفطرة القاطعة، وشواهد التجربة الناطقة، مؤكداً مرة أخرى أنه سيجمع خلقه يوم الجمع ليفصل بينهم، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن اليوم الموعود، واجتماع كافة الأمم فيه أمام خالقها وهي «جاثية» على رُكَبِهَا، وعن دعوة كل أمة منها إلى كتابها، إذ أن «العهد» بين الله وبينها هو ما أنزله إليها من كتبه، وما أرسله إليها من رسله، ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٤: ١٦٥)، «وَدَعْوَةُ كُلِّ أُمَّةٍ إِلَى كِتَابِهَا»

تقتضي محاسبتها من الله حساباً عسيراً على ما فعلت بالكتاب الذي أنزل إليها، هل اتبعته ووفت بما عاهدت الله عليه، أم اتخذت كتابها مهجوراً، ونبذته وراء ظهرها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ -إِنِّي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَمَأْوِيَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾.

وختِمت هذه السورة بشكر الله على آثار نعمته وجماله والخشوع والخضوع أمام عظمته وجلاله، إذ قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.



دار الغرب الإسلامي
لمصاحبيها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص.ب. 113-5787 بيروت - لبنان

رقم الإيداع القانوني

١٩٨٣ - ٤٢٧

الرباط

الرقم 85/4/3000/49

التنفيذ : كوميو تايب للمصنف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد - بيروت
